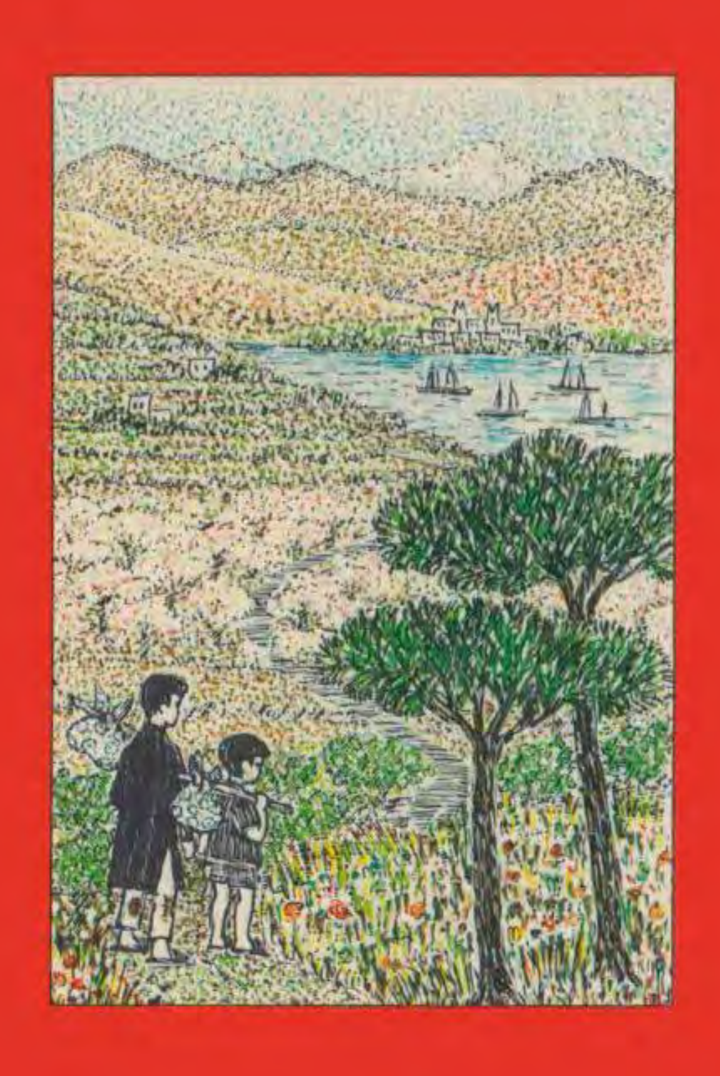


مغامرات أحمد وطلال

٣٠ السلسلة المترجمة

مكتبة الطفل



مغامرات أحمد وطلال

٣٠ السلسلة المترجمة



الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الأطفال
قسم مكتبة الطفل

تم انتاج هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة سارتك ـ لوزان.

مغامرات أحمد وطلال

" الحياة رحلةٌ مليئةٌ بالاكتشافاتِ والمُفاجآتِ
والعَقَباتِ التي يجبُ التغلبُ عليها بآستمرار "





الرّحيــل



" قيامُنا بالواجبِ يقوّي عزيمتَنا ويشجّعُها على مواجهةِ مصاعبِ آلحياة"

كانَ ضَبابُ شهر أيلول يعمُّ أنحاءَ آلقريةِ عندما خرجَ منها طفلانِ شقيقانِ يحملُ كلٌّ منهما على كتفِهِ عصا مربوطةً بطرفِها صرةٌ صغيرة.

وكان الاثنانِ يسيرانِ بخفَّةٍ وسُرعةٍ وهُدوء، يداهُما مُتشابكتانِ، وعلى وجهِ كلٍّ منهما مسحةٌ من آلقَلَقِ والاضطرابِ، وقد دلّت ملابِسُهما آلباليةُ وسِمَةُ الحُزنِ على وجهيهِما على ما يشعُرانِ بهِ من حُزنٍ وتعاسة. وبرغمِ الظّلامِ الكثيفِ الذي كانَ يُحيطُ بكلِ شيءٍ ويُخفِيهما عَنِ الأنظارِ، فق

فضّلا السّيرَ في ٱلأماكنِ المُظلِمةِ بمحاذاةِ الأشجارِ بعيدًا عن الطّريقِ العام.

كانَ أحمدُ أكبرَ ٱلأخوينِ ويَبلُغُ من ٱلعمرِ أربعةَ عشرَ عاماً، وكان قويَّ البِنيةِ، ويبدو نظرًا لضخامتِهِ وقوّتِهِ كما لو كانَ أكبرَ من عُمرِهِ بعامينِ في الأقل.

أمّا الأخُ الأصغرُ طلالُ، فقد كان يبلغُ من ٱلعمرِ سبعةَ أعوامٍ. وبرغمِ ضعفِهِ ورِقّتِهِ ونحافتِهِ، فقد كانَ أكثرَ شجاعةً وذكاءً من كثيرٍ من ٱلأطفالِ في مثلِ سِنِّهِ.

وعندما ٱبتعدَ ٱلأخوانِ قليلاً عن ٱلقريةِ، همسَ أحمدُ مُخاطبًا أخاهُ بصوتٍ منخفضٍ جدًّا كما لو كانَ يخشى أن تسمعَهُ أشجارُ ٱلطّريقِ:

- لا تخفْ يا أخي، فلم يرَنا أحدٌ ونحنُ نغادرُ ٱلقريةَ.

وردّ عليه طلالُ قائلا:

- كلاّ. لستُ بخائفٍ يا أحمد، لأنّني أعرفُ أنّنا نقوم بواجبنا.

وقال أحمدُ:

- إنّك شُجاعٌ يا طلالُ، ولكنّنا سنسيرُ عدّةَ ليالٍ قبلَ أن نصلَ المكانَ الذي نقصُدُه، وأرجوكَ أن تُخبرني إذا شعرتَ بالتّعبِ حتى أحملَكَ على كتفي.

وردّ طلالُ قائلاً:

- لا يا أحمدُ، إنّ ساقيّ قويتان، ولستُ صغيرًا حتى تحملَني على كتِفِك.

وٱستمرّ الاثنانِ في السيرِ بعزمٍ وإصرارٍ تحتَ المطرِ الذي أخذ في الهُطُولِ. وحلّ ٱلليلُ وبدأ ٱلظلامُ يزدادُ حلكةً، وبدتِ ٱلسّماءُ سوداءَ خاليةً من ٱلنُّجومِ، وأخذتِ الرّيحُ تهزُّ الأشجارَ ٱلضّخمةَ وتعصفُ بصوتٍ كالنّواحِ، وتقصفُ بالمطرِ وجهي الطّفلينِ اللّذينِ لم يأبها بكلِّ ذلك.

وآستمرا في طريقهما بدون تردُّدٍ ويداهُما متشابكتانِ.

وعندَ مُنعطفِ آلطّريقِ، سَمِعَ الطّفلانِ وقعَ خُطواتٍ، فـآنزلقـا بسرعـةٍ وهدوءٍ إلى إحدى آلحُفر، وآختبآ بـدونِ حِراكٍ تحتَ الشّجيـراتِ، وظلاّ كذلكَ حتّى مرَّ جماعة من سُكانِ آلقرية وآبتعدت ضجةُ خُطواتِهم الثقيلةِ تدريجيًا على الطّريقِ العام، وعنـدئذٍ فقط خـرجا من مخبئهمـا وآستأنفـا سيرهما بعزمٍ متجدِّد.

وبعد ساعاتٍ طويلةٍ من آلمشي وآلتّعب وآلقلق، رأى أحمدُ وطلالٌ من خلالِ الأشجارِ كُوخاً ينبعثُ منه ضوءٌ صغيرٌ باهتٌ يبدو على آلبُعدِ ضعيفًا مرتجفًا كنجمٍ يلمعُ في سماءٍ عاصفةٍ، فانحرفا إلى الطّريقِ المؤدي إليه، وآتّجها بسُرعةٍ إلى آلكوخِ آلمضيء. وصل الطّفلانِ الكوخَ ووقفا أمامَ بابِهِ مترددينِ لا يجسـرانِ على طرقِهِ، وقد سيطرَ عليهما خَجَلٌ مفاجئ، حيثُ لم تكن من عادتِهما طرقُ الأبوابِ لِطَلبِ أيِّ شيء. والتصقَ الأخَوَانِ أحدُهما بالآخرِ وهما يرتعشانِ وقد امتـلأ قلبُ كلٍّ منهمـا بالهمِّ والحـزنِ، وأخيرًا استجمع أحمدُ شَجاعتَهُ وقال لأخيه:

ـ هذا كُوخ صديقٍ قديم لوالدِنا، ولا بأسَ من أن نطلُبَ منهُ مساعدَتنا.

وانتظر أحمدُ لحظَةً قصيرةً ثم دقَّ آلبابَ بوجلٍ وتردُّد.





كرمُ الضِّيافـة

"سمعةُ الأبِ الطيبـةُ هي
ثروةٌ لأبنائهِ"

انبعثَ مِن داخلِ الكوخِ صوتٌ غليظٌ خشنٌ يسألُ:

ـ مَنْ هناك ؟

وارتفعَ في الوقت نفسِهِ نُباحُ كلبٍ من مكانٍ قريبٍ من آلبابِ، وردّ أحمدُ بصوتٍ مُتَرَدِّدٍ غطّى عليه نُباحُ الكلب :

ـ أحمدُ . . .

وفي اللحظةِ نفسِها خرجَ الكلبُ من مأواهُ وهو يشدُّ سلسلتَهُ بعُنفٍ وقُوّةٍ وكأنّه يوشك أن ينقضَّ على آلطّفلين. وآنطلقَ الصّوتُ الغليظُ يسألُ مـرةً أُخرى بخشونةٍ أكبر :

ـ مَنْ يطرقُ آلبابَ في هذه السّاعةِ المتأخّرةِ من الليل ؟

وردّ أحمدُ وآشترك معه طلالٌ في آلردِّ حتّى يسمعَ الرّجلُ صوتَيهما :

ـ أنا أحمد .

انفتح آالبابُ على مِصراعيهِ، وسَقَط ضوءُ آلمِصباحِ على آلمسافِرَين آلصّغيرَينِ الواقفينِ على عَتَبتِهِ، فظهرتْ ملابسُ الحِدادِ التي يلبسانِها وقد بلَّلَها آلمطرُ، كما ظهرَ آلتعبُ والاضطرابُ على وجهيهما المُرهَقَين.

نظر العمُّ سعيدٌ إلى الطِّفلينِ بآهتمامٍ ودهشةٍ وقال بصوتٍ هادىء :

ـ ماذا هُناكَ ياطفليَّ الصغيرين ؟ مِنْ أينَ أتيتُما ؟ أينَ والدُكما ؟

وقبل أن يسمعَ ردَّ آليتيمينِ على أسئلتِهِ، حملَ طلالاً بين ذراعيهِ واحتضَنَهُ بحنانٍ أبوي . وبكلِ ما في الطُّفولةِ من براءةٍ وتلقائيةٍ، قبَّلَ طلالاً العمُّ سعيدً بمحبةٍ وتأثُرٍ وتنهَّدَ بحرارةٍ وقالَ له :

ـ لقد ماتَ أبونا يا عمي .

وصاحَ العمُّ سعيدٌ بآنفعال :

ـ ماذل تقولُ ؟ أماتَ صديقي آلحميم ؟

وأجاب أحمد :

ـ نعم، كانتْ رجلُهُ مريضةً جدًّا، ومع ذلك اضطر إلى الذَّهابِ للعملِ برغمِ آلمرضِ، فسقطَ من فوقِ السقَالةِ* وأُصيبَ إصابةً بالغةً أودتْ بحياته .

واغرورقت عينا آلعجوزِ بالدُّموعِ وقال :

ـ وا أسفاهُ ! وأنتما ؟ كيفَ سيكونُ مصيرُكما ؟

وقبل أن يستمرَّ أحمدُ في آلحديثِ عَنِ آلمُصيبةِ التي لحِقتْ بهما، قاطعَهُ

---

* السّقالة : هي ما تسمّى عندنا (الإسقلة) التي يصعد عليها العمال في البناء .

العجوزُ الطَّيِّبُ العمُّ سعيدٌ قائلاً :

ـ لا ، لا ، لا أُريدُ الآنَ سَماعَ أيِّ شيءٍ ، فقد بلّلكُما المطرُ وهدّكُما التّعبُ ويجبُ أن تستريحا وتصطليا بنارِ الموقد، كما ينبغي لكما أن تأكُلا شيئًا من ٱلطّعامِ لأنكما ولا شك في منتهى الجوعِ والعطش.

وأجلس العمُّ سعيدٌ الطِّفلينِ أمامَ الموقدِ وغذّى نارهُ بقطعٍ من الأخشابِ اليابسةِ، ثم سُرعانَ ما بدأتْ رائحةُ البصلِ المقلي تَعُمُّ الغرفةَ، وبعدَها بقليلٍ أخذَ يتصاعد من القدر الموضوعةِ على النّارِ بخارُ الحَساءِ الّلذيذ. وقدَّمَ العجُوزُ الحساءَ للطّفلينِ، ثم أخذ في إحضارِ البيضِ لإعداد العُجَّةِ.

وبينما كان أحمدُ وطلالٌ يلتهمانِ الحَساءَ الشَّهيَّ الذي بعثَ في جسميهما ٱلدِّفءَ والحرارة، والعمُّ سعيدٌ مستمرٌّ في إعدادِ العُجَّةِ، قامت زوجتُهُ بِسحبِ حشيةٍ من سريرها وأعدّت فِراشًا طيِّبًا للمسافرينِ الصَّغيرينِ. وفي أثناءِ تناولِ الطَّعامِ ، وهمهمةُ النّار تتصاعدُ من الموقد بهُدوءٍ، أجاب أحمدُ عن جميعِ ٱستفساراتِ صديقِ والدِهِ القديمِ ، وأطلَعهُ على أحوالِ أسرتهِ كلِّها.

أمَّا الصَّغيرُ طلالٌ، فقد كانَ في مُنتهى ٱلتّعبِ والإرهاقِ بعد ٱلمشي الطّويلِ الذي أتعب ساقيهِ وآلمَهُما، كانت رغبتُهُ في النَّومِ أشدَّ من إحساسهِ بٱلجوعِ ، وقد قاوم بشدّةٍ حتّى تبقى عيناه مفتوحتينِ، إلاّ أن مقاومتَهُ لم تستمرَّ طويلاً، وسُرعانَ ما استغرقَ في نومٍ عميقٍ قبلَ الانتهاءِ من تناوُلِ الطّعام، فلم يشعرْ من شِدّةِ تعبِهِ وٱستغراقِهِ في النّومِ بزوجةِ العمِّ سعيد وهي تخلعُ ملابسهُ وتضعُهُ في السّرير.



الحُبُّ الأَخوي وحبُّ الوطن

"نمشي يا أخي دائمًا يداً بيدٍ تُوحِّدُنا عاطفةٌ واحدةٌ هي حُبُّ آلوالدينِ وآلوطنِ وآلواجب "

وبينما كان طلالٌ مُستغرِقًا في النّومِ ، جلسَ أحمد الى جانبِ آلعمِّ سعيدٍ، وقصَّ عليهِ كيفَ أرغمتهما الظروفُ على مغادرةِ قريتِهما الصغيرةِ التي وُلدا فيها. ففي أعقابِ الحربِ، أغارَ العدوُّ على أجزاء من أقاليمِ الوطنِ وآحتلّها، وغادرَ السُّكانُ الذين رفضُوا العيشَ في ظلِّ الاحتلالِ قُراهم، وهاجروا للاقامةِ في مناطقَ أُخرى بعيداً عن العدو. وكان والدُ أحمدَ وطلالٍ رجلاً مستقيمًا طيّبَ آلقلبِ، ماتتْ زوجتُهُ منذُ وقتٍ طويلٍ ، فقامَ وحدَهُ بتربيةِ ولديهِ وآلعنايةِ بِهما. وفكّرَ الوالدُ كما فكّرَ غيرُهُ من سُكانِ

آلمنطقةِ في الهجرةِ إلى مكانٍ آخرَ، وبدأ يعملُ بجدٍ ونشاطٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى من أجلِ توفيرِ نفقاتِ آلسَّفرِ، كما بدأ أحمدُ يعملُ أيضًا ويتعلَّمُ في الوقت نفسِهِ حرفةَ الحِدَادَةِ عندَ أحدِ الحدّادِين. وذاتَ يوم، وقد تمّ إعدادُ كلِّ شيءٍ بما في ذلك تحديدُ موعدِ السَّفرِ، سقطَ الأبُ من فوقِ السَّقالةِ، وأُصيب إصابةً بالغةً، فحملهُ نفر من النَّاسِ الى بيتِهِ وهو يوشك أن يموتَ وبينما كان الجيرانُ يُسارعونَ في طلبِ النَّجدةِ، جلسَ الأخَوانِ وحدَهما الى جانب سريرِ والدِهما المتمدِّدِ بلا حراك. وتناولَ الصغيرُ طلالُ يدَ والـدِهِ المُحتَضَرِ، وأخذَ يُقبّلُها بحنانٍ وهو يقولُ بصوتٍ خافتٍ حزين :

ـ أبي . . . ! أبي . . . !

وآرتعشَ آلأبُ كما لو أنَّ صوتَ آبنِهِ الغالي أيقظَ لديهِ ما تبقّى فيه من رمقٍ، وحاولَ الكلَام فلم يستطعْ، وتحركتْ شفتاهُ ولكنّه لم ينبسْ بكلمة. وحينئذٍ علا وجهَه قَلَقٌ هائل، وبدت عليه علاماتُ التفكير كأنهُ يبحثُ عن وسيلةٍ يُعبِّر بها لولديه عن رغباتِهِ الأخيرة. وبعد لحظةٍ قصيرةٍ، رفع يدَ طلالٍ الصغيرةَ بمجهودٍ كبيرٍ، ووضعَها على يدِ أخيه الأكبرِ أحمدَ، ثم نظر نظرةً طويلةً لولديهِ كأنهُ يُريدُ أن يقولَ لهما بنظرتِهِ آلعميقةِ وبعينيهِ آلحزينتين :

" ليحبَّ كلٌّ منكما الآخَرَ حُبًّا مُخلِصًا عميقًا الى آخرِ آلعُمرِ، وسوف تُصبحانِ منذُ الآن وحيدَينِ في هذهِ الدُّنيا، فعيشا دائمًا متّحدَينِ متماسكين، يدُ كلٍّ واحدٍ منكما في يدِ الآخَر، تمامًا كما أراكما الآن أمـامي في هذه آللَّحظَة ". وفهِم أحمدُ نظرةَ والدِهِ الحنونةَ، فاقتربَ منْهُ وقال له :

ـ أبي العزيز، إطمئنَّ وتأكدْ من أنّني سأُربي أخي طلالاً وسأرعاهُ كما لو أنّك أنت نفسُك كنتَ ستقوَمُ بذلك، وسوف أعَلِّمُهُ كما علّمتني حُبَّ الوطنِ

والواجبِ، وسنحرِصُ نحنُ الاثنينِ على أن نكونَ طيِّبينِ وصالحين.

وبعد لحظةٍ قصيرةٍ لفظَ الوالدُ ٱلمسكينُ نَفَسَهُ الأخير. ولم يستغرِقْ هذا المشهدُ سوى لحظاتٍ، إلاّ أنَّهُ تركَ أثرًا لا ينمحي في قلبِ كلٍّ من الأخوين.

وبعدَ مرورِ بعضِ الوقتِ على وفاةِ الأب، قررَ الأخوانِ تركَ الأراضي المحتلةِ والالتحاقَ بعمٍّ لهما كانت أخبارُهُ قد ٱنقطعت عنهما منذُ عدةِ سنواتٍ، وقد كان آخرَ من تبقّى لهما من أقاربَ في هذا الوجود.

وعندما ٱنتهى أحمدُ من سردِ ما مرّت عليهِ وعلى أخيه من أحداثٍ، أمسكَ العمُّ سعيدُ بكلتا يديهِ بتأثُّرٍ وقال له :

ـ انتَ وأخوكَ طفلان شُجاعانِ، وإنكما لجديرانِ بوالدِ كما وبوطنِكما ! وسوفَ تلقيانِ العَوْنَ والمُساعدةَ من جميعِ النَّاسِ الطيبينَ، ولكوني صديقًا قديمًا لأبيكما، فإنَّني سأرعاكُما وسأدفعُ عنكما كلَّ سُوء.





عطاءٌ في السِّر

" الاحسانُ للفقراءِ
والمحتاجِينَ عملٌ عظيم "

وفي اليوم المُقبِلِ ، بدأتْ زوجةُ آلعمِّ سعيد نشاطها كالمُعتاد منذُ آلصَّباحِ آلباكر. وقد قامت أولاً وقبل كلِّ شيءٍ بِتفحصِ صُرّتي ملابسِ أحمد وطلال، وأصلحت ما يجِبُ إصلاحُهُ من بنطلوناتٍ وقُمصانٍ، ثم أشعلتِ آلنارَ في الفرنِ ونشرتْ حولَهُ ملابسَ الطِّفلينِ المبلّلةَ، وعندما نشفت تمامًا نفضت عنها الغُبارَ وسوّتها بعنايةٍ وآهتمام .

وبينما كانت زوجةُ آلعمِّ سعيدٍ تطوي صدريَّة أحمدَ، سقطت منْ أحدِ جيوبه رِزْمةٌ صغيرةٌ بها كيسٌ ومجموعةٌ من الأوراقِ المطويّة. وخاطبت العجوزُ الطّيبةُ نفسهَا قائلة :

ـ لا شكَّ في أنه توجدُ في هذا الكيس الصّغيرِ ثروةُ الطِّفلينِ كلُّها، وأعتقدُ أن ماليهما من مال قليلٌ جدًّا، ولذلك سيكونُ من اللّازمِ عليَّ مساعدتُهما على قدْرِ المستطاع.

وفتحتْ زوجةُ العمِّ سعيدٍ الكيسَ الصّغيرَ، وأحصتْ ما يحتويهِ من نُقودٍ وقالت :

ـ أربعونَ قطعةً فقط، هذا مبلغٌ ضئيلٌ جدًّا لا يكفي للسّفرِ الطّويلِ، والمدينةُ التي يقصدانِها التي يعملُ بها عمُّهما بعيدةٌ، فكيفَ سيكونُ حالهُما وأيامُ المطرِ والبردِ قادمةٌ إذ أنّ فصلَ الشِّتاءِ على الأبواب. . .

وتنهّدتِ العجوزُ وأضافت :

يا لَليَتيمينِ المسكينين. . . وبرغمِ هذا المبلغِ الضئيلِ لم يتردَّدا في الرَّحيل وإني لأرجو أن يجدا أثناءَ رحلتِهما الطويلةِ قُلوبًا حنونةً تعطفُ عليهما، وأن يجدا في ليالي الشِّتاءِ الباردةِ بُيوتًا تؤويهما.

وبينما كانت تُحدِّثُ نفسَها، وقلبُها مشتغلٌ بأحوالِ الطّفلين، اقتربت من دولابِها وتناولت صُرَّتَها التي تحتفِظُ فيها بمُدّخراتِها، وأخذتْ منها ورقةً ماليةً أضافتها إلى مُدخراتِ أحمدَ وطلالٍ، وقالت في نفسها :

ـ إنّنا أسرةٌ فقيرةٌ ومُدَّخراتُنا ضئيلةٌ جدًّا، وبرغم ذلك سيكونُ زوجي راضيًا عما فعلته، لأنّهُ هو الذي أوصاني برعايةِ الطِّفلينِ والعنايةِ بهما ومساعدتِهما على قدرِ الإمكان.

وتفحّصتِ العجوزُ بعدَ ذلك الأوراقَ المطويَّةَ، وتمنَّتْ أن يكونَ لدى الأَخوينِ شهادةُ توصيةٍ تؤكِدُ نزاهتَما وأمانَتها، ولم يخِبْ أملُها، حيثُ وجدتْ أولاً شهادةً منَ الحدّادِ الذي كان يعملُ عندَه أحمدُ، وفيها ما يأتي :

" أشهدُ أنَّ آلفتى أحمدَ رشيدٍ قد عمِلَ عندي في دُكّانِ الحدادَةِ مدةَ ثمانيةَ عشَرَ شهرًا، وطيلَة هذا المدة لم يُخطِىءْ ولم أسجِّلْ عليه أيَّ مأخذ، وقد كان نِعَمَ الفتى الأمينُ النشيطُ الذَّكي. وأنا مستعدٌّ لتزويدِ كلِّ من يريدُ، بجميع ما يتعلَّقُ به من معلومات. وهذا عُنواني لكلِّ من يريد الاتصال بي . . . "

ووجدتِ العجوزُ بعد ذلك شهادةَ ميلادِ كلٍّ من آلطِّفلين، وقد فرحت بذلك وقالت في نفسِها :

- حسنٌ جدًّا، هذانِ الطِّفلانِ لم ينسَيا شيئًا، ويبدو أنَّهما يُدركانِ أهمِّيةَ وضرورةَ أن تكونَ جميعُ أوراقِهما آلرّسميةِ سليمةً وصحيحةً وكاملة. إنّني أرجو من أعماق القلبِ أن تسيرَ جميعُ أحوالِهما على أحسنِ ما يُرام.

وعندما آستيقظ أحمدُ وطلالٌ من آلنومِ، وجدا ملابسَهما مرتبةً وقد نُشِّفتْ تماماً وتم إصلاحُ آلممزَّقِ منها، وقد ظهرَ لهما ذلك رائعًا وعجيبًا، لأنَّهما لم يتعوَّدَا منذُ وفاةِ والدتِهما منذُ وقتٍ طويلٍ على مثلِ هذهِ العنايةِ والرِّعايةِ والأُمومية، وبعدَ أن آرتدى طلالٌ ملابسَهُ ومشطَ شعرَ رأسِه وغسلَ بالماءِ جيدًا وجهَهُ ويديهِ، أسرعَ لزوجةِ آلعمِّ سعيدٍ وعانقَها وقبَّلها مُعترفًا بجميلِها شاكراً لها بتأثرٍ كبيرٍ ما قامتْ به من خيرٍ وإحسان. وعانقتهُ العجوزُ الطيِّبةُ ببهجةٍ ومرحٍ وقالت :

- كلُّ هذا حسنٌ وجميلٌ، وقد حانَ الآن وقتُ تناولِ آلفَطورِ، وأمامَكما آلخبزُ والجُبنُ والزيتونُ، فتفضَّلا وتناول طعامكما هَنيئًا مَريئًا.

******



المُثابَــرة

" بالمثابرةِ والإصرارِ يُمكِنُ التغلبُ على جميعِ العَقَبات "

في أثناءِ تناولِ طلالٍ وأحمدَ لفطارِهما، دخلَ العمُّ سعيدٍ وقال لهما بآبتهاج وهو يفرك يديه :

- لم يضِعْ وقتي سُدى هذا الصّباح، فقد آتفقتُ مع أحدِ أصدقائي على أن يصحبكما معه في عربتهِ إلى قريةٍ قريبة من الحدودِ حيثُ سيذهبُ إلى هناك بحثًا عن عَلَفٍ لحيواناتِهِ، وسوف يتركَكُما على بُعدِ ربع ساعةٍ من القريةِ، وهذا سيوفِّرُ عليكما عناءَ المشي لمسافةٍ طويلةٍ. كما كتبتُ رسالةَ توصيةٍ لصديقٍ قديمٍ يقطنُ في تلكَ القريةِ، وقد كانَ يعملُ في السنواتِ الماضيةِ حارسًا في الغاباتِ المجاورةِ، وسوف يستقبلُكما بالودِّ والتّرحابِ وستقضيانِ

بالتأكيدِ ليلةً سعيدةً في بيتِهِ، وأحسنُ من هذا كلِّهِ، أنّهُ صيادُ حَيَواناتٍ ماهرٌ ومحنَّكٌ، وهو يعرِفُ جميعَ مسالكِ الغاباتِ والجبالِ في المنطقةِ، وقد طلبتُ منهُ أن يرافِقَكما غَداةَ وصولِكما إلى الجبلِ، وأن يقودَكما الى ما وراءَ الحُدودِ عبرَ دوربٍ آمنةٍ لا يطرُقُها أحد. فاطمئنَّا إذًا، لأنّه في ثماني وأربعينَ ساعةً ستكونانِ بعيدينِ عن الخطرِ وفي أمنٍ وسلام.

وعندما سَمِعَ الطِّفلانِ ذلك تأثَّرا كثيرًا وقال أحمدُ بانفعالٍ :

ـ إنّك شديدُ الطِّيبةِ معَنا، وتُعامِلُنا وكأنّنا مِن أولادِكَ أو مِن أفرادِ أسرتِك.

فردَّ عليهِ العمُّ سعيدٌ قائلاً :

ـ كان أبوكما من أعزِّ أصدقائي، وفضلُهُ عليّ كبيرٌ، كما أنّهُ من الواجبِ عليّ مساعدتُكما لأنّكما بكما حاجةٌ إلى ذلك.

وسكتَ العجوزُ لحظةً ثم أضافَ بصوتٍ أكثَر رصانةً :

ـ وبدورِكما، إذا وجدْتُما طفلاً في محنةٍ، فعليكما مساعدتُهُ كما أُساعِدُكما الآنَ، وبهذا ستخدمانِ وطنَكما، وتردّانِ ما عليكما من دينٍ للآخرين.

وبعد أن أنهى العجوزُ كلامَهُ، دخل حجرةً مجاورةً يستعملُها كورشةٍ لصناعةِ وتصليح القباقيبِ، وبدأ يعمل بهمةٍ ونشاطٍ من أجلِ تعويضِ الوقتِ الضّائعِ. بينما أخذ طلالٌ يلاحِظُه باهتمامٍ وإعجاب.

وقُبيلَ حلولِ المَساءِ، وصلت العربةُ التي تحدّث عنها العمُّ سعيدٌ، وصفَر الحوذِيُّ كما هو مُتّفقٌ عليهِ لينبّهَ المسافرينِ الصغيرينِ إلى أنهُ قد آن أوانُ الرَّحيل. وعند سماعِ الصفيرِ، أسرعَ طلالٌ وأحمدُ بحملِ صُرّتيهِما، وقبّلا بمحبةٍ وحرارةٍ زوجةَ العمِّ سعيدٍ، ثُمَّ سارا بصحبةِ العم سعيد تجاه العربة. وبعدَ عناقٍ آخرَ، وبعدَ الاستماعِ لنصائحِ الرّجلِ الطّيبِ الأخيرةِ،

استقرَّ الطِّفلانِ في جوفِ ٱلعربةِ، و (طرقع) ٱلحوذيُّ بسوطِهِ وبدأ الحِصانُ في ٱلخبيب على مهل. وبقيَ العمُّ سعيد وحيداً على الطَّريقِ يتابعُ بعينيهِ ٱلعربةَ وهي تبتعدُ شيئًا فشيئًا، وبرغمِ إحساسه بـالحزنِ والأسى لفـراقِ الطِّفلين، الاّ أنه كانَ يشعرُ بالسّعادةِ لرحيلِهما، وهمس في نفسهِ قائلاً :

- يا لَلطِّفلينِ ٱلغالِيينِ ٱلشُّجاعين.

وعندما اختفتِ ٱلعربةُ تمامًا، عادَ ٱلعجوزُ ببطءٍ إلى كوخهِ وهو يتأملُ، ويفكِّرُ في والدِ أحمدَ وطلال، صديقِ طفولتِهِ الحميمِ ٱلذي نامَ نومتَهُ الأخيرةَ تاركاً طفلَيه وحيدينِ في مواجهةِ مخاطرِ الحياةِ العديدة. وانسابتْ عنـدئذٍ دمعةٌ من عينِ ٱلعجوزِ الطَّيبِ، الاّ أنهُ مسحَها بسرعةٍ وقال في نفسِهِ :

- يجبُ علينا التمسكُ بالشَّجاعةِ في هذِه الحياةِ، فالأملُ وحدَهُ هـو الذي يجعلُ ٱلمستقبلَ خِصبًا وغنيًا.

إلاّ أنَّ خيبةَ أملٍ كبيرةً كانت تنتظِرُ أحمدَ وطلالاً. فعندَ وصولِهما إلى منزِل الحارسِ القريبِ من الغابةِ، وجدا العجوزَ الضَّخْمَ ذا اللحيةِ الرماديةِ والوجهِ المشعِ حيويةً، راقدًا على سريرِهِ لم يغادرهُ منذُ عِدّةِ أيام، بعدَ أن سقط أثناء نزولهِ من الجبلِ وانكسرت إحدى رجليه. قرأ العجوزُ الرِّسالةَ التي أعطاها له أحمدُ، وقال :

- أنظرا، إنّني لا أستطيعُ الحِراك. ويستحيلُ عليَّ الذَّهابُ معكما وأنا على هذِهِ الحالةِ. ولا توجدُ معي هنا سِوى خادِمتي العجوزِ الطّاعنةِ في السِّنِ، وهي مِثلي لا تستطيعُ الحركةَ.

إسودّتِ الدُّنيا في عينيِ أحمدَ، ولكنّهُ أخفى ٱنزعاجَهُ عن طلال حتّى لا يُثيرَ في نفسهِ ٱلقلقَ والاضطراب.

وحانَ وقتُ النّوم ، وقضى أحمدُ ليلةً سيئةً جدًّا، وفي الصَّباحِ الباكرِ وقبل أن يستيقظَ طلالٌ من نومِهِ، نهضَ من سريرِهِ وأخذَ يفكّر ويُنعمُ النظرَ فيما هما مقبلانِ عليه، وتوجّه بهدوءٍ إلى حديقةِ المنزلِ، في مُحاولةٍ للتعرفِ على المنطقةِ التي كانت غارقةً في الضّباب عندما وصلَ إليها مع أخيهِ في آلمَساء.

جلس أحمد على مقعدٍ بالحديقةِ، والتفتَ نحوَ الجنوبِ وتطلّع بعينيهِ إلى الأفقِ وقال في نفسهِ :

ـ في آلليلةِ المقبلةِ سأصطحِبُ طلالاً إلى هناك، وحينئذٍ سيكونُ من اللازم عليّ أن أكتشفَ وحدي وبدونِ مساعدةٍ، دربًا غيرَ مطروقٍ لايرانا أحدٌ، وحتى نعبرَ الحدودَ في سرٍ وأمان. فماذا يجبُ عليّ عملُهُ حتى يتحقّقَ ذلك ؟

وظلّ أحمدُ ينظرُ بحزنٍ وأسى للجبال التي تشكل الحدود والتي تنتصب أمامه كحائط جبار لا يمكن اختراقهُ. وبدأتْ جملة من الأفكارِ الانهزاميةِ المثبطةِ للهمّةِ تراوِدُ خاطرَهُ، ولكنّه قاوَمها بشدةٍ لأنه كان صُلبًا ومثابرًا، ولم تكن العقباتُ تثنيهِ عن عزمِهِ، بل كانت على آلعكسِ من ذلك تبعثُ فيه روحَ آلتحدى وآلمقاومة.

وتذكر أحمدُ فَجْأةً أنَّهُ رأى في غرفةِ الحارسِ خريطَةً كبيرةً للمنطقةِ معلّقةً على الحائطِ، وقد كانَتْ من أحسنِ الخرائطِ التي رآها حتى ذلك الوقتِ، حيثُ كانت تظهرُ عليها جميعُ تفاصيلِ المنطقةِ بما في ذلكَ الطرقُ الفرعيةُ والدروبُ الصّغيرة.

وحدّث أحمدُ نفسَهُ قائلاً :

ـ سوف أدرسُ هذهِ الخريطةَ بشكلٍ دقيقٍ، وإلاَّ، ما فائدَةُ جِدّي وآجتهادي في المدرسةِ ومُحافظتي على آلمرتبةِ الأولى بالصفِ حتى سنِّ الثالثةَ عشرةَ، إذا لم أستطعِ استخدامَ هـذهِ الخريـطةِ والاستعانـةَ بها ؟ إذًا، لابـدّ من التمسُّكِ بالشَّجاعة، وقـد وعدتُ أبي بـأن أكونَ شُجاعًا ولابـدَّ أن أكونَ كذلك، ولا بدَّ من عبورِ هذهِ الحُدودِ، وسنعبرهُا حَقًّا.



وأشعتُهُ الباهتةُ تخترِقُ الضَّبابَ والظَّلام وتنشرُ ضوءاً ضعيفاً على آلأشجار.

وبعدَ قليلٍ ، أخذَ آلضَّبابُ يخِفُّ شيئاً فشيئاً حتى آنقشعَ نهائياً كحُلْمٍ مزعجٍ ، وظهرتِ النُّجُومُ اللاّمعةُ بكلِّ جلالِها وروعتِها مِنْ خِـلالِ فروعِ شجرةِ الصنوبرِ العتيقةِ، وآنتصبَ في ضوءِ آلقمرِ وعلى مسافةٍ قريبةٍ البرجُ القديمُ الذي ظلَّ الطفلان يبحثانِ عنهُ بلا فائدة.

وخفِقَ قلبُ أحمدَ من آلفرحِ ، وآحتضنَ أخاهُ بشدّةٍ بينَ ذراعيـهِ وأخذَ يقولُ بصوتٍ مرتعش :

ـ إصحُ يا طلالُ وآنظرْ ! لقد آنقشعَ آلضَّبابُ والظَّلامُ، وسوف نستطيعُ أخيراً آستئنافَ رحلتنا.

فتح طلالٌ عينيه، وعندما رأى السَّماءَ مضيئةً بالقمـرِ والنُّجوم ، أخـذَ يضحكُ ويُصَفِّقُ بيديهِ ويقفزُ من الفَرحِ ويقول :

ـ يالَرَوعةِ الجَبَلِ وقد أضاءتْهُ أشعةُ آلقمر. انظر يا أحمدُ، هاهو آلبرجُ آلقديمُ، إنَّنا لم نضلَّ الطريقَ الصّحيحَ، فلنرحَلْ بسرعة.

وجمعَ الأخوَانِ حاجياتِهما، ولفَّا صُـرَّتيهما، وتنـاولَ كلٌّ منهمـا عصاهُ بمرحٍ ونشاطٍ، وقد أنساهُما ذلكَ الضوءُ البهيجُ كلَّ ما كانَ يشعرانِ بهِ من تَعَبٍ وإجهاد. وأثناء السَّيرِ أكلا قطعةً صغيرةً من آلخُبزِ، وتقاسما تفـاحةً كانتْ زوجةُ العمِّ سعيدٍ قد وضعتها في جيبِ طلالٍ ، وقد نعشهما ذلك تمامَ النعشِ ، فاستمرَّا في السَّيرِ بقيةَ آلليلِ بسرعةٍ وبشَجاعةٍ وإصرار.

وكَانتِ آلسَّماءُ مضيئةً إلى درجةٍ أصبحتْ فيها آلطريقُ واضحةً تماماً، وأصبحَ شغلُهما الشاغلُ حينئذٍ هو تفادى حُرّاسَ الحُدود. وفي حذرٍ شديدٍ وبلا ضجةٍ، تقدّمَ الطفلانِ وسارا بسرعةٍ في الغابةِ، إلى أن وصلا في بداية

الاحتفاظَ في ذهنِهِ ببعضٍ ما يسمعُهُ ، بينما أخذَ حارسُ ٱلغابةِ يشرَحُ بدقةٍ تفاصيلَ الخريطةِ مشيراً بإصبعِهِ إلى الطرقِ والمسالكِ والدُّروبِ الأقلِّ طُولا . وكان أحمدُ يُنصتُ بآهتمامٍ شديدٍ، ثم حاولَ ترديدَ ما سمِعَه من شُروحٍ ، وأخيراً رسمَ بنفسِهِ على ورقةٍ رسماً لا بأسَ به لتوضيحِ الطريقِ التي سيسلكُها، وقد أشارَ في الورقةِ إلى ٱلمعالمِ المختلفةِ التي قد تنفعُهُ في تحديدِ آتجاهِهِ : هنا ينبوعٌ، وهناكَ مجموعةُ أشجارٍ، وعلى البُعدِ القريبِ جدولُ ماءٍ ومكانُ عبورِهِ، وصخرةٌ تدورُ حولَها الطريقُ، وأطلالُ برجٍ قديم . وبآختصارٍ، لم ينسَ أحمدُ أيَّ شيءٍ يمكنُ مُساعدتُهُ فى مغامرتِهِ المُقبلةِ برفقةِ أخيه .

ونظَر إليهِ حارسُ الغابةِ وقال له بتفاؤلٍ وأمل :

- سيكونُ كلُّ شيءٍ على أحسن مايُرامُ إذا لم تستعجل وتُسرِعْ . وتذكَّرْ أنَّهُ عندما يضِلُّ المرءُ طريقَهُ في الغاباتِ أو في آلجبالِ ، فإنَّهُ يجبُ عليه أن يعودَ من حيثُ أتى بهُدوءٍ وبدونِ عَجَلَةٍ ولا اضطرابٍ، فذلك هو السبيلُ الوحيدُ لاكتشافِ آلطريقِ الصَّحيحِ بسرعة .

وعندما هبطَ الضَّبابُ وآنتشرَ في جميعِ الأنحاءِ، بدأ أحمدُ وطلالٌ رحلتَهما مِنْ جديدٍ ،بعدَ أن شكرا بإخلاصٍ شديدٍ حارسَ آلغابةِ الذي ودَّعهُما قائلاً وهو مُتمدِّدٌ على فراشهِ:

- تمسَّكا بالشَّجاعةِ، فبها وبثباتِ آلجأشِ يمكنُ للمرءِ تحقيقُ ما يسعى إليه .

أخذَ الظلاَم يزدادُ ويتكاثفُ بعدَ غروبِ آلشَّمسِ ، وبدأتْ على آلبعُدِ فوقَ قمم الجبالِ العاليةِ تلمعُ آخرُ ومضاتِ الشَّفَقِ بينما أخذتْ رياحُ

آلخريفِ تهزُّ أغصانَ أشجارِ الصنوبرِ التي بدأ يشتدُّ سوادُها بمجيءِ آلليل.

وآنطلقَ الأخَوانِ في الطَّريق، ويدُ أحدِهما بيدِ أخيه، إلى أن دخلا الغابةَ التي كانت أشجارُها تُغَطّي المنطقةَ كلَّها. كان طلالٌ يسيرُ صامتاً خفيضَ الرأسِ، وقد علت وجهَهُ علاماتُ الجدِّ والرّصانةِ، وسألهُ أحمدُ:

- فيمَ تفكِّر؟

وأجاب طلالٌ:

- أحاولُ تذكُّر جميعِ ما قالهُ حارسُ آلغابةِ، فقد كنتُ أستمعُ إليهِ بكلِ آهتمامٍ وآنتباه.

فقال أحمدُ:

- لَا تُشغِلْ بالَكَ يا أخي، فإنّني أعرفُ آلطريقَ جيّداً، ولن نضِلَّ عنه.

وبصوتٍ هادىءٍ لطيفٍ قال طلالٌ:

- وعلى كلِّ حالٍ، إذا ضللْنا آلطّريقَ، فإنّنا سنعودُ بهدوءٍ وبدونِ خوفٍ من حيثُ أتينا كما نَصحَنا الحارسُ، أليسَ كذلك؟

وردّ أحمدُ:

- نَعَمْ، نَعَمْ، إلّا أننا سنُحاوِلُ ألا نضِلَّ الطريق.

وقال طلال:

- ولهذا السببِ يجبُ أن نلاحظَ النُّجومَ عندَ كلّ مفترقِ طرقٍ كما قال حارسُ الغابةِ، وسوف أُنبّهُكَ إلى ذلكَ في الوقتِ المناسب.

وأجاب أحمدُ:

- رائعُ ياطلالُ، إنك لم تنسَ شيئاً مما قالهُ آلحارسُ، وإنّني على يقينٍ من أن معرفةَ الطريقِ ستكونُ أسهلَ بكثيرٍ إذا تذكّرنا أنتَ وأنا جميعَ النصائحِ

التي قدَّمها إلينا.

وقال طلالُ :

- نعَمْ، ولكنَّني لا أعرِفُ أسماءَ ٱلنُّجومِ، فلستُ أعرِفُ ما المقصودُ بالدُّبِ الأكبرِ مثلاً ؟

وٱبتسَمَ أحمدُ وقال :

- سوفَ أشرحُ لكَ ذلَك عندما نتوقَّفُ عن السَّير.

واستمرَّ الأخَوَانِ في المشي قُدُماً وهُما يتحادثانِ بصوتٍ منخفضٍ وقد سادَ الظَّلامُ تماماً جميعَ الأنحاء.

وكان أحمدُ قد درسَ المِنطَقةَ جيداً على ٱلخريطةِ طوالَ النَّهارِ، حتى بدا له كما لو كانَ قد مرَّ بها من قبل. وبرغم ذلكَ كان يُسيطرُ عليهِ ٱنفعالٌ قويٌّ، لأنَّ الوقتَ كان ليلاً والظلام شديدٌ، كما كانت تلكَ المرة الأولى التي يغشَى فيها دروبَ ومسالكَ الجبال.

وتغلّبَ أحمدُ على جميعِ مَخاوفهِ بعدَ أن شعَرَ بأنّ أخاهُ الصَّغيرَ أكثرُ منه تأثراً بالجوِّ المُحيطِ بهما، وحاولَ أن يبدوَ قوياً صُلباً حتّى لايبعثَ في قلبِ طلالٍ الرُّعبَ والخوفَ، لِيستطيعا بكلِّ شَجاعةٍ تحقيقَ ما يسعيانِ إليه.

وتوقَّفَ الطِّفلانِ عندَ أحدِ المفارقِ، وتطلَّعَ أحمدُ إلى السَّماء وقال لأخيه :

- أنظرْ، ألا ترى هناك سبعَ نُجومٍ لامعةٍ، أربعُ منها عبارةٌ عن مُربّعٍ يُشبهُ عجلاتِ ٱلعربةِ الأربعَ، وتُشبهُ ثلاثُ النجومِ الأُخرى الحُوذِيَّ والحصانين ؟ ذلك ما يُسمّى بالعربةِ الكبيرةِ أو بالدُّبِ الأكبر. كما ترى هناكَ على بُعدٍ قليلٍ نجماً لامعاً هوالآخرُ، وهو بٱستمرارٍ يبدو ثابتاً في ٱتِّجاه

الشَّمالِ تماماً، ولذلك يُعرفُ بآسمِ النَّجمِ القُطْبي. وبفضلِ هذا النجم يمكنُ للانسانِ أن يتعَّرفَ دوماً طريقَهُ أثناءَ آلليل. فهل تراهُ بوضوح ؟ إنَّه وراءنا تماماً، وهذا يؤكد لنا أنّنا نسيرُ في الآتجاهِ الصَّحيحِ نحوَ الجَنوب.

وأثناءَ الحديثِ، لم يكن أحمدُ يتركُ أيّةَ فُرصةٍ تمرُّ دونَ أن يُعلِّم أخاهُ ويلقّنَهُ شيئاً من المعلوماتِ، وقد بيّنَ لـه في تلكَ اللّحظَةِ المكـانَ الذي سيظهرُ فيهِ القمرُ بعدَ قليلٍ . وما أشدَّ بهجةَ الاثنين لمعرفتِهما بأنَّ ضوءَ آلقمرِ الجميلَ سينيرُ لهما الطريقَ ويبعدُ عنهما مخاوِفَ الظَّلام.





قلقُ الطِّفلين

"الشَّجاعةُ لا تعني عدمَ الخوفِ في مواجهةِ الخطرِ، وإنما تعني قهرَ هذا الخوفِ والتغلبَ عليه"

بعد آستراحةٍ قصيرةٍ، آستأنفَ آلطِّفلانِ رحلتَهما. وَفجأةً، بدأتِ الظُّلمَةُ تزدادُ، وشعَر طلالُ بالخوفِ فآقتربَ من أخيهِ وآزدادَ آلتصاقاً بهِ. وبعدَ قليلٍ، آختفتِ النُّجومُ التي كانتْ تُرشِدُهما وتؤنسُ وَحدَتَهُما، وظهرتْ سَحابةٌ أخذتْ تنتشِرُ وتتمدّدُ تدريجياً حولَ قِمَّةِ الجبلِ حتّى غطّتها تماماً، ثم غطّت بعدَ ذلكَ المِنطقَةَ كلَّها، ووجدَ الأخوانِ نفسَيهما وَسَطَ ضَبابٍ كثيفٍ يحولُ دونَ رؤيةِ أيِّ شيءٍ أمامَهما.

توقّفَ الطِّفلانِ وهما في قَلَقٍ شديدٍ، وكتَم كلٌّ منهما شعورَهُ رغبةً منهُ في

إقلال هَمِّ الآخر. وقال أحمدُ لطلالٍ :

- أعطني صُرّتَكَ لأربطَها مع صُرّتي، وبذلكَ أستطيعُ آستعمالَ عصاكَ في تحسُّسِ الطَّريقِ كما يفعلُ العُميانُ، حتى لا نتعثَّرَ في الأحجارِ وجذوعِ الأشجارِ. وسوف أسيرُ أمامَك، وعليكَ أن تُمسِكَ جيداً بقميصي من الخلفِ لأن يدي ستكونُ مشغولةً، وسوف أنبهُكَ إذا كان هناك خطرٌ ما، وسأقودُكَ إلى أحسنِ مايُرام. فكن شُجاعاً ولا تخفْ، وسوف تستطيعُ السَّيرَ بسهولةٍ لأنّكَ لاتحمِلُ شيئاً.

وردّ طلالٌ وهو يحاولُ جُهدَهُ أن يجعلَ صوتَهُ المُضطرِبَ يبدو هادئاً :

- نَعَمْ، سأحاوِلُ ذلك.

وآستأنفَ الطِّفلانِ سيرَهما ببُطءٍ وحذرٍ شديدين، وبرغمِ ذلك آصطدمَ أحمدُ بحجرٍ ضخمٍ من تلكَ الأحجارِ التي تمتلئُ بها الطرقُ الجبليةُ، فسقَطَ المسكينُ على الأرضِ وكاد يتدحرجُ من فوقِ صخورِ آلجبلِ ساحباً معهُ الصّغيرَ طلالاً.

عندئذٍ أدركَ الأخَوانِ مدى ما يُواجهانهِ من أخطارٍ، وجذَبَ أحمدُ أخاهُ طلالاً إليه وآحتضنه، وجلسا وهُما في مُنتهى آلتأثرِ والاضطراب.

وبعد لحظةِ صمتٍ قلقةٍ صاحَ طلالٌ :

- لدينا كبريتٌ وقطعةٌ من الشَّمعِ، وقد نصحَنا الحارسُ بعدمِ إشعالها إلاّ عندَ الضَّرورةِ القُصوى، فهل تعتقدُ يا أحمدُ أنهُ سيكونُ من آلخطرِ إشعالُها الآن ؟

وردّ أحمدُ قائلاً :

- لايا طلالُ، ليس في ذلك أيُّ خطرٍ، فالضَّبابُ شديدُ آلكثافةِ إلى حدٍ

يحولُ دونَ ظهورِ ضوء الشّمعةِ وإثارةِ آنتباهِ حُرَّاسِ آلحدود.

وأشعل أحمدُ الشَّمعةَ الصَّغيرةَ، فآنتشرَ ضوءُها الباهتُ المُضطَرِبُ خلالَ الضَّبابِ الكثيفِ، وقد كانَ ضعيفاً بدرجةٍ أدهشتْ طلالاً وأذهلتهُ. ومع ذلكَ، آستأنف الأخَوَانِ سيرَهما في الحالِ، لأنه كان من الضَّروري جدًّا أن يكونا على آلجانبِ الآخرِ من الحدودِ قبلَ شُروقِ شمسِ آليومِ القابل.

وبما أن طلالاً لم يكن يحمِلُ شيئاً لأن عصاهُ وصُرَّتَهُ كانتا مع أحمدَ، فقد حملَ آلشَّمعةَ بيدٍ، وحماها من آلرّيحِ باليدِ الأُخرى، وسار قُدُماً وهو يتعثَّرُ في آلطَّريقِ المليءِ بآلحجارةِ.

وأكثرُ ما كان أحمدُ يخشاهُ، هو أن يضلاّ الطريقَ وسَطَ الضَّبابِ الكثيف، ولذلك توقَّفَ الأَخَوَانِ بعدَ لحظاتٍ، وتناولَ أحمدُ الورقةَ التي رسمَ عليها تصميمَ الطريقِ، وتابعَ بنظرِهِ الخطَّ الذي يُحدِّدُ سيرَهُ وتساءَلَ قائلاً في حَيْرة :

– هل هذا هو الاتِّجاهُ الصحيحُ الذي نسيرُ فيه ؟

ثم قال لطلالٍ :

– إذا لم نكنْ قد ضلَلنا الطريقَ، فإنّهُ يجبُ أن نكونَ الآنَ على مقرُبةٍ من أطلالِ برجٍ قديم. ولكنّني لا أرى شيئاً على الإطلاقِ، وبما أنّك تتمتعُ بنظرٍ ثاقبٍ، فهل ترى تلكَ الأطلال ؟

ونظر طلالٌ وأنعمَ النظرَ، إلاّ انّهُ ـ ويالِلأسفِ آلشَّديدِ ـ لم يرَ شيئاً هو الآخرُ.

وآستأنفَ آلطِّفلانِ سيرَهُما من جديدٍ، وهما يُحاوِلانِ آختراقَ آلظّلامِ الدّامس بنظرِهما بحثاً عن أطلالِ آلبرجِ آلقديم. وفي الوقت نفسِهِ، بدأتِ

آلشّمعةُ تقتربُ من نهايتِها، إلى أن ذابتْ وآنطفأتْ وسادَ الظّلامُ الشّديدُ من جديدٍ حولَهما. وعندئذٍ لم يَعُدْ أمامَهما سوى آختيارٍ واحد، هو التّوقُّفُ والانتظار.

إقترب أحمدُ من شجرةِ صنوبرٍ ضخمةٍ، ولاحظَ أنَّ فروعَها الممتدَّةَ على شكلِ مِظَلَّةٍ يمكنُها حمايتُهما من ندى آلليلِ، وقال لأخيه:

- تعالَ هُنا قريباً منّي، فالمكانُ مناسِبٌ جداً للانتظار.

واقترب طلالُ صامتاً، ولاحظ أحمدُ أن أخاهُ يرتجفُ من آلبردِ الشّديدِ الذي خدَّر يديهِ تماماً.

وهمس أحمدُ بحنانٍ قائلاً:

- إجلسْ ياصغيري آلمسكينُ، سوف أُغطّيك بالملابسِ الموجودةِ في صُرَّتِك حتى تشعرَ بالدِّفءِ، وحاولْ أن تنامَ إلى أن ينقشعَ الضَّبابُ، لأنَّ ذلك سيساعِدُكَ على استرجاعِ قوّتكَ التي ستكونُ فيك حاجةٌ إليها عندما يبدأُ السَّيرُ مرةً أخرى.

وكان طلالُ جدَّ مُجْهَدٍ ولم يُبدِ أيَّ اعتراضٍ، ووضعَ ذراعَهُ حولَ عُنُقِ أخيهِ ورأسَهُ على كتفِهِ وأغمضَ عينيه وغاصَ في نومٍ عميق. ضمَّ أحمدُ طلالاً إلى صدرِهِ، وحاولَ كلَّ ما في وسعِهِ تدفئتَه وحمايتَهُ من بردِ آلليلِ القارِس، ثم أخذَ يستمعُ لأنفاسِ أخيهِ آلهادئةِ وهي تتردَّدُ في جوفِ آلليلِ وتبَدِّدُ السكونَ الرَّهيبَ الذي يلفُّهما في تلكَ آلمِنطقةِ آلمنعزلةِ من آلجبل.

وفي تلكَ اللحظةِ، شعَرَ أحمدُ بحُزنٍ عظيمٍ يغمرُ قلبهُ، وتساءلَ قائلاً:

- هل نستطيعُ عبورَ آلحدود؟ إنَّ الضَّبابَ يبقى في بعضِ الأحيانِ لعدةِ أيامٍ، فما يكونُ مصيرُنا إذا لم ينقشعْ هذا الضَّبابُ آللَّعينُ بسرعة؟

وآنتابهُ حينئذٍ عياءٌ شديدٌ، وبدأ وهو جالسٌ القُرفُصَاءَ يرتجِفُ من شدَّةِ برودةِ ٱلرياحِ ٱلتي أخذتْ تهزُّ بعنفٍ أشجارَ ٱلصنوبرِ، وتطيِّرُ في الهواءِ أوراقَ الأشجارِ اليابسةَ الواقعةَ حولَه على ٱلأرض. ورفعَ أحمدُ رأسَهُ قلقاً متوجِّساً من أن يكونَ ذلك صوتَ خُطُواتِ العدوِّ، أو أن ينتصبَ أحدٌ أمامَهُ فَجْأة ويستفسر منه عمّا يفعلانه هُناكَ، وعن شخصيتهما وإلى أينَ هُما ذاهبان. وحينئذ آعتراهُ يأسٌ شديدٌ، وبدأ يشعرُ بأن مقاومتَهُ تتضاءلُ وشجاعتَهُ تنهار، إلاّ أن ذكرى والدِهِ الغاليةَ انبعثتْ في قلبِهِ فَجْأةً ورفعتْ من روحِهِ المعنويةِ، وقَوَّتْ إرادتَهُ، وتذكر نظرَةَ والدِهِ العميقَةَ وهو على فِراشِ الموتِ عندما وضعَ يدَهُ على يد طلالٍ وكأنَّهُ يُوصيهِ بأخيهِ ويسلّمهُ أمانةً بينَ يديه. وشعَر أحمدُ بالخَجَلِ لما آعتراهُ من ضَعفٍ ويأسٍ، وعاهدَ نفسَهُ على آلمثابرةِ والمقاوَمةِ والثباتِ بعدَ أن نُعشت نفسُهُ بذكرى والدِهِ الأقوى من جميعِ العَقَبات. ولم يعُدْ أحمدُ يشكُّ في نَجاحِ الرِّحلةِ، وجلسَ ينتظرُ آنقشاعَ الضَّبابِ بالشَّجاعةِ التي دفعتْهُ من قبلُ إلى الرحيلِ برفقةِ أخيه.

جلس أحمدُ هادئاً ساكناً بلا حراكٍ حتى لا يُوقِظَ طلالاً، ويبدو أنَّ نومَ أخيهِ قد أثَّر فيهِ، فبدأتْ عيناهُ تتثاقلانِ من التَّعبِ والإرهاقِ، وبرغمِ مقاومتِهِ الشديدةِ حتى لا ينامَ، فقد آنهارتْ إرادتُهُ أخيراً وآغتمضت عيناه نصف إغماض. وبعد مُدَّةٍ منَ الوقت، وكان أحمدُ يهيمُ في أحلامٍ غائمةٍ، بدا له من خِلالِ جفنيهِ المفتوحين قليلاً أنّه يرى ضوءًا ضعيفاً، فارتعشَ جسمُهُ ونعشتْ نفسهُ بالأملِ، وبذلَ كلَّ ما في وُسعِهِ ليطرُدَ النُّعاسَ المُسيطرَ عليهِ، وعندما فَتَحَ عينيهِ على آتساعِهما، رأى الضَّبابَ لا يزالُ سائداً الاّ أنهُ أقلُّ كثافةً، وآلظّلامَ أقلُّ حلكَةً، كما رأى آلقمرَ وقد طلعَ أخيراً وتوسَّطَ آلسَّماء،

وأشعتُهُ الباهتةُ تخترِقُ الضَّبابَ والظَّلام وتنشرُ ضوءاً ضعيفاً على آلأشجار.

وبعدَ قليلٍ ، أخذَ آلضَّبابُ يخِفُّ شيئاً فشيئاً حتى آنقشعَ نهائياً كحُلْمٍ مزعجٍ ، وظهرتِ النُّجُومُ اللاّمعةُ بكلِّ جلالِها وروعتِها مِنْ خِـلالِ فروعِ شجرةِ الصنوبرِ العتيقةِ، وآنتصبَ في ضوءِ آلقمرِ وعلى مسافةٍ قريبةٍ البرجُ القديمُ الذي ظلَّ الطفلان يبحثانِ عنهُ بلا فائدة.

وخفِقَ قلبُ أحمدَ من آلفرحِ ، وآحتضنَ أخاهُ بشدّةٍ بينَ ذراعيـهِ وأخذَ يقولُ بصوتٍ مرتعش :

ـ إصحُ يا طلالُ وآنظرْ ! لقد آنقشعَ آلضَّبابُ والظَّلامُ، وسوف نستطيعُ أخيراً آستئنافَ رحلتنا.

فتح طلالُ عينيه، وعندما رأى السَّماءَ مضيئةً بالقمـرِ والنُّجوم ، أخـذَ يضحكُ ويُصَفِّقُ بيديهِ ويقفزُ من الفَرحِ ويقول :

ـ يالَرَوعةِ الجَبَلِ وقد أضاءتْهُ أشعةُ آلقمر. انظر يا أحمدُ، هاهو آلبرجُ آلقديمُ، إنَّنا لم نضلَّ الطريقَ الصَّحيحَ، فلنرحَلْ بسرعة.

وجمعَ الأَخوَانِ حاجياتِهما، ولفَّا صُـرَّتيهما، وتنـاولَ كلٌّ منهمـا عصاهُ بمرحٍ ونشاطٍ، وقد أنساهُما ذلكَ الضوءُ البهيجُ كلَّ ما كانَ يشعرانِ بهِ من تَعَبٍ وإجهاد. وأثناء السَّيرِ أكلا قطعةً صغيرةً من آلخُبزِ، وتقاسما تفـاحةً كانتْ زوجةُ العمِّ سعيدٍ قد وضعتها في جيبِ طلالٍ ، وقد نعشهما ذلك تمامَ النعشِ ، فاستمرَّا في السَّيرِ بقيةَ آلليلِ بسرعةٍ وبشجاعةٍ وإصرار.

وكَانتِ آلسَّماءُ مضيئةً إلى درجةٍ أصبحتْ فيها آلطريقُ واضحةً تماماً، وأصبحَ شغلُهما الشاغلُ حينئذٍ هو تفادى حُرّاسَ الحُدود. وفي حذرٍ شديدٍ وبلا ضجةٍ، تقدّمَ الطفلانِ وساراً بسرعةٍ في الغابةِ، إلى أن وصلا في بداية

الصَّباحِ إلى ممرٍّ على ٱلجانبِ الآخرِ من ٱلجبل. ومن هُناك رأى الأَخَوَانِ السَّهلَ يمْتدُّ تحتَ أقدامِهما، وقد أضاءتهُ أشعةُ الفجرِ الأُولى، وقد كانتِ القريةُ التي يقصدانِها، تقع فيهِ، تلكِ التي من أجلِ ٱلوصولِ إليها تحمّلا ٱلكثيرَ من المشقَّةِ وٱلجُهدِ وٱلعناءْ.

وبتأثرٍ بالغٍ تعانقَ ٱلأخَوَانِ، وقد أدركا بفـرحٍ شديـدٍ أنّهما يستـطيعانِ أخيراً تحقيقَ أمنيةِ والدِهما ٱلغالية.

وعندما بدأتِ الشَّمسُ تُشرِقُ وتُغطي قِممَ ٱلجبالِ بوشاحٍ قِرمزيٍ، كان أحمدُ وطلالٌ قد أصبحا بعيدينِ عن الحدودِ، يواصلانِ سيرَهُما بـابتهاجٍ وسرورٍ في مأمنٍ من جميعِ ٱلأخطار.



النِّظامُ والنَّظافةُ في آلملبس



"نظافتُنا ولباسُنا الملائمُ هُما تعبيرٌ عن آحترامِنا لأنفسِنا وللآخرين"

في وَسَطِ آلنَّهارِ، وبعدَ مسيرةٍ طويلةٍ تخلّلتها عِدّةَ وقفاتٍ للرّاحةِ، وصل الطفلانِ إلى مدخلِ آلقريةِ التي كان حارسُ الغابةِ قد أوصاهُما بالذّهابِ إليها، وزوَّدهُما برسالةِ توصيةٍ لأرملةِ أحدِ الزارعينَ بها.

وقبلَ الدُّخولِ في القَريةِ، تذكّر أحمدُ نصائحَ زوجةِ آلعمِّ سعيدٍ التي قالت لهما قبلَ توديعِهما :

- إنكما ستمرّانِ من مناطقَ عديدةٍ لا يعرِفُكُما فيها أحدٌ، وبرغمِ ذلك، فالواجبُ عليكما أن تعتنيا بنفسَيكما كلَّ العنايةِ، وأن تكونا نظيفينِ وكذلك ملابسُكما، لأنَّهُ مهما كنّا فقراءَ، فإنّنا نستطيعُ دائماً أن نكونَ في مُنتهى النَّظافةِ، فالماءُ موجودٌ، وليس هناك مايُسوِّغُ القذارة.

وقال أحمدُ لأخيه طلالٍ :

- يجبُ تنفيذُ نصائحِ زوجةِ ٱلعمِّ سعيدٍ قبلَ التوجُّهِ لزيارةِ أرملةِ صديقِ حارسِ الغابةِ.

وردَّ طلالٌ قائلاً :

- بالتأكيدِ، نستطيعُ غسلَ وجهينا وأيدينا بماءِ ذلكَ النَّهرِ الجميلِ الذي ينسابُ هُناكَ على مَقْرُبةٍ من ٱلطَّريق.

وقال أحمدُ :

- وبعدَ ذلكَ سأنفضُ الغُبارَ عن ملابسِنا بالمنديلِ، ثم نمشطُ شعرَنا بعنايةٍ، ونمسحُ أحذيتَنا بالعُشبِ حتّى تبدوَ نظيفةً.

وبسرعةٍ قامَ ٱلطّفلانِ بتنظيفِ نفسيهِما جَيِّداً، وبإصلاحِ ما أفسدتْهُ ليلةٌ ونصفُ يومٍ من التَّنقُّلِ في ٱلغاباتِ عبْرَ ٱلجبال. وعندما ٱنتهيا من ذلك، نظرَ أحمدُ لطلال نظرةً فاحصةً أخيرةً، وشعرَ بالفخرِ الشَّديدِ لمنظرِهِ اللطيفِ، ولِما بدا عليهِ من تعقُّلٍ ورزانةٍ وتربيةٍ حسنة.

وأخذَ الأخوانِ بعدَ ذلكَ في البحثِ عن عنوانِ المزرعةِ التي أعطاهُما حارسُ ٱلغابةِ عنوانَها، إلى أن وجداها في أحدِ أطرافِ القرية.

وعندما دخلا ساحةَ المزرعةِ، شاهدا مجموعة كبيرة من الدِّيكةِ الروميةِ راقدةً في الشَّمسِ، وقد قفزت مذعورةً عند سَماعِ وقعِ أقدامِهما وقابلتهُما

بآلضّجيجِ وآلصِّياح، وتبِعَتهما حتّى بابِ آلمنزلِ بزياطٍ* شديد. وفي هذه آللّحظةِ، كانت أرملةُ الزارعِ تقِفُ على عَتَبةِ آلباب، وأخذت تُراقِبُ الطفلينِ اللذينِ كانا يقتربانِ منها شيئاً فشيئاً، وتتفحصُهما بآهتمامٍ شديد.

ومن النظرةِ آلأولى تأثرتْ هذه آلأرملةُ الطّيبةُ التي كانت تُحِبُّ النّظافةَ والنّظامَ بمظهرِهما النظيفِ، وبعنايتِهما بنفسيهما، فاستقبلتْهما آستقبالاً حَسَناً، وعندما قرأتْ رسالةَ حارسِ الغابةِ، عبّرتْ عن آستعدادِها آلكاملِ لاستضافتِهما.

وقد أُعجبتِ الأرملةُ بشَجَاعةِ الأخوَينِ وقالتْ في نفسِها:

- ياللعجَبِ! هذانِ الطّفلانِ قطعا وحدَهما وفي ظُلمةِ آلليلِ طريقاً طويلاً عبْرَ الجبالِ! هاهما طفلانِ في منتهى الشّجاعةِ ويستحقّانِ كلَّ عونٍ ومساعدة.

ودعتِ الأرملةُ الأخوَينِ للدُّخولِ في المنزلِ بكلِّ حَفاوةٍ وتَرحابٍ، وعندما حانَ وقتُ الغدَاءِ، أجلستهما الى جانبِها أثناءَ تناولِ الطّعام. وقد كان الأكلُ قليلاً، إلاّ أنّ حسنَ آستقبالِ الأرملةِ وجوعَ الأخوينِ، جعلاهُما يتناولانِ حَسَاءَ الكُرنْبِ وسلاطةَ آلبطاطسِ وآلبيضَ المسلوقَ بشهيّةٍ مفتوحةٍ جداً.



* الزِّياط: الصِّياحُ والجَلَبَةُ.



خِدمةُ النّاسِ ومساعدتُهم

"حـاولْ دائمـاً أن تكـونَ
خـدُومـاً لمن أثبتـوا لـك
صداقَتهم ومحبتَهم"

لاحظ أحمدُ أثناءَ تناولِهِ الطّعامَ أنّ المنزلَ يبدو عليه طابَعُ الفقرِ الشديدِ، وأنّهُ لولا النّظافةُ الفائقةُ التي كانتْ تجعلُ كلَّ شيءٍ يبدو لامعاً لبدا واضحاً أنَّ أصحابَ المنزِل في مُنتهى آلبؤس.

وبعد تناولِ الغدَاءِ، توجَّهَ جميعُ أفرادِ الأسرةِ بسرعةٍ كلٍ إلى عملِهِ، حيثُ ذهبَ الأطفالُ إلى المدرسةِ والكبارُ إلى الحُقُول.

وبالرغمِ من شعورِ أحمدَ بالتّعبِ والإرهاقِ، فقد عرضَ خدماتِهِ وخدماتِ طلالٍ على ربةِ المنزلِ رغبةً منهما في التّعبيرِ عن آمتنانِهما لما

قدمتْهُ لهما من كرمِ ضِيافَةٍ وحُسنِ آستقبال، إلاّ أنَّها رفضتْ ذلكَ رفضاً قاطعاً وقالت لهما :

- إستريحا الآن، ذلك ما أُريدُه فِعلاً، وإلا سأغضبُ عليكما.

ولم تَفُتْ طلالُ كلمةً واحدةً من الحديثِ، وفهمِ مشاعرَ أحمدَ، وأدركَ ما يختمرُ في ذهنِهِ، وودَّ هو الأخرُ ألاّ يكونَ عبءً على كاهلِ الأرملةِ الطّيبة.

وفجأةً رأى طلالُ قصبتينِ لصيدِ السَّمكِ معلقتينِ على آلحائطِ، فصاحَ قائلاً :

ـ أنظر يا أحمدُ، ياَلهما من قصبتينِ جميلتينِ، أقترحُ أن نذهبَ لصيدِ السّمكِ، فسوفَ نرتاحُ هُناكَ تماماً. أليسَ كذلك ياسيدتي ؟ فهل تسمحينَ لنا بآستعمال القصبتينِ والذَّهابِ للصّيد ؟ فسنكون جِداً سعيدَينِ لو آستطعنا أن نحملَ إليكِ ما نصيده منَ السّمكِ للقلي.

وردتِ الأرملةُ قائلةً :

ـ هيّا، إنّني أرغبُ في ذلكَ بكلِّ تأكيد. تفضَّلا، خُذَا آلقَصبتينِ مع تمنِّياتي لكما بآلحظِّ السّعيد.

وبعدَ رُبعِ ساعةٍ، توجَّه أحمدُ وطلالُ إلى النَّهرِ، وهما يحملانِ القَصَبتينِ والطعمَ وسلةً صغيرةً ليضعا فيها مايصطادانِهِ من سمك.

كان أحمدُ صيّاداً ماهراً، وقد آستطاع عدةَ مراتٍ في أيامِ الجُمَعِ أن يصطّادَ ما يكفي لتجهيزِ عَشَاءٍ لذيذ. وكان طلالُ أقلَّ مهارةً، إلا أنَّه كانَ يفعلُ ما يقدِرُ عليه. وجلسَ الاثنانِ في ظلِّ شجرةِ صفصافٍ على ضَفَّةِ النَّهرِ بإحدى المروجِ الجميلةِ التي يحفلُ بها ذلك الإقليمُ، وكلُّهما أملٌ في أن

يكون حظُّهما لابأسَ به. ومرّ وقتٌ ولم تلتقطِ الصنارتانِ شيئاً، وأدرك طلالٌ أنهُ ينامُ إذا ظلّ ساكناً هكذا والقصبَةُ في يدِهِ، وخاصةً بعدَ ليلةٍ من السّيرِ المُستمرِّ والتّعبِ الشّديدِ، فنهضَ واقفاً وقالَ لأخيه :

ـ أخشى إن بقيتُ ساكناً صامتاً أن أنامَ فأكونَ مثلَ ولدٍ كسولٍ لانفعَ فيهِ ولا فائدةَ منه. إنّني لا أُريدُ أن أتكلّمَ معكَ حتى لايخافَ السّمكُ ويهربَ، ولهذا سآخذُ سكّينتي وسأذهبُ للبحثِ عما قد ينفعُ لتجهيزِ سلاطةٍ خضراءَ، وسوف يُنبِّهني ذلك وينشّطُني تماماً.

وبينما أخذ طلالٌ يجمع ما يصلُحُ من نباتات برّية لتجهيزِ السّلاطةِ، آستمر أحمدُ يصطادُ في صبرٍ ومثابرةٍ حتّى أصبحتِ السّلةُ تكاد تمتلىء بالسّمك النّهري آلمختلفِ الأنواعِ والأشكال. وعندما رجعَ طلالٌ ورأى ذلك صاحَ فَرَحاً وسروراً وقال :

ـ يا لَلْبَهْجةِ، سوف نستطيعُ نحنُ أيضاً تقديمَ شيءٍ للأرملةِ الطّيبة.

وعاد أحمدُ وطلالٌ من الصَّيدِ في الوقت نفسِ رجوع أبناءِ الأرملةِ منَ المدرسةِ وهما يحملانِ سلطةً مغسولةً جيداً، وسلّةً مليئةً بالأسماكِ التي كانت ماتزالُ تتهزهز.

فرِحَ الجميعُ بما فعله الطفلانِ، وتأثرتِ الأرملةُ تأثراً كبيراً بما قاما به من مجهودٍ مِن أجل إرضاءِها وتعويضِها عمّا قدّمتْهُ لهما من كرمٍ وحُسْنِ ضيافةٍ، وقالت لهما :

ـ يا طِفليَّ العزيزينِ، لم يمضِ سِوى نصفِ يومٍ على معرفتي لكما، وإنّني لأُحبُّكما من صميمِ آلفؤاد. ففي آلليلةِ الماضيةِ، أثبتّما أنكما رجلانِ

بشجاعتِكما وإرادتِكما، واليوم، عبّرتما بحزمٍ وإصرارٍ عن آمتنانكما لما قمتُ بهِ تُجاهكما. إنّكما حقًّا طفلانِ شُجاعانِ، واذا حافظتُما على ما أنتما عليه من أخلاقٍ حسنةٍ وسلوكٍ طيِّب، فإنَّكما ستلقيانِ محبةَ النّاسِ وعطفَهم حيثُ تذهبانِ، لأنهُ بالشَّجاعةِ والاعترافِ بآلجميلِ يُمكِنُ امتلاكُ جميعِ آلقلوبِ الطّيبة.





العنايةُ بالمزرعةِ والرحيلُ

" إن الحَيوانَاتِ التي تحظى بالعنايةِ والاهتمامِ هي حَيوانَاتٌ تُثري الزِّراعَة وتُغنيها، والزِّراعةُ الغَنِيَّةُ هي عمودٌ أساسيٌّ من أعمدةِ الرخاءِ في أيِّ بلد"

قضى أحمدُ وطلالٌ طيلَة ما بعدَ الظُّهرِ في فرحٍ وسعادةٍ. وعندما اقتربتْ عودةُ الأطفالِ من المدرسةِ قالت لهما الأرملة :

- بما أنّكما ترغبانِ في أن تكونا نافعينِ، فإنّني سوف أُكلِّفُكما الآن بالقيام بقليل من الأشغالِ. أنت يا أحمدُ، أرجوك أن تنوبَ عنّي في الإشرافِ على الأطفالِ عندما يعودونَ من مدرستهِم، وأرجوك أن تراقبَهم حتى يقوموا جميعاً بواجباتِهم المدرسيّة. أما أنت يا طلالُ، فتعالَ معي للعنايةِ بالبقرةِ

وإعدادِ الزُّبدِ لبيعِهِ غدًا في سُوقِ القريَة.

وافقَ الطِّفلانِ بسعادةٍ غامرةٍ، وقالت آلأرملةُ لطلالٍ :

- خُذْ هذا المَقعدَ الخشبَ الصّغيرَ وهذهِ الكأسَ، وسأحمِلُ أنا القِدرَ المعدِنيةَ التي سنضعُ فيها آلحليب.

وعندما وصلَ آلاثنانِ إلى الحظيرةِ ودخلا فيها، صاح طلالٌ وقال :

- يا لَجمالِ هذهِ البقرةِ، أُنْظُرِي ما أشدَّ لمعانَ وبرِها النّاعم !

وقالتِ الأرملة :

- خُذْ ياطلالُ، أعطِ آلبقرَةَ حُزمةَ آلعلفِ هذهِ، إنّها رقيقةٌ وهادئةٌ لأنّني أُعامِلُها دائمًا برقةٍ وهُدوء. لا تخفْ منها فإنّها لن تؤذيَك.

أخذ طلالٌ حُزْمةَ آلعلفِ ونشرَها أمامَ آلبقرةِ، بينما أخذتِ الأرملةُ تحتلِبُها وقد جلست على الكرسي الخشبِ الصّغيرِ والقِدرُ المعدنيُّ أمامَها. وبعد مُدَّةٍ، دخل طلالٌ حجرَةً أُخرى مجاورةً لتجهيزِ آلألبانِ، وقد أعجبتهُ كثيراً، وبعد لحظةِ تأمّلٍ وتفكيرٍ قالَ للأرملة :

- الحُجرَةُ نظيفةٌ جِدًّا وبلاطُها جميلٌ إلّا أنّها باردة.

وآبتسمت الأرملةُ وردّت قائلة :

- يا ولدي، يجبُ دائمًا أن تكونَ حُجرةُ تجهيزِ الألبانِ باردةً لأن آلحليبَ يفسُدُ إذا كانت دافئةً، كما أنَّ القشدة لن تجدَ الوقتَ اللازمَ الضروريَّ حتى تطفوَ على السَّطح.

وبَعد قليلٍ، خرجَ الاثنان مِن الحظيرةِ وكلٌّ منهما يحمِلُ عِدَّة كرات جميلةٍ من الزُّبدةِ الملفوفةِ في أوراقِ العُنبِ الذي كان طلالٌ قد أتى بها من حقلِ الكرومِ المُجاور.

وفي تلكَ الأثناءِ، كان أطفالُ الأرملةِ قد أنهَوا واجباتِهم المدرسيةَ تحتَ رعايةِ أحمدَ، فأرسلتهم أمُّهم للَعبِ خارجَ المنزلِ، وآنهمكتْ في إحضارِ العَشَاءِ.

وبعْد مُدَّةٍ من اللّعِبِ وآللّهوِ والنَّشاطِ، شعرَ الأطفالُ جميعاً بالجُوعِ الشَّديدِ، وبالشهيّةِ المفتوحةِ أثناء العَشَاءِ، وقد وجدوا السَّمكَ المقليَّ لذيذاً والسلاطةَ رائعةً، الا أن أحمدَ وطلالاً اللذين كانا لايزالان يشعُران بالتّعبِ والإرهاقِ بعد رحلتِهما الطّويلةِ، وجدا السَّريرَ الذي أعدتهُ لهما الأرملةُ أكثرَ روعةً وجمالاً، وقد غرقا في سُباتٍ عميقٍ حتّى الصباحِ، ولو لم توقِظْهُما الأرملةُ لظَلاّ نائمينِ لمدةٍ طويلةٍ، وقد قالت لهما وهي تُوقِظُهما :

ـ أعرفُ زارعاً يذهبُ إلى المدينةِ مرةً في آلأسبوعِ. وهو يقيمُ على بعدِ ساعتينِ مِن هنا، وسيصحُبكما معهُ في عَربَتِهِ اذا ما التحقتُما به في الوقتِ آلمناسبِ.

نهضَ آلطِّفلانِ من سريرهما في عَجَلَةٍ برغم أنّهما كانا مازالا بهما حاجةٌ للنَّوم، ولبسا ملابِسَهُما بسرعةٍ ثم غَسَلا وجهيهِما وأطرافَهما بالماءِ الباردِ مما ساعدَ على تنبيهِهما تماماً. ثم توجّها بعدَ ذلك بمُنتهى آللطفِ والأدبِ لتحيّةِ الأرملَةِ الكريمة. وبعد تناولِ الفطور، حمل كلٌّ منهما عصاهُ وصُرّةَ ملابسِهِ وأصبحا على أُهبَةِ الرّحيل. وقبل أن يمضيا في الطّريق، قاما بشكرِ الأرملةِ التي عاملتهما معاملةَ الأمِّ لأطفالِها، التي قالت لهما وهي تُوَدِّعُهما :

ـ إذا كنتُ قد ساعدتُكما بفرحٍ وسرورٍ، فالسّببُ هو ظهُوركما أمامي بمظهرِ الجِدِّيةِ والشَّجاعةِ والنَّظافةِ وآلملبسِ آلمناسب. واذا حافظتُما على جِدّيتِكما وشَجاعتِكما ورغبتِكما في العملِ في خدمةِ النّاسِ، فإنكما

سْتلقيانِ دائمًا العَونَ والمساعدةَ، لأنَّ الناسَ يحبّونَ إغاثَةَ من يستحقُّ ذلك، ويكرهونَ تقديمَ المعروفِ لمن قد يصبحونَ عبءً عليهم بسببِ تراخيهم وكسلِهم.

وقبّل الطفلانِ الأرملةَ وشكراها مرةً أُخرى، ثم آنطلقا في طريقهما بِجدٍ ونشاط.





إحترامُ كبارِ السِّن

"إحترامُ كبارِ السِّنِ هو في الاستفـادة منهم والاغتناء بخبراتِهم في آلحياة"

وفي آلمَساءِ، وبفضلِ عربةِ الزَّارع السَّريعةِ، وصلَ الطِّفلانِ إلى المدينةِ التي كان أحمدُ يأملُ في أن يعملَ بها لمدةِ شهرٍ، من أجلِ آلحصولِ على بعضِ آلمالِ لمواصلةِ الرِّحلة.

كانتِ آلمدينةُ صغيرةً، الاّ أنّها كانتْ تموجُ بالحركةِ والنَّشاطِ، وقد آرتبكَ الطفلانِ في البـداية مِن كثـرةِ الشَّوارعِ المتقـاطعةِ، الا أنّهمـا آستطاعـا بالاستفسارِ والسؤالِ المُهذَّبِ أن يصلا إلى العُنوانِ الذي أعـطتهُ إيّـاهُما الأرملةُ ليلَة سفرِهما، وهو عُنوانُ إحدى قريباتِها بآلمدينة.

وجدَ الأخَوانِ المرأةَ في بيتِها، وأخبرَها أحمدُ بأنّهما جاءا من قبلِ قريبتِها

الأرملةِ، وطلبَ منها أن تسمحَ لهما بالإقامةِ الكاملةِ عندَها لمدةِ شهرٍ، أي أن تُوفِّرَ لهما المأوى والأكلَ طِيلَةَ هذِه المدّةِ، وقد حَرِصَ أحمدُ على أن يُوضِحَ لها أن لديهما شيئاً من المُدَّخَراتِ وأنَّهما سيدفعانِ الأُجرةَ التي ستُحدِّدُها.

كانت قريبةُ الأرملةِ امرأةً عجوزاً حدباءَ ذاتَ وجهٍ مليءٍ بالتجاعيدِ وعينينِ فاحصتينِ حادَّتي النَّظر. وكانت تجلِسُ بالقُربِ من النَّافذةِ أمامَ ماكينةِ الخياطةِ وقدمُها على الدَّواسة ويداها على ٱلقماشِ لتحريكِه. وتوقفتِ العجوزُ عن الخياطةِ ونظرتْ الى الطفلين بتأمُّلٍ، ولم تُرَحِّبْ في البدايةِ بطلبِ أحمدَ، واعتذَرت بعدةِ أسبابٍ وبدا عليها التردُّد الشَّديدُ وقالت:

ـ إنّني مُسنَّةٌ جِدًّا، وكبرَ سِنّي لا يسمحُ لي بتحمُّلِ مثل هذِه ٱلمسؤوليات.

ثم أحكمتْ وضعَ نظّارتِها على عينيها لتتفحّصَ بدقةٍ أكثرَ الطّفلينِ الغريبينِ اللذينِ سعيَا إليها واللذينِ بقيا طِيلَةَ هذهِ المدةِ واقفينِ على عَتَبةِ البابِ في حَيْرَةٍ وٱرتباكٍ. وبعدَ لحظةِ تفكيرٍ قالت:

ـ ٱدخلا، سوف أسمحُ لكما بقضاءِ هذهِ الليلةِ هُنا، وفي الغدِ سنرى نحنُ الثلاثَة أفضَلَ ما يُمكنُنا عملُه.

دخَل الأخوانِ المنزلَ وهما يشعرانِ بالحَرَجِ والضِّيقِ الشديدينِ، وفتحت لهما العجوزُ غرفةً وجدا فيها سريراً كبيراً وكرسيينِ وطاولةً صغيرةً وقالت لهما:

ـ كانت هذه غرفةَ ٱبني الوحيدِ وقد ٱغتاله العدوُّ أثناءَ الحرب.

وسكتتِ العجوزُ وتأوَّهتْ بعمقٍ وأضافت:

ـ ناما هُنا هذه اللّيلَةَ، وسنرى فيما بعد.

ثم أغلقتِ البابَ فَجْأَةً، وابتعدتْ تاركةً الطفلينِ في حُزنٍ وألمٍ بسببِ جفافِها معهُما وسوءِ استقبالِهما. وأدركَ طلالٌ بأَنَّ العجوزَ تشكُّ فيهما، فشعَرَ بكَآبةٍ أكثرَ وغمٍ أشدَّ، وآرتمىٰ باكيًا على صدرِ أخيه وقال له :

ـ من الأفضلِ الذَّهابُ الى مكانٍ آخرَ، لأنّنا سنكونُ تعيسينِ جِدًّا هنا اذا قضينا شهراً بكامِلِه مع هذه آلمرأةِ التي لا تثقُ بنا.

اِحتضَن أحمدُ أخاه بحنانٍ وقال لهُ مشجِّعًا :

ـ سنواجهُ الموقفَ نفسَهُ بلا شك في أيِّ مكانٍ آخرَ، لأنَّنا لا نعرفُ أحدًا ولا أحدُ يعرفُنا في هذِهِ آلمدينة. وهنا في الأقلِّ، نحنُ متأكدانِ ـ حسب ما قالته لنا الأرملةُ ـ من أنّنا لدى سيدةٍ طَيِّبةٍ محترَمة. وأنتَ تعرِفُ يا طلالُ أنّه لا يجبُ الحكمُ على النَّاسِ بمظهرِهم. وبدلاً من الحسرةِ والتذمُّر، يجب علينا أن نفعلَ كلَّ ما في وسعِنا حتى نكسبَ ثقتَها. إنَّ الوقتَ لم يبلغْ بعدُ الساعةَ السابعةَ مساءً، وأولُ شيءٍ تعملُه هو لاستفسار منها عن عُنوانِ الحدّادِ الذي معنا رسالةُ توصيةٍ له. وسأذهبُ فوراً لمقابلتِه، واذا ما حصلتُ على العملِ لديه، فإنَّ العجوزَ ستُدرِكُ جَيِّدًا أنّنا نرغبُ حقًّا في كسبِ ثِقتِها وآحترامِها، وأنتَ تعرِفُ جيداً أنَّ الناسَ يقدّرونَ كثيراً من يعملُ ويكسبُ قوتَ يومِهِ بعرقِ جبينه.

واستفسر طلالٌ قائلاً :

ـ وأنا، ماذا سأفعل ؟

وأجاب أحمدُ :

ـ أفضلُ ما يمكِنُكَ عملُهُ هو أن تظَلَّ هُنا في آنتظاري.

خرج أحمدُ من المنزلِ وسار مُسرِعًا في آتجاه عنوانِ الحدّادِ كما حددتهُ

العجوزُ، وظلّ طلالٌ يراقبُ أخاهُ وهو يبتعدُ حتّى آختفى عن ناظرَيهِ، فجلسَ على كرسيٍّ وَسَطَ آلصّالةِ وتنهّدَ وقال في نفسِه :

ـ ما أسعدَنا عندما نلتقي بعمِّنا، ويصبحُ لدينا منزلٌ ولا نبقى هكذا وحيدينِ مُنفردينِ وكأنّنا طفلانِ منبوذانِ، فليس في الدُّنيا كلِّها أحسنُ من منزلِ الأسرة.

كان طلالٌ يشعُرُ بالوَجلِ وآلخشيةِ، فلم يجرُؤْ على آلاقترابِ من العجوزِ التي لم تُعِرْهُ أيَّ اهتمامٍ، وعادت إلى ماكينةِ الخياطةِ وانهمكتْ في عملِها بجدٍ ونشاطٍ لأنّها لم تكنْ تُحِبُّ تضييعَ الوقتِ قطُّ.

بعد حينٍ، نهضتِ العجوزُ ورتّبتِ آلأشياءَ التي بإزائها بعنايةٍ شديدةٍ، ثم تناولت جرّتَها لإحضارِ الماءِ من اليَنبوعِ القريبِ من المنزِلِ، ومرّت بجوارِ طلالٍ بدونِ أن تتفوَّهَ بكلمةٍ وهي تسيرُ منحنيةً وبخُطُواتٍ بطيئةٍ وتتنفّسُ بعناءٍ شديد.

كان من طبع طلالٍ آحترامُ كبارِ السِّنِ وتقديمُ الخَدَماتِ للنّاس، وقد تأثّرَ كثيراً عندما رأى آلعجوزَ تمرُّ بجوارِهِ ضعيفةً هَرِمَةً، فتغلّبَ على خوفِهِ منها، وأسرعَ إليها وسألَها وقد احمرَّ وجهُهُ :

ـ هل ترغبينَ يا سيدَتي في أن أذهبَ لإحضارِ آلماء ؟

رفعتِ العجوزُ رأسَها مدهوشةً وقالت :

ـ نَعَمْ أرغبُ في ذلكَ، لكنّني أخشى أن تكسِرَ الجرّة.

فأجابَ طلالٌ قائلاً :

ـ إطمئنّي ياسيدَتي، سوف أكونُ حريصاً جداً عليها.

وكانتِ العجوزُ تحتفظُ بهذهِ الجرّةِ منذُ وقتٍ طويلٍ، وكانت تعتني بها

وتحرِصُ عليها كما تعتني وتحرِصُ على جميعِ حاجياتِها الأُخرى، فلم تكن تكسرُ أيَّ شيءٍ قطُّ، ولذلك كان أثاثُها عتيقًا وتبدو عليه مهابةٌ شبيهةٌ بتلك التي تبدو على صاحبتِهِ، وكانت ماكينةُ الخياطَةِ الشيءَ الوحيدَ الحديثَ الذي يختلفُ تمامَ الاختلافِ عن كلِّ الأشياءِ القديمةِ في المنزِل.

مضى طلالٌ بخفَّةٍ ونشاطٍ الى الينبوعِ، وعاد بسرعةٍ وهو يحمِلُ بحذرٍ شديدٍ الجرَّةَ الغاليةَ التي كان عمرُها أكبَر من عمره بِعدَّةِ سنوات. ولم يملأْ طلالُ الجرَّةَ لحافتِها خَشيةَ أن يُبلِلَ الماءُ ملابسَهُ، وعند عودتِهِ عَمل كلَّ ما في وسعِهِ على وضعِها بهدوءٍ حتّى لا يندلقَ الماءُ على الأرضيَّةِ اللّامعة. وعندئذٍ قالت له العجوزُ التي كانت تراقِبُهُ بدونِ أن يشعرَ بذلك :

ـ شيءٌ جميلٌ ما فعلتَهُ يا ولدي، إنَّكَ خدومٌ وحريصٌ جِدًّا وتُراعي كبارَ السِّنِ وتُجنِّبُهم المَشقَّةَ والتَّعب.



وابتسمتِ العجوزُ ولمستْ خدَّ طلالٍ بودٍ وحنانٍ مما جعلهُ يشعر بارتياحٍ عميق.



الرِّسالةُ

" ما أجملَ التعبيرَ عن المحبةِ والاعترافِ بالجميلِ لمن قدّموا لنا العَوْنَ وٱلمُساعدة "

كانت للعجوزِ حديقةٌ صغيرةٌ خلفَ ٱلمنزِلِ تزرعُ فيها مُختَلَفَ أنواعِ القَطَاني* . وكان الطَّقسُ مناسبًا في فصلِ الصَّيفِ، فجنتْ محصولاً طيّبًا من الحمِّصِ والفُولِ وغيرِها، وقد طلبتْ من طلالٍ مساعدتَها في تقشيرِ الفاصوليا.

وبعدَ ساعةٍ تقريبًا، عاد أحمدُ مِنَ ٱلخارجِ ، وكانت دهشتُهُ عظيمةً عندما وجدَ طلالاً جالساً أمامَ العجوزِ وقد استطاعَ بطبعِهِ ٱللّطيفِ وأدبِهِ الجمِّ أن يحصلَ على ثقتِها، والاثنانِ مُنهمِكانِ في عملِهما، وفي تبادُلِ الأحاديثِ

* القُطنيّةُ : ما يُدّخر في البيت من الحبوبِ ويطبخ مثل العدس. (ج) قَطاني.

المختلفةِ وكأنَّهما يعرفانِ بعضَهما منذُ وقتٍ طويل.

وأسرعَ أحمدُ بإخبار العجوزِ بأنَّ الحدّادَ قد وافقَ على تشغيلِهِ منذُ صباحِ اليومِ القابِل، كما وعدَهُ بالمساعدةِ على إلحاقِ طلالٍ بالمدرسة. وقد استطاع أحمدُ بهذا الخبرِ السَّعيدِ أن يطردَ من قلبِ العجوزِ كلَّ ما كان قد بقِي فيه من شكٍّ وعدمِ ثقةٍ، فبدت فرحةً مسرورةً ومتفائلةً أكثرَ من الطِّفلينِ نفسيهما، وقامت بتجهيزِ العَشَاءِ في بهجةٍ وانبساطٍ، وجلسَ الأصدقاءُ الثلاثةُ الجُدُدُ يتناولونَ عَشَاءَهم في مرحٍ وبشاشةٍ لم يكنْ من الممكنِ توقُّعُهما قبلَ ذلك بساعةٍ فقط.

وبعدَ العَشَاءِ، قام أحمدُ بإعدادِ ملابسِ العملِ ليومِ الغدِ، ورتَّبَ ملابسَهُ وملابسَ أخيه بعنايةٍ كبيرةٍ في الدولاب الموجودِ بغرفتِهما، كما قامَ طلالٌ بترتيبِ حقيبةِ المدرسةِ وأقلامِهِ وأوراقِهِ وكتبِهِ التي آعتنى بحملِها في صُرَّتِهِ طيلَةَ الرِّحلة.

وعندما تمَّ ترتيبُ كلِّ شيءٍ في الغُرفَةِ، قررَ الأَخَوانِ تقديمَ مُدَّخراتِهما للعجُوزِ والالتماسَ منها الاحتفاظَ بها لحين وقتِ رحيلِهما. وأخرجَ أحمدُ من جيبِ سترتِه اللّفةَ الصغيرةَ التي تضمُّ المُدّخراتِ وفتحها، ودهش كثراً عندما وجَد المبلغَ الذي كانتْ قد أضافتهُ زوجةُ العمِّ سعيدٍ: وتساءَلَ أحمدُ كثيراً عن السِّرِ في وجودِ ذلكَ المبلغِ الإضافي، ثم تذكَّر أنَّ زوجةَ العمِّ سعيدٍ هي التي قامت بترتيبِ وتجهيزِ صُرَّتيهما عندَ الرحيلِ وعندئذٍ قال في نفسِهِ:

ـ يا لَلمرأةِ الطَّيبةِ، لقد زادتْ من مُدَّخَراتِنا اليسيرةِ برغمِ أنَّهم فقراءُ، كما أنّها فضّلتِ القيامَ بذلكَ خِفيةً وبدونِ علمِنا، ولا شكَّ في أنّ حصولَها على

هذا المبلغِ كانَ قـد كلّفها الجُهـدَ الجهيدَ، والحقيقـةُ أنَّها عـرفتْ كيفَ تساعِدُنا بدونِ أن تُسبِّبَ لنا أيَّ حرجٍ على الإطلاق.

وتأثر أحمدُ تأثراً كبيراً حتى أوشك على أن يبكي عندما تواردتْ هـذهِ الخواطرُ على بالِهِ، ولم يكن يفكّرُ فقط في المعروفِ الذي قدّمتْهُ إليهما زوجةُ العمِّ سعيدٍ الطّيبة، وإنما في الطريقة التي يستطيعُ بها التعبيرَ عن امتنانِهما واعترافِهما بالجميلِ أيضاً. وقال لأخيه طلالٍ :

ـ ليس هناك سوى شيءٍ واحدٍ نستطيعُ عملَهُ الآنَ، هو أن نكتبَ إليها فوراً وبدونِ تأخير.

وأيّدَ طلالٌ كلامَ أخيهِ وقد شعرَ بالفرحِ يغمـرُهُ لكونـهِ يعرفُ الكتـابةَ، ولاستطاعتِهِ هو الآخرُ شكرَ زوجةِ العمِّ سعيدٍ على معروفِها. إلاّ أنَّ أحمدَ قال متأسِّفًا :

ـ ليس لدينا ـ ويـا للأسف ـ ورقٌ لكتابةِ الرسائلِ ، وسأذهبُ الآن فـوراً لشراءِ بعضٍ منهُ لأنهُ لايجبُ أن نتكاسلَ في الكتابةِ وإرسال الرّسالةِ مادامَ من اللازمِ أن نقومَ بذلك.

وصاحَ طلالٌ قائلاً بحماسة :

ـ إنتظرْ، مِنَ الأفضلِ أن نأخذَ ورقةً من كرّاستي.

ووافقَ أحمدُ على ذلك، وأخذ الكرّاسةَ التي قدَّمَها إليه طلالٌ ونزعَ منها ورقةً بمنتهى العنايةِ وقال :

ـ تعرفُ زوجةَ العمِّ سعيد أنّنا لسنا من الأغنياءِ، ولذلك فإنها لن تهتمَّ بالورقةِ وإنما بالأفكارِ الموجودةِ فيها.

وقال طلالٌ :

- والحبرُ ؟ وطابعُ البريدِ والظَّرْفُ ؟ فليس لدينا من ذلكَ أيُّ شيءٍ ؟

وأجابهُ أحمدُ قائلاً :

- لابأسَ، نستطيعُ شرَاءَ ذلك.

وتناول أحمدُ ورقةً ماليّةً من مُدّخراتِهِ، وآستعَدّ للذَّهابِ لفكِّها وشراءِ ما يحتاجانِ إليه. ولكنّ العجوزَ التي سمِعتْ وفهمتْ كلَّ شيءٍ تقريباً برغمِ آنشغالِها بغسلِ الأطباقِ وترتيبِ المنزلِ آعترضتْ على ذلكَ وقالت :

- لا، لا، لأنّهُ عندما نفكُّ أيّةَ ورقةٍ ماليةٍ، فانَ إنفاقَها في الغالبِ يتمُّ بسرعةٍ، فلنقتصدْ إذاً، ولا داعي لفكِّ ورقتكِما الماليةِ، لأنّ ذلك أفضلُ. إنّ لديَّ بعضَ الحبرِ والظرفَ المناسب، ولديّ طابعُ بريدٍ أحتفظُ بهِ في دولابي أيضاً. وها هو الحبرُ، وما عليكما الآنَ سوى البَدءِ في الكتابةِ، وسأرسلُ الرسالتينِ بنفسي عندما تنتهيانِ من كتابتِهما.

إِستجابَ الأخَوَانِ لهذا الاقتراحِ بفرحٍ وسرورٍ، وآنغمرا في كتابةِ رسالتيهما. وعندما آنتهيا منهما قدّماهما للمرأةِ العجوزِ والتمسا منها قراءتَهما وتصحيحَ ما بهما من أخطاء. وكانت العجوزُ آمرأة متعلمةً برغم انّه لم يكنْ يبدو عليها ذلك، وقد كانت في شبابِها تقومُ بالتدريسِ وكانت ذاتَ ثقافةٍ عاليةٍ وخبرةٍ واسعةٍ بالحياة.

وضعتِ العجوزُ نظارتَها على عينيها وأخذتْ في قراءةِ الرسالتينِ بعنايةٍ واهتمامٍ، وعندما انتهت من القراءةِ جفّفتْ عينيها المُبلّلتين، وفتحت ذِراعيها للأخوَينِ اليتيمينِ وقالت بعطفٍ :

ـ هلمّا لمعانقتي، فقد أظهرَ لي أسلُوبكما في الكتابةِ أن تربيتَكما وأخلاقَكما حسنةٌ، وأنكما تعترفانِ بآلجميل. إنّني آمرأةٌ مُسنّةٌ وقد خبَرتُ الحياةَ

وعركتني الأيامُ، وقد خدعني برغمِ ذلك كثيرٌ من الناسِ، ويبدو عليّ الحذرُ والحرصُ الشديدانِ، إلاّ أنّني أُحِبُّ الأطفالَ حبًّا جمًّا، وقد أحببتكُما وتعلّقَ قلبي بكما بعدَ أن عَرفتُ قيمتكما وحقَّ قدرِكما.

وجاءَ وقتُ النومِ، ونامَ الطفلانِ في غرفةِ ابنِ المرأةِ العجوزِ وعلى سريره العتيقِ، وقد شعَرا حينئذٍ بأنّ سعادتَهما العظيمةَ قد ترجعُ إلى كونهما لم يحصلا على ثقةِ المرأةِ وعطفِها من أوّلِ وهلةٍ، وإنما بالإصرارِ والمعاناةِ، لأن السّرورَ يكونُ أعظمَ عندما لا نحصلُ على ثقةِ الآخرينَ بسهولةٍ وإنما بصعوبةٍ وبالجَهدِ الجهيد.





"أطلُبوا العلمَ من ٱلمهدِ الى ٱللَّحد"

فصولُ تعليمِ الكبارِ والمكتباتُ المدرسية

استقرّت أحوالُ الطِّفلينِ بعدَ وصولِهما بيـومينِ، بفضلِ نشـاطِ أحمدَ والمرأةِ العجوز.

وكان أحمدُ يعملُ بنشاطٍ طَوالَ ٱليومِ في (ورشةِ) الحدّادِ، يصهرُ الحديدَ ويشكّلهُ بعدَ ذلكَ على السِّندانِ ليتحوّلَ فيما بعدُ بينَ يديهِ الماهرتينِ إلى مِفتاحٍ أو (زنبرك) أحياناً، أو إلى مِزلاجٍ أو مِقبضٍ أحياناً أُخرى.

وفي أوقاتِ الفَراغِ، كان أحمدُ يُقدِّمُ خدماتِه المفيدةَ للسيدةِ العجوزِ، وقد قامَ بفحصِ جميعِ أقفالِ المنزلِ وجميعِ ما فيه من أدواتِ حديدٍ، وقد

استعمل مطرقةً ومبردةً بمهارةٍ لإصلاحِ ما يجبُ إصلاحهُ حتى أصبحَ كلُّ شيءٍ كالجديدِ تمامًا ممّا أثار إعجابَ ودهشةَ المرأةِ العجوز.

ولم يستغرقْ ذلك كلُّه سوى بعضِ الوقتِ لأنَّ المنزلَ كان صغيرًا، وبدأ أحمدُ يشعرُ بالفراغِ عندما يعودُ في المَساء من (ورشة) الحدّاد.

وذاتَ يومٍ قالت له المرأةُ العَجُوز :

ـ أحمدُ، لقد انقطعتَ تمامًا عن الذَّهاب الى المدرسةِ، وقد أصبحتَ الآن عاملاً صغيرَ السِّن، إلاّ أنَّ ذلكَ ليس سببًا للتوقُّفِ عن التعلمِ والدراسةِ، أليسَ كذلك ؟ إنَّ أحدَ المدرسينَ بآلمدرسةِ آلقريبةِ من المنزلِ يُعطي دروساً مجّانيةً للكبار في كلِّ مساءٍ، وكثيرٌ من عمالِ المدينةِ يذهبونَ إليه، فيلقنهُم ما لم يتمكّنوا من تعلمهِ في آلمدرسةِ. فعليكَ إذًا بالذّهاب إليهِ يا أحمدُ، لأنَّه كثيرٌ من الأشياءِ يمكننا تعلُّمها في مختلفِ سنواتِ العمر إذا ما خصّصنا لذلك ساعتينِ فقط كلَّ يوم.

وعمل أحمدُ بنصيحةِ المرأةِ العجوزِ، وبدأ يذهبُ كلَّ مَساءٍ الى صفِّ تعليمِ الكبار.

أما طلالٌ، فكان يذهبُ بانتظامٍ إلى المدرسة، وفي أوقـاتِ الفَراغِ، وبعد الانتهاءِ من واجباتِهِ المدرسيةِ، لم يكنْ يُضيعُ وقتَه في اللّهوِ واللّعبِ والتسكعِ في الشوارعِ، وإنما كان يقضي ذلك الوقتَ في تقديمِ كلِّ ما يقدرُ عليـه من خدمـاتٍ للمرأةِ العجـوزِ، حيث كان يـذهب لجلب المـاءِ من اليَنبـوعِ، ويقومُ بـالمشتريـاتِ، ويأتي بـالحـطبِ من المخـزنِ، وينـزعُ الأعشابَ الشيطانيةَ من الحديقةِ. وكانتِ العجوزُ تقولُ باستمرار وإعجابٍ شديد :

ـ إنّك ساعدي الأيمنُ ياطلال :

والواقع أنّ طلالاً، كان يُحبُّ المرأة العجوزَ حبًّا عميقاً، وكان يُصغي إليها دائماً بآهتمامٍ شديدٍ، ولم تكنْ تفلتُ منهُ ولا كلمةٌ واحدةٌ من كلماتِ حكاياتِها التي كانت تقصُّها عليه قبلَ النّومِ وأثناء تفصيصِ الفاصوليا في المَساء.

وذاتَ يومٍ قالت العجوز :

ـ إنّك تُحبُّ الحكاياتِ، وقد حكيتُ لك كلَّ ما تبقّى منها في ذاكرتي، فما رأيُك لوحكيتَ لي أنتَ بدورِكَ بعضَ آلحكاياتِ ؟ فإنّنا ولا شك سوف نقضي أمسياتٍ لطيفة.

وردّ طلالٌ قائلا :

ـ بالطّبعِ، ولكنَّ الكُتبَ غاليةٌ، وليس لدينا هُنا كتابٌ واحد.

وقالتِ العجوز :

ـ وماذا عن مكتبةِ المدرسةِ، هل نسيتَها ؟ أنّ في المدرسةِ كُتبًا للمطالعةِ يُعيرها المدّرسُ للتلاميذِ وسأذهبُ معكَ في صباحِ الغدِ، وسألتمِسُ من المدرّس إعارتَك كُتبًا منها.

وفي مساءِ اليوم الآتي، عاد طلالٌ من المدرسةِ وهو في منتهى آلفرحِ والسرورِ، وقد أمسكَ بيدهِ كتابًا مليئًا بالحكايات.

ومنذُ ذلك اليومِ، وفي أمسياتِ الأيامِ المقبلة، بدأ طلالٌ يقرأُ كتابَهُ بصوتٍ مرتفعٍ، وكانتْ قراءتُهُ ممتازةٌ، كما كان ينطقُ الكلماتِ بوضوح. أمّا المرأةُ العجوزُ، فقد كانت تشرحُ بسرعةٍ كلَّ ما كان يصعُبُ عليهِ فهمُهُ من معاني ومُفرداتٍ، كما كانت تسألهُ بعدَ الانتهاءِ من القراءةِ عن كلِّ ما قرأ،

وكان طلالٌ يجيبُ عن الأسئلةِ بقدرِ طاقته.

وهكذا كان الوقتُ يمضي بسرعةٍ، وكان طلالٌ في مُنتهى السّعادةِ وغايةِ الفرحِ لاستفادتِه من أُمسيّاتِه في التعلمِ والاقتداءِ بأخيهِ الذي كان بالنسبةِ إليه نِعَمَ القدوةُ الحسنة.

وذات يومٍ قال طلالٌ للمرأةِ العجوزِ وهو على أهبةِ النّوم :

ـ جميلٌ جِداً أن تكونَ هناك مكتبةٌ كبيرةٌ يمكنُ للانسانِ أن يستعيرَ منها ما يشاء من الكتب.

وابتسمتِ العجُوزُ وقالت :

ـ هذا صحيحٌ، ولكن قل لي يا طلالُ، هل فكّرتَ في مَنْ يتحمّلُ نفقاتِ شراءِ هذه الكتبِ التي تمتلىءُ بها مكتبةُ المدرسةِ، والذي يرجعُ اليه الفضلُ أخيراً في استمتاعِك بمُتعةِ القراءةِ والاطّلاع ؟

فردّ طلالٌ قائلاً :

ـ لا، بل إنّني لم أفكّرْ في ذلك.

فقالت العجوزُ :

إنّ المدارسَ وفصولَ تعليمِ الكبارِ والمكتباتِ المدرسيةِ هي من خيراتِ آلوطنِ ومن نِعمِهِ علينا. والثروةُ الحقيقيةُ لأيِّ بلدٍ هي في تعليمِ الأطفالِ وعظمةِ المدرّسينَ وتثقيفِ الشّباب. والكتبُ تساعدُنا على زيادةِ معـارفِنا وتعميقِها، ولذلك يجبُ علينا المحافظةُ عليها والعنايةُ بها حتى تبقى سليمةً مدّةً أطولَ وتخدمُ أكبرَ عددٍ من النّاس.

******

التواضـــع



"لاتتباهى بنفسكَ أبداً إذا كنتَ ترغبُ في أن يتحدّثَ النّاسُ عنك بخير"

وذات يومٍ ، عادَ طلالُ من المدرسة فرِحاً مسروراً بعد أن حصلَ على أحسنِ الدّرجاتِ، وجاءَ ترتيبُه الأولَ على تلاميذِ الصف. وقد فرحتِ المرأةُ العجوزُ بذلك وقالت له :

ـ لقد اشتغلْتَ بجدٍ ونشاطٍ ياولدي، فتعالَ معي للترويحِ عن نفسِك قليلاً، إنَّني ذاهبةٌ للمحلِّ الذي أتعاملُ معهُ لأخذِ قماشٍ لحياكتِه، ونستطيعُ

التنزهَ بعدَ ذلك لأنّ الطقسَ مُمتعٌ وجميل.

وأسرعَ طلالٌ بوضعِ حقيبتِهِ المدرسيةِ في ٱلمكانِ المُخصَّص لها في ٱلغرفةِ وهو في مُنتهى السّعادةِ، ووضعتِ العجوزُ شالَها على كتفيها وأقفلتْ بابَ المنزلِ بالمِفتاح، وانطلقَ الاثنانِ ببُطءٍ وعلى مَهل.

كان طلالٌ يشعرُ بالفخرِ ٱلشَّديدِ لتفوقِهِ في المدرسةِ، ولم يفُتْهُ أن يُخبرَ المرأةَ العجوزَ أثناءَ سيرِها بأنّه حصلَ على ٱلمرتبةِ الأُولى برغمِ كونهِ أصغرَ تلاميذِ الصّفِ، كما أخبَرها أثناءَ مرورِهما أمامَ منزلِ أحدِ زملائِهِ الصّغارِ، بأنّ ذلك الزميلَ الذي يكبرُهُ بسنتينِ جاء ترتيبُهُ الأخيرَ على الصّف. والأدهى من ذلكَ، أن طلالاً الذي كانَ ولا شكَّ لا يزالُ متأثراً بنجاحِهِ وتفوقِهِ أخذَ يسخرُ من هذا الزميلِ ويصفُهُ بالغَباء.

استغربتِ ٱلعجوزُ كثيراً عند سَماعِ حديثِ طلالٍ، لأنّ ذلك كانَ مُخالفاً لطبعِهِ ٱللَّطيفِ ولتواضعِهِ الشّديدِ، وقالت له:

ـ ما هذا الغرورُ يا ولدي؟

فأجابَها طلالٌ قائلاً:

ـ ولكن، ألا يصِحُّ أن أفتخر بنفسي عندما يجيءُ ترتيبي الأولَ على ٱلصّف؟

فقالتِ المرأةُ العجوز:

ـ تستطيعُ ياولدي أن تكونَ مغتبطاً وراضِياً بحصولِكَ على هذه النتيجةِ الممتازةِ، ولكن بدونِ أن يدفعَك ذلك إلى الاستخفافِ بالآخرينَ والاستهزاءِ بهم. وعليك أن تتذكّر أنكَ إذا كنتَ أقلَّ جهلاً من طفلٍ آخر، فهذا ليس مُسَوّغاً للتّباهي، وهل نسيتَ بأنّك لستَ أنت الذي خلقتَ نفسَك؟ وزيادة على ذلك، فإنّه ليس هناك ما يثبت لي أنّ الطفلَ الذي

تسخرُ منه ليس أكثرَ ذكاءاً منكَ مائةَ مرّة. وعليك أن تعلمَ أن هناك صُوَراً مختلفةً من الذكاءِ، وكثيرٌ من كبارِ العلماءِ كانوا مُتوسطي المستوى عندما كانوا تلاميذَ صغاراً في المدرسة.

ارتبك طلالُ واحمرّ وجهُهُ خَجَلاً، وعاهدَ نفسَهُ على ألاّ يسخرَ أبداً من أي إنسانٍ كيفما كان.

واستمرّتِ العجوزُ في حديثِها قائلةً:

ـ يجبُ علينا أن نحترمَ في كلِّ انسانٍ خصائصَهُ وصفاتِهِ، كما يجبُ الا نحكمَ على النّاسِ بمظهرِهم.

وأخذتِ العجوزُ بعد ذلكَ تتحدثُ عن أشياءَ أخرى حتى لاتزيدَ من خجلِ طلالٍ وارتباكِهِ الشّديد.

ومرّتِ الأيامُ، وبدأ الطفلانِ يفكّرانِ في الرّحيلِ بعدَ مرورِ شهرٍ على وصولِهما. وحصلَ أحمدُ من صاحبِ (الورشة) التي يعملُ بها على شهاداتٍ تشهدُ له بالمهارةِ وحُسنِ السيرةِ والسُّلوك، وكانتْ هذه الشهاداتُ موقّعةً بأسمِهِ ومختومةً بختمِ عُمدةِ المدينةِ. كما لم تتردّدِ المرأةُ العجوزُ من إعطاءِ شهادةِ ضمانٍ للأخوَينِ، كتبتْ فيها بخطِّها الجميلِ ما يُفيدُ رضاءَها وثقتَها، كما حصلَ طلالٌ على شهادةٍ ممتازةٍ من مديرِ المدرسةِ التي كان يدرسُ بها.

وعندما حانَ وقتُ سَدادِ أجرةِ إقامةِ الأخوَينِ قالت لهما المرأةُ العجوز:

ـ لقد مضى شهرٌ ونحنُ معاً، وأنا مقتصدةٌ جِدّاً ومدبّرةٌ حكيمةٌ كما تعرفانِ، وقد عملتُ كلَّ ما في وسعي حتّى لا نُنفقَ أكثرَ من اللاّزم. وقد كنتَ يا أحمدُ تُعطيني أسبوعياً كلَّ ما تكسبهُ، وقد دبّرتُ أمورَنا فلم أكن أنفقُ المبلغَ كلَّه، وقد وفّرتُ لكما بعضَ المالِ سأُضيفهُ لمدخراتِكما اليسيرةِ التي

تسلمتُها منكما عندَ وصولكما.

وقال أحمدُ :

ـ ولكن ياسيدَتي العزيزةُ، مِنَ المستحيلِ أن تكوني قد أنفقتِ علينا هذا المبلغَ الضّئيلَ فقط، وبالطريقةِ التي تحسبينَ بها، فإنّكِ ستخسرينَ بالتأكيد، بينما سنربحُ نحنُ كثيراً.

وردّتِ العجوزُ الطّيبةُ قائلةً :

ـ لا يا أحمدُ، إنّني لم أخسرْ شيئاً على الإطلاق وعليكَ أن تطمئنَّ تماماً وتتأكدَ من ذلك. وقد كانت سعادتي ياولدي بكما وبوجودِ كما معي كبيرةً وعميقةً الى درجةٍ أن منزلي القديمَ سيبدو لي بدونِكما خاوياً، كما سيصعُبُ عليّ احتمالُ الوَحدةِ التي ستمتلئُ بها البقيةُ الباقيةُ من عُمري. إنَّ ريعانَ الشّبابِ يُشبهُ الشّمسَ التي تُدفئُ كلَّ ما يُحيط بها.

وقال طلالٌ بتأثرٍ شديدٍ وهو يحتضنُها بحرارةٍ :

ـ آه يا سيِّدَتِي، سوف نفكّرُ فيكِ دائماً، وسنكتبُ إليكِ عندما نلحقُ بعمِّنا ونستقرُّ معه.

وقالتِ العجوز :

ـ نَعَمْ، يجبُ أن تكتبا إليَّ، واذا ما واجهتكُما أيّةُ عقبةٍ أو كنتُما في أيّةِ ضائقةٍ، فلا تتردّدا في الاستعانةِ بي. إنّني لستُ غنيّةً، ولكنّني مدبّرةٌ وأستطيعُ دائماً ادخارَ بعضِ المال. وفائدةُ الادّخارِ كما يجبُ أن تعرفا وتفهما ليستْ فقط في مساعدةِ المرءِ لنفسِهِ عند الحاجةِ حتى لايكونَ عبءً على الآخرينَ، وإنّما في تقديمِ العونِ والمساعدةِ لمَنْ يعانونَ من الفاقةِ والعَوَزِ والاحتياجِ أيضاً.



الثقـــة العميـــاء

"لاتثقْ بسرعةٍ وسهولةٍ بمن لا تعرفُهُ، وتسلّحْ بالحَذَرِ دائماً"

تحدّدَ يومُ الرّحيلِ ، وأخذتِ آلعجوزُ تبحثُ عن عربةٍ لنقلِ الطّفلينِ، واستطاعت بعدَ عناءٍ كبيرٍ وبعد تقديمِ هديةٍ متواضعةٍ أن تجدَ عربةً أقنعتْ سائقَها بآصطحابِ الأخَوَينِ معه.

وفي ساعةٍ مبكرةٍ من صباحِ اليومِ المُقبلِ ، صَحِبتِ العجوزُ أحمدَ وطلالاً إلى المكانِ الذي آتفق معها السّائقُ على اللّقاءِ فيه، وبعد أن تعانقَ الثلاثةُ وتبادلوا القُبلاتِ عِدّةَ مرّات، افترقوا وعيونُهم دامعةٌ وقلوبُهم حزينةٌ مهمومة. وكانت الساعةُ تقتربُ من الرابعةِ صباحاً عندما آنطلقتِ العربةُ في

الـطّريقِ، وقد وصلت في مَسَـاء اليوم نفسِـهِ الى المدينـةِ التي يقصدُهـا الطفلانِ، التي تعَدُّ محطةً جديدةً في رحلتِهما الطّويلة.

كانتِ المدينةُ صغيرةً، ويبلغُ عددُ سُكانها ما يقرب من عشرةِ آلافِ نَسَمَةٍ تقريباً، وتقع على سفح تلٍّ في وادٍ مخضرٍّ وخصيب. ولم يكن أحمدُ وطلالٌ يعرفانِ أحداً فيها، كما لم يكن لهما فيها أصدقاء. وهكذا لم يعُدْ أمامَهما سوى دفعِ نفقاتِ مبيتِهما، وآقتطاعِ جزءٍ من مُدّخراتِهما لشراءِ ما يفطرانِ به ثم مواصلةِ رحلتِهما سيراً على آلأقدام.

وبرغم ذلك نامَ آلطِّفلانِ نوماً عميقاً هنيئاً، وقاما من نومِهما في صباحِ اليومِ المُقبلِ، وآنطلقا في الطَّريقِ نحوَ الجَنوبِ وهما في مُنتهى آلحيويّةِ والنَّشاطِ، بينما كانتِ الشمسُ تظهرُ في السَّماءِ، وبعضُ السُّحبِ الصغيرةِ تتهادى في الجوِّ هنا وهُناك.

وقال طلالٌ:

- سيكونُ الطقسُ جميلاً.

وأجاب أحمدُ قائلاً:

- نَعَمْ، بشرطِ أن تظلَّ تلك السُّحُبُ كما هي عليهِ الآن في آرتفاعِها الشّاهقِ في السّماء.

وكانَ الطّفلانِ يأمُلان قطعَ مُنتصفِ الطّريقِ قبلَ حلولِ آلليلِ، والوصولَ إلى غايتِهما في مَسَاءِ اليومِ المقبلِ. إلاّ أنَّ السَّماءَ - ويالِلأسفِ - بدأتْ تتلبدُ بالسُّحبِ بعدَ أن قطعا بضعةَ كيلو متـراتٍ فقط. وتوقّفَ أحمـدُ عن المشيِ وأخذَ يُنعِمُ النَّظرَ ويتفحصُ الأفُقَ بآهتمامٍ شديد. وكانتِ السُّحبُ قد بدأت في التَّضخُمِ وأصبحت مستديرةً ككراتٍ ضخمةٍ من القُطنِ، وكان

بعضُها قاتماً وعلى آرتفاعٍ منخفِضٍ. وقال أحمدُ :

ـ لِنُسرِعْ في السّيرِ لأنّ السُّحبَ تُنذِرُ بهطُولِ آلمطر.

ولم تمرَّ سوى لَحَظَاتٍ حتى بدأ المطرُ يهطلُ بغزارةٍ، وآضطُرّ الطفلانِ للتوجهِ إلى حظيرةٍ مهجورةٍ على قارعةِ الطريقِ للاحتماءِ بها، وانتظارِ توقفِ هطولِ المطرِ على أحرَّ مِنَ الجمرِ. ومرّتْ ساعاتٌ عديدةٌ، ولم يتوقفْ وابلُ المطرِ لحظةً واحدة.

وقال أحمدُ بحسرةٍ وأسى :

ـ لقد ضاعَ هذا اليومُ لسوءِ الحظِّ، ومن الأفضلِ الآنَ أن نذهبَ لقضاءِ اللّيلِ في تلكَ القريةِ الصغيرةِ التي تقعُ هناك خلفَ الأشجار. أمّا إذا هطلَ المطرُ في الغدِ أيضاً، فسيكونُ حظّنا حقاً في منتهى آلتّعاسة.

وفي هذه اللحظةِ، رأى طلالٌ عربةً تمرُّ في الطّريقِ متوجهةً الى المدينةِ التي كانا يومِّلانِ في بدايةِ رحلتِهما قضاءَ الليلةِ فيها، وكان صاحبُها قادماً لتوِّهِ من أحدِ الأسواقِ بعدَ أن باعَ فيه قطيعاً مِن الماشيةِ واشترى سِلالاً ومقاطِفَ، وكان يمضي سريعاً بعربتِه لأن حمولتَها خفيفة.

وصاح طلالٌ قائلاً :

ـ ماذا لو طلبنا من هذا السّائقِ أن يأخذَنا معه لقاءَ مبلغ من النقود ؟ ألا يكونُ ذلك أفضل ؟

وافق أحمدُ على آقتراحِ طلالٍ، وأسرعَ الاثنانِ وراءَ العربةِ حتّى لحِقا بها، وشرحا للسّائقِ بلطفٍ وأدبٍ المأزقَ الذي يوجدانِ فيه بسببِ هطولِ آلمطر. وقال السائقُ الذي بدا لهما مُنشرحاً مُحمّرَ الوجهِ مرِحاً، وإن آتسم سلوكُهُ ببعضِ آلغرابة :

ـ اركبا، سآخذُ منكما مبلغاً ضئيلاً جدّاً من آلمال، وستكونانِ في هذا المَساءِ في المدينةِ التي تُريدانِ الذَّهابَ إليها.

وتردد أحمدُ لحظةً وقال في نفسِهِ :

ـ هل من آلحكمةِ أن نثِقَ بإنسانٍ لانعرفُهُ، وسلوكُهُ غريبٌ على سوءِ الظّن ؟

وآزدادتْ في اللحظة نفسِها حِدّةُ الريحِ وغزارةُ المطرِ، وبدا منظرُ العربةِ مُغرياً وواعداً للأخوينِ بمأمنٍ طيبٍ ومأوىً مريح. وهكذا قرر أحمدُ قبولَ المُخاطرةِ وقد آنتابَهُ بعضُ القلقِ، وأعطى للسائقِ المبلغَ الذي طلبه، ثم استقرّ مع طلالٍ في جوفِ العربةِ بينَ المقاطفِ والسِّلال.

انطلقَ السائقُ مرةً أخرى مُسرعاً بالعربةِ، وأخذ يسوطُ حصانَهُ بعنفٍ وقوّةٍ حتى وصلَ الجميعُ بعدَ قليلٍ الى إحدى القُرى الصغيرةِ، ولم تتوقفِ العربةُ وإنما عبرتْها بسرعةٍ وفي ضجّةٍ شديدةٍ وهي تهتزُّ يميناً ويَسارًا.

وكان طلالٌ يلاحِظُ ذلكَ بمنتهى الاغتباطِ، وقال لأخيه بصوتٍ منخفض :

ـ إنّنا نسيرُ بسرعةٍ، وسنصلُ في وقتٍ مُبكّرٍ هذا المَساء.

إنَّ السّائقَ يستحِقُّ فعلاً المبلغَ الذي أخذه.

ولكن فَجْأةً، آنتهى حماسُ السّائقِ وتلاشت همّةُ الحصانِ، وتوقفتِ العربةُ أمامَ بيتٍ في القريةِ، وكان عبارةً عن حانةٍ آزدحمت بالرُّوادِ، والجميعُ فيها يُغنّونَ في هَرَجٍ ومرجٍ شديدين.

نزلَ السّائقُ من العربية وقال لأحمدَ بمرحٍ وآغتباط :

ـ هيًا، ينبغي أن نستريحَ قليلاً... كما أنَّ النبيذَ هُنا ممتازٌ... وقِنينةٌ صغيرةٌ منهُ لن تضرَّ أبدا.

شكر أحمدُ السائِقَ وقد آمتلكهُ وجلٌ شديدٌ بعدَ أن لاحظَ ترنُّحَهُ عندما قفزَ مِنَ العربةِ، وأدركَ حينئذٍ بأنَّ آحمرارَ وجهِهِ ومرحِهِ الزائدِ إنما يرجعانِ إلى ما كان قد شربَهُ من قبلُ من نبيذ. وعندئذٍ همسَ في أُذُنِ أخيهِ طلالٍ قائلاً :

- يا للأسفِ، إنّ هذا الرجلَ سكرانُ سكراً بيّنا. لقد تصرّفنا بطيشٍ وبدونِ حذرٍ عندما وثِقنا في أوّلِ رجلٍ قابلناهُ في الطّريقِ وأعطيناهُ نقودَنا. وليس هناكَ مَنْ نلومُهُ سوى أنفُسِنا.

ولم يردَّ طلالٌ والتزَم الصَّمتَ وقد آمتلكتهُ الحَيرةُ الشّديدة.





شـــرب الخمـــر

"ان السُّكاري هم كارثةٌ على بلادِهم وأسرهم وعلى كلِّ من يحيطُ بهم"

ربط السائقُ حصانَهُ في عمودٍ قريبٍ من بابِ ٱلحانةِ، وتوجّه للانضمامِ لجميعِ الشاربينَ بدونِ أن يبديَ أيَّ اهتمامٍ على الاطلاق بالطفلينِ اللذينِ مكثا في جوفِ العربةِ. وبعدَ قليلٍ بدأ صوتُهُ الأجشُّ الغليظُ يختلطُ بصيحاتٍ وَضحكاتِ السُّكارى الآخرينَ. وكانت الحانةُ فاسدَةَ الهواءِ بسببِ دُخَانِ التبغِ وروائحِ الخُمورِ، كما كان ينبعثُ منها هَرَجٌ ومرجٌ شديدان. وبمقدارِ ما كان عددُ الكؤوسِ الفارغةِ يزدادُ بمقدارِ ما كانَ الشغبُ والشِّجارُ يحلُّ محلَّ الأغاني والضَّحِكات. وقد رأى الأخوَانِ من خلال زجاجِ النّافذةِ سائقَ العربةِ في هِياجٍ وعراكٍ مع غيرِهِ من ٱلمخمورين.

وصاحَ أحمدُ قائلاً :

ـ لقد كان أبي على حقٍ عندما كان يتجنّبُ آلملاهيَ وآلحـاناتِ ويعـدُّها كالطّاعون . ألم يكنْ أفضلُ بكثيرٍ لهذا السّائقِ التّعيسِ أن يكونَ الآنَ في بيتهِ مع زوجتِهِ وأطفالِه ، بدلاً من أن يُبدِّدَ ما دفعناهُ إليه من نقودٍ في هذهِ آلحانةِ آلفاسدةِ آلملوَّثةِ الحقيرة ؟

ومضى الوقتُ ، وتعاقبتْ زُجاجاتُ النّبيذِ على آلمائدةِ والسّائقُ لايزالُ داخلَ الحانةِ ، حتى تصورَ الطّفلانِ أنّهُ ولا شكَّ يعتقدُ بأنهُ وصلَ إلى نهايةِ رحلتِه .

وكان المطرُ في تلكَ الأثناءِ لايزالُ يهطِلُ بغزارة ويُحدِثُ أصواتاً صاخبَةً أثناءَ جريانهِ على قماشِ آلعربةِ ، وكانَ الحصانُ المِسكينُ يتهزهزُ بصبرٍ من وقتٍ لآخر وكأنّهُ قد تعوّدَ على تحملِ جميعِ آلبلايا منذُ وقتٍ طويل .

ولم يُعدْ أحمدُ يحتملُ الصَّبر ، فخرجَ من العربةِ ودخلَ الحانةَ ، وتوجّه إلى السّائق السكرانِ وذكّرهُ بأدبٍ وحزمٍ بأنَّ الوقتَ جِدُّ متأخر ، وأنه قد آن الأوانُ للرّحيل . ولكنّ السائقَ ردَّ عليه بصوتٍ مخمورٍ قائلاً :

ـ ثم ماذا ؟ إذا كنتَ أكثرَ منّي آستعجالاً ، فلترحلْ يا مُشرَّد .

وكادَ أحمدُ يردُّ عليهِ بحميّةٍ لولا أن جَذَبهُ صاحبُ آلحانةِ من ذراعهِ وقال له :

ـ أسكتْ ، إنّ هذا الرّجلَ من أطيبِ خلقِ اللّهِ عندما يكونُ في وعيهِ ، ولكنّه عندما يسكرُ يصبحُ من أشرسِ النّاسِ وأكثرِهم فَظَاظةً ، فينهالُ على حصانهِ بالسوطِ ، وقد يعتدى على أي إنسانٍ بسببٍ أو بدونِ سبب .

وقال أحمدُ مُحتجاً :

ـ ولكنّني دفعتُ إليه مُقدماً أجرةَ نقلِنا إلى آلمكانِ الذي نذهبُ إليه .

فردّ عليه صاحبُ الحانةِ بجَفاءٍ قائلاً :

ـ لقد أخطأتَ مرتينِ، في آلمرةِ الأولى عندما دفعَت مُقدّماً لرجُلٍ لاتعرفُه، وتخطئُ الآنَ إذا تُريدُ مناقشةَ رجلٍ فاقدٍ وعيَه.

وعاد أحمدُ للعربةِ مهموماً، وقرّرَ معَ طلالٍ وهُما في مُنتهى الانزعاجِ والحسرةِ، أن يحملا صُرّتيهما على ظَهريهِما، ويُواصلا رِحلتَهما مشياً على الأقدامِ في آلبردِ وتحتَ المطرِ، حتى يقطعا الستةَ عشرَ كيلو مترٍ الباقيةَ، بدلاً من البقاءِ برفقةِ رجلٍ فظٍّ وسكّير.

وفي تلكَ اللحظةِ بالذّاتِ، خرجَ السّائقُ من آلحانةِ وغليونـهُ في يدِهِ، وأخذَ كالمجنونِ يُهدِّدُ ويتوعدُ ويشتمُ آلحظَّ وآلحصـانَ والنّاسَ وآلـطفلينِ ونفسَه أيضاً، ثم ركبَ العربةَ قبل أن يتمكّنَ الأخوانِ المذهُولانِ من النزولِ منها، وأخذَ يضربُ حصانهُ بالسّوطِ بشراسةٍ وعُنفٍ، فانْطلقتِ العربةُ وهي ترتجُ مندفعةً في الـطّريقِ من جانبٍ الى آخـرَ، وازدادتْ سُرعـةُ الحِصانِ وانطلقَ لا يلوي على شيْ وقد هيّجتهُ ضرباتُ السّوطِ وصيحـاتُ السّائقِ المخمور.

ارتعدتْ فرائصُ طلالٍ من آلخوفِ، وتمنّى لو أنهُ كانَ بعيداً عن هذهِ العربةِ المجنونةِ بمئاتِ آلأميالِ، ولم يكن أحمدُ هو الآخـر مطمئنـاً على الإطلاقِ، ولكنّه فضّلَ الصمتَ ولم يفُهْ ببنتِ شفةٍ بعدَ أن حـذّرهُ صاحبُ آلحانةِ من سوءِ أخلاقِ آلسّائق.

جلس الأخَوانِ مُلتصقينِ ببعضِهما في جوفِ آلعربةِ، ولا أمنيَة لهما سوى أن ينساهما السائقُ المخمورُ الذي كان هائجاً كالمجنونِ، الذي لم ينقطعْ عن توجيهِ الشتائمِ والتهديداتِ لكلِّ من يمرُّ بهِ من المارّةِ، وعن القَسَمِ

بأغلظِ الأيمانِ بأنهُ سيقومُ بأفظعِ الأعمالِ لأنّ أحدَ الأوغادِ أهانَهُ في آلحانة . . .

ومرّت ساعةٌ على هذا النّحوِ، والطِّفلانِ في رُعبٍ وهَلَعٍ، يسودُهما الصمتُ وتنتابُهما الهواجسُ، وقدْ آقتنعا تماماً بأنّ «السكرَ رذيلةٌ قبيحةٌ وشائنةٌ جِدّاً.»

وكان طلالٌ يشعُر بالحُزنِ لوجودِهما بصُحبَةِ سكّيرٍ قليلِ الأدبِ سليطِ آللّسانِ، وقد بلغ أسفُه حدّاً جعلهُ يُفضِّل أيَّ شيءٍ آخرَ على هذا العذابِ الذي يشعرُ بهِ وهو في جوفِ العربةِ، وتذكّر بنوعٍ من آلحسرةِ الليلةَ التي قضاها فوقَ الجبلِ وسَطَ الضَّباب برفقةِ أحمدَ وفي رعايتِهِ، وبدت له تلكَ الليلةُ ألطفُ مائةَ مرّةٍ من آلرِّحلةِ صُحبةَ رجلٍ أفقدَهُ الخمرُ وعيَهُ وجعلَهُ فظّاً غليظَ آلقلب.





التَّضامُن

"كائناً من كانَ الإنسانُ الذي في خطرٍ، فإنَّ من حقهِ الحصولَ على مساعدتِنا"

ظلَّ الطفلانِ يرتعشانِ في جوفِ آلعربةِ وهما في قلقٍ شديدٍ، بينما انطلقَ آلحصانُ يسابِقُ الريحَ تحتَ وقعِ ضرَباتِ السوطِ التي آنهمرتْ عليهِ بلا رحمة.

وأخيراً وبمرورِ الوقتِ، أثقلتِ آلخَمرُ على السائقِ وأنهكتْ قُواهُ، فكفَّ عن السَّبِ والشَّتمِ وضربِ آلحِصان، وآنقلبَ على ظهرِهِ فوقَ مقعدِهِ وغرِقَ في سُباتٍ عميق.

وسُرعانَ ما أخذَ الحِصانُ من تلقاءِ نفسهِ يتمهّلُ في السيرِ شيئاً فشيئاً وكأنَّه كانَ ينتظِرُ ذلكَ من صاحبِهِ، ثم توقَّفَ تماماً وقد أسعدَهُ بلا شكٍ في أن يتنفَّسَ الصُّعَدَاءَ بعدَ مُدّةٍ محمومةٍ من آلجريِ السَّريعِ. ولم يُحرِّكِ السائقُ آلنائمُ ساكناً، بل على العكسِ أخذَ شخيرُهُ يزدادُ ويرتفع إلى عِنانِ آلسَّماء.

وفي تلك اللحظةِ بالذّاتِ، سيطرتْ على الطِّفلينِ فكرةٌ واحدةٌ، وهي أن ينزِلا فوراً من العربةِ، فقاما بدونِ ضجّةٍ، وتناولَ كلٌّ منهما عصاهُ وصرَّتَهُ، وتخطيا آلسّائقَ بهدوءٍ شديدٍ، ثم قفزا إلى الطريقِ ، طلقا ساقيهما للرِّيحِ وهما في مُنتهى الارتياحِ لتخلّصِهما أخيراً من صُحبةِ سكرانَ سليطِ آللِّسانِ قبيحِ آلتّربيةِ وآلسُّلوك.

وصاح طلالٌ قائلاً :

ـ يا أحمدُ، إنّني أفضِّلُ أن أمشِيَ على قدمي طول حياتي في آلجبالِ والغاباتِ الكثيفةِ على أن أكونَ صُحبةَ سائقٍ مخمورٍ ولو كان يسوقُ أفخمَ العربات.

وردّ أحمدُ قائلاً :

ـ اطمئنّ يا طلالُ، سوف نستفيدُ من هذا الدرسِ ، ومن الآنَ فصاعداً، لن نثقَ ولن نُسلِّمَ أنفُسنا أبداً لأولِ إنسانٍ نلقاهُ في آلطّريقِ.

وفي هذه الأثناء، كانَ الحِصانُ قد بدأ في السَّيرِ من جديدٍ بعدَ أن فاجأتْهُ حركةُ الطفلينِ وهما يقفزانِ من آلعربةِ، وأسرعَ حتى بلغَ الأخوَينِ وسبقَهما. ولم يتحركِ السائقُ من مكانِهِ واستمرَّ في نومِهِ العميقِ لايشعُر بشيءٍ، وسارتِ العربةُ في الطريقِ تتخبّطُ خبطَ عشواءَ بالقربِ من الحُفرِ وجذوعِ الأشجار. وفَجْأَةً، مرّت إحدى العجلاتِ فوقَ كومةٍ من الصخورِ، وترنَّحتِ العربةُ وكادت تنقلبُ في إحدى الحُفرِ العميقة.

وصاح أحمدُ قائلاً :

ـ سوف تقعُ مصيبةٌ لهذا الرّجل.

وردّ طلالٌ الذي كانتِ الضَّغينةُ تملأُ قلبَهُ تُجاهَ السّائق :

ـ ليكنْ، وسيلقى عندئذٍ ما يستحقُّه !

فقال أحمدُ بهُدوء :

ـ ربما كانت زوجتُهُ وكذلك أطفالُهُ في انتظارِه في هذهِ اللّحظةِ، واذا ما تركناهُ هكذا، فلربما رجعَ لأسرته محمولاً على نقالةٍ وهو ميّتٌ أو جريحٌ، ودماءُهُ تسيلُ كما حصلَ لأبينا. فهل نسيتَ ذلك يا طلالُ ؟

وتأثر طلالٌ بكلماتِ أحمدَ، وشعَر بالخجلِ وارتمى على عُنُقِ أخيه وقال له :

ـ إنّك أفضلُ منّي، ولكن ماذا نستطيعُ عمَلَهُ الآن ؟

وردّ أحمدُ قائلاً :

ـ سنسيرُ إلى جانبِ الحصانِ، وسنُمسِكُهُ من لجامِهِ وعندما يستيقِظُ السّائقُ نتركُ الحِصانَ وننجو بأنفسِنا.

واستفهمَ طلالٌ قائلاً :

ـ وإذا لم يستيقظْ ؟

فردّ أحمدُ قائلاً :

ـ حينئذٍ سنرى أفضلَ ما يُمكِنُ عملُهُ. وعلى أيِّ حالٍ، لقد ارتكبنا عملاً طائشاً في هذا الصّباحِ عندما ارتبطنا برجلٍ لانعرِفهُ بسرعةٍ وبدونِ تفكيرٍ، ويجبُ علينا ألاّ نرتكِبَ عملاً آخرَ سيئاً بالتخلّي عن هذا الرجلِ في الطّريق. إنَّ الانسانَ الشّريفَ هو الذي لايتردّدُ في تقديمِ المُساعدةِ لأيِّ إنسانٍ آخرَ في محنةٍ، كيفما كانَ هذا الانسان.

وأسرعَ الطّفلانِ حتى لَحِقَا بالحصانِ، وسارا إلى جانبِهِ وهما يُمسِكانِ لِجامَهُ ويوجهانِهِ حتى لاتصطدمَ العربةُ بكتلِ الصَّخرِ والحواجزِ الأُخرى. وسارا هكذا لمدةٍ طويلةٍ، ولم يتحركْ سائقُ العربةِ ولم يستيقظْ من سُباتِهِ

العميق.

وبعد مُدّةٍ، أنهكَ السيرُ طلالاً وأتعبتْهُ متابعةُ خُطُواتِ الحصانِ، وشعرَ بالضَّعفِ يتملّكُهُ، إلا أنهُ استرجعَ بسرعةٍ شجاعتَهُ المألوفةَ وقال في نفسِهِ:

- إنَّ ما نقومُ به كلُّه خيرٌ وصلاحٌ، ولذلك ينبغي أن أُواصلَ السيرَ بشجاعةٍ وصبرٍ وثبات.

وأخيراً توقّفَ الطّفلانِ عندما لمحا حارسينِ ليليينِ راكبينِ حصانينِ يركضانِ تُجاهَهما وتقدَّم أحمدُ للقائِهما، وحكى لهما بوضوحٍ كلَّ ما حدثَ، وسألَهما النصيحةَ عما يجبُ عملهُ. وببرودةٍ وجفافٍ، طلبَ الحارسانِ أولاً أوراقَ الطّفلينِ الرسميةَ، فقدَّمها لهما أحمدُ في الحالِ، وعندما اطّلعا عليها ووجداها أصوليةً، تلطّفتْ لهجتُهما وترجّلا عن الحصانينِ، وهزّا السّائقَ هزّاً عنيفاً بدونِ فائدةٍ، وحاولا إيقاظَهُ بجميعِ الوسائلِ، ولكن هذا الأخيرَ كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ فلم يشعرْ بشيءٍ. وقال أحدُ الحارسينِ:

- إنهُ سكرانُ تماماً، ولافائدةَ من محاولةِ إيقاظه.

ثم قال للطّفلين:

- اطمئنا، إنّنا نعرفُ هذا الرّجلَ وسوف نرافِقُه ولن نتركَهُ وحدَه. وقد وبّخناهُ مراراً على عربدتِهِ وسكرِهِ وقسوتِهِ ومعاملتِهِ السيئةِ لحصانِهِ، وقد دفعَ ذاتَ مرةٍ غرامةً بسببِ ذلكَ، لأنه لا يجبُ أبداً ولا يصح إساءةُ معاملةِ الحَيَوانات. وأنتما، هل تعرفانِ أينَ تقضيانِ ليلتَكما؟

وردّ أحمدُ قائلاً:

- إنّنا لانعرفُ ياسيِّدي، ولكنّنا سنتوقفُ في أقربِ قرية.

فقال الحارسُ :

ـ لقد دفعتُما أجرةَ نقلِكما، فآركبا اذاً ولا تخافا. إنّ سوف نرافِقُ العربةَ وسنحرسُ السائقَ ونراقبُهُ، وإذا ما استيقظَ فإنّه لن يستطيعَ أن يفعلَ شيئاً.

ثم قام الحارسانِ بزحزحةِ السائقِ ودفعِهِ الى جوفِ العربةِ، وطلبَ أحدُهما من الطفلينِ أن يجلسا مكانَهُ، ومن أحمدَ أن يقودَ العربةَ وقال له :

ـ أمسِكِ الزِّمامَ ياولدي وقُدِ العربةَ، وسنتبعُكما نحنُ على الحِصَانين.

وركبَ الأخَوانِ العربةَ، وجلسا في مقدمّتِها على مقعَدِ السائقِ. ولم يكن أحمدُ يعرِفُ القيادةَ، ولكنَّ الحارسَ شرحَ له ما يجبُ عملُه، فأخذَ يقودُ على مَهَلٍ وحرصٍ، ومرّتِ الرِّحلةُ في مَرَحٍ وسرورٍ وعلى أحسنِ ما يُرام.

وعندما وصلَ الجميعُ إلى القريةِ، قدّم الحارسانِ الطّفلينِ إلى سَيِّدةٍ عجوزٍ طيِّبَةٍ وأوصاها بهما خيراً. وآهتمّتِ المرأةُ بالأخوينِ آهتماماً خاصّاً وجهّزتْ لهما فراشاً مريحاً بثمنٍ مناسبٍ جِدّاً. وعندما انصرفتِ العجوزُ وبقي الأخَوَانِ وحدَهما، قال طلالٌ لأحمدَ بسذاجة :

ـ لم أكن أظُنُّ أبداً أنَّ الحارسينِ سيكونانِ في منتهى آللّطفِ معنا، والحقيقةُ أنَّني خِفتُ منهما في أولِ آلأمر.

وردّ أحمدُ قائلاً بهدوء :

ـ عندما نقومُ بواجبِنا، وعندما لا نرتكبُ أيَّة أعمالٍ سيئةٍ منافيةٍ للآدابِ وللاخلاقِ والقانونِ، فإنّه لايجبُ أن نخافَ أبداً، ويجبُ عليكَ أن تعلمَ أنَّ من مَهامِّ رجالِ الشُّرطةِ حمايةَ النّاسِ والمحافظةَ على أمنِهم وسلامتِهم.

******



عــرض عمــل

"يجبُ على الإنسان أن يتعلّمَ كيف يكسبُ قوتَ يومِهِ حتى يستطيعَ آلاعتمادَ على نفسِهِ"

وفي صباحِ اليومِ القابلِ، قام أحمدُ وطلالُ من آلنّومِ، وقبلَ الانتهاءِ من آرتداءِ ملابسِهِما، دخلتْ عليهما صاحبةُ المنزلِ وقالتْ لهما :

ـ إنّكما ذاهبانِ على ما أظنُّ في آتجاه الجَنوبِ، وربما يُسعِدُكما أن تقعَا نصفَ الطريقِ بدونِ أن يكلِّفكُما ذلكَ شيئاً، اللّهمّ الا العملَ مجاناً لمدةِ شهرٍ.

وردّ أحمدُ قائلاً :

ـ إنّنا ياسيدتي لانطلبُ سوى ذلك، بشرطِ أن نعملَ مع أُناسٍ طيِّبين.

فقالتِ ٱلمرأة :

ـ اطمئنَّا تماماً، لأنَّ الرَّجلَ الذي يستخدِمُكما رجلٌ شريفٌ، برغمِ ما يبدو عليه مِنَ تقتيرٍ وبخل. وهو ينتظِرُكما في المطبخِ إذا كنتما تُريدانِ الحديثَ معه في هذا الموضوع.

نزلَ الأخَوانِ للمطبخِ، فوجدا رجلاً ضخمَ الجثةِ ممتلئَ ٱلقـامةِ يقِفُ وظهرُهُ للمدفأةِ في مواجهةِ ٱلبابِ الذي دخلا منه.

وتأمَّلهما الرَّجلُ بسرعةٍ ثم قال لأحمد وقد بدا عليه الرِّضى والقبول :

ـ الموضوع كالآتي : في كلِّ سنةٍ وفي هذا الوقتِ بالذَّاتِ، أقومُ أنا وزوجتي بدورةٍ طويلةٍ في مختلفِ الأقاليمِ لبيعِ منتوجاتِ المنطقةِ، ولكنّ زوجتي لن تستطيعَ المجيءَ معي هذه المرةَ لأن حالتَها الصِّحّيةَ لاتسمحُ لها بذلك، بعد أن وضعت في الاسبوعِ الماضي مولوداً جميلاً. وهكذا، لن أستطيعَ القيامَ بالعملِ وحدي وبمفردي، كما أنّني لن أستطيعَ التخليَ عن هذهِ الدورةِ، لأنَّ الوقتَ ليس وقتَ راحةٍ وكسل، وخاصةً بعد أن أضيفَ عضـوٌ جديـدٌ للأسرة. فاذا وافقتما على العملِ معي لمدةِ خمسةَ عشرَ يوماً، فإنّني سأوفّرُ لكما المأكلَ والمبيتَ، وسأتكفلُ بجميعِ نفقاتِكما، ولكنّني لن أستطيعَ دفعَ أيِّ مبلغٍ مالي مهما كان قدرُه. وفي نهايةِ هذه المدةِ، ستكونانِ قد قطعتما نصفَ المسافةِ التي تفصلُكما عن مقرِّ عمِّكما. فهل توافقان ؟

وقال أحمدُ وهو يشيرُ الى طلالٍ :

ـ إنَّ أخي كما ترى لم يبلُغْ بعدُ الثامنةَ من عمرِهِ، ونظراً لصغرِ سنهِ فإنّهُ لن يستطيعَ القيامَ الاّ بالأعمالِ اليسيرة.

فقالَ الرّجل :

ـ ذلك صحيحٌ تماماً، وسيقومُ فقط بالأعمال اليسيرةِ. أمّا أنتَ، فإنّك كبيرٌ وقويٌّ، وسوفَ تُساعِدني في تحميلِ العربةِ وفي البيعِ والعنايةِ بالحِصان.

وقال أحمدُ :

ـ بكلِّ سرورٍ، ولكنّنا سنكونُ في منتهى ٱلسّعادةِ إذا أضفتَ ولو مبلغاً قليلاً جدّاً من المالِ الى ما عرضتَهُ علينا سابقاً.

وقال الرجُلُ وكان ٱسمُه بركات :

ـ لن أستطيعَ إضافةَ شيءٍ، ولكما الخيارُ، فإمّا أن تقبلا وإما أن ترفُضَا ما عرضتُه عليكما.

ووافقَ الأخَوَانِ على عرضِ السيد بركات، وفي ساعةٍ مبكرةٍ من صباحِ اليومِ القابلِ، أيقظَهما الرّجلُ وطلبَ من أحمدَ أن يلبسَ ملابسَ ٱلعملِ وقال له :

ـ تعالَ معي لأُعلِّمكَ كيفَ تعتني بالحِصانِ، وأنا أهتمُّ كثيراً بأن يلقى حصاني هذه العنايةَ الفائقةَ التي يستحقُّها، وهو يكلّفُني غالياً، الا أنّه يقدِّمُ لي خدماتٍ لاتُعَدُّ ولا تُحصى، زد على ذلك أنّهُ رفيقٌ مخلِصٌ وصديقٌ وفيّ.

وبدأتِ الرحلةُ، وبدأ نقلُ ٱلبضائعِ إلى مختلفِ المتاجرِ والمحلّاتِ، وكان العملُ شاقاً ويستمرُّ أحياناً الى ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ، إلّا أن السيدَ بركات كان رجلاً عادلاً منصفاً، وقد أظهرَ ٱهتماماً كبيراً بالطّفلينِ ولم يبخَسْهُما حقهما، ووفّرَ لهما المبيتَ الطيِّبَ والغِذاء الجيّدَ الكافي.

وبالرغم من التعبِ والإرهاقِ، كان أحمدُ وطلالٌ في منتهى الارتياح لاستطاعتِهما كسبَ قوتِهما ودفعَ مصاريفِ رحلتِهما بجدِّهِما وعَرَقِ جبينِهما.

وذاتَ يومٍ وصلَ الثلاثةُ الى أبوابِ مدينةٍ كبيرةٍ، وقال السيد بركات :

ـ يجبُ علينا الآن أن نعملَ بجدٍ ونشاطٍ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى ، وسوف يكونُ نهارُنا شاقّاً ولن تكونَ لدينا دقيقةٌ واحدةٌ للرّاحة .

وبالفعلِ ، انهمكَ الأصدقاءُ الثلاثةُ في أشغالهم الشّاقةِ طَوالَ النّهارِ حتّى أنّهم لم يجدوا الوقتَ الكافيَ لتناولِ الغَداءِ، واكتفوا أثناءَ العملِ بـأكلِ رغيفٍ صغيرٍ من الخبزِ. وبرغمِ ذلك لم يفكرْ أيُّ واحدٍ منهم في الشّكوى أو التّذمر، لأنَّ البيعَ كان على قدمٍ وساقٍ، ووجهُ السيد بركات يشعُّ بالفرحِ والسرورِ، وأحمدُ وطلالٌ في منتهى السّعادةِ كما لو أنّ البضاعةَ بضاعتُهما والمكسبَ مكسبُهما وكلُّ ما يجري يسيرُ حسبَ مصلحتِهما.

وذاتَ يومٍ قال لهما السيد بركات :

ـ إنّني راضٍ عنكما كلَّ الرّضى، لأنّكما تعملانِ معي بإخـلاصٍ شديـدٍ وتبذلانِ جُهدَكما كلّهُ لمساعدتي ، وهذا يجعلُني أساعِدُكما أنا أيضاً وأقدّم لكما كلَّ ما تستحقانِهِ من دعمٍ ومعونة. إنَّ لديكمـا بعضَ المُدَّخـراتِ، وسـأبينُ لكما الآن أحسنَ وسيلةٍ لاستثمـارِها. إنّكمـا تعمـلانِ معي وفي خـدمتي ، ولكن من الآن فصـاعِـداً، سـوف تعمـلانِ أيضـاً لحسـابِكمـا ولمصلحتِكما، وهكذا سنقيمُ فيما بيننا شيئاً شبيهاً بالجمعيةِ التّعاونية. إنّ هذه المنطقةِ مشهورةٌ بدواجِنها الممتازةِ، وسأشتري بمدَّخراتِكما ما لا يقل عن عشرينَ دجاجةً سمينةً من إحدى المزارعِ المجاورةِ. وعندما تبيعانِ هذه الدّجاجَاتِ في السُّوقِ، فـإنّكما ستحصـلانِ على ربحٍ لابـأسَ به. أفـلا يُرضيكما هذا ؟

وردّ طلالٌ بسرعةٍ قائلا :

ـ نَعَمْ بالتأكيد، وإنك والحقُّ يُقالُ في مُنتهى الطِّيبـةِ معنا. وأعِـدُك بأنّني سأبيعُ الدَّجاجاتِ بسعرٍ ملائمٍ جِدّاً.

وقال أحمدُ :

ـ نَعَمْ يا سيد بركات، وإنّنا لن ننسى لك هذا المعروفَ أبـداً. وإنّني في الحقيقةِ أفكرُ وبقلَقٍ بالغٍ في نهايةِ رحلتِنا، حيثُ أنّني أخشى عدَمَ العثورِ على عمِّنا. ولكن الأمرَ قد يهونُ نوعاً ما إذا ما كانت لدينا بعضُ المُدَّخَراتِ التي قد تساعِدُنا على البحثِ والتفتيشِ من جديد.

وقال السيد بركات :

ـ لاينبغي أن تقلقَ هكذا ياولدي، لأنّنا نستطيعُ دائماً بالشَّجاعة والإصرار والعملِ أن نتغلبَ على أشدِّ الصعوباتِ والعقباتِ. ومن جدَّ وجدَ ومن زرعَ حصدَ. وسوف نذهبُ بعد الغَداءِ لشراءِ الدواجنِ من المزرعةِ، وبما أنكما تُحبّـانِ الزراعـةَ، فسوف تـزورانِ مزرعـةً في منتهى التنظيمِ ويعتني بهـا أصحابُها عنايةً ممتازة.

وبعد غَدَاءٍ طيِّبٍ ولذيذٍ، أسرعَ الثلاثةُ وهم في غايةِ البهجةِ والمرحِ إلى المزرعةِ لشراءِ ما اتفقوا عليه. وبينما ذهبتِ الفلاّحةُ الى الحظيرةِ لإحضارِ الدواجنِ، صَحِبَ السيد بركات الـطفلينِ لتفقدِ أنحـاءِ المزرعـةِ، وزاروا الحظائرَ الـواسعةَ، وكـذلك الاسـطبلَ الـذي أعجبهُم وأدهشتهُم نظافتُـهُ الشديدة. وعَلّق على ذلك السيد بركات بقوله :

ـ عندما لاتكونُ الفلاّحةُ محبّةً للنظافة ومهتمةً بعملها وذكيةً، فإنّهـا تفشلُ وتخسرُ حيثما تنجحُ وتغتني خلاصة أخرى أكثرَ نظافةً وعنايةً وذكاءً.

ثم ذهبَ الثلاثةُ بعد ذلكَ لحظيرةِ الدواجنِ، ودهشَ الطفلانِ كثيراً عندما

لاحظا أن حيواناتِ المزرعةِ كلَّها أليفةٌ، وشاهدا الدواجنَ تجري لملاقـاةِ الفلاحة التي قالت لهما وهي تضحك :

ـ ألا تلاحظان شراهة هذه الدواجن ؟ وبرغم ذلكَ فـإنّني أدلّلُها بعضَ الشيءِ حتى تزدادَ أُلفتُها، لأنه يستحيلُ تربيةَ الدَّواجنِ تربيةً حسنةً اذا لم تكن أليفة.

ورمتِ الفلاّحةُ أثناءَ ذلكَ بحفنةٍ من الحبوبِ، وتسارعَ قطيعُ الدَّجاجِ لالتقاطِ الحبوبِ بنهمٍ شديد.

وكان فِناءُ الحظيرةِ نظيفاً والعنايةُ به واضحةً، وقـالتِ الفلاّحـةُ عندمـا لاحظت إعجابَ الطفلينِ وسعادتَهما بذلك :

ـ إننا نكنسُ الحظيرةَ والفِناءَ كلَّ يومٍ بدونِ آستثناء، ونحنُ نعتني بنظافتِهما عنايةً كاملةً، ونقومُ بتنظيفِ الأعشاشِ وخيمة الدجـاج، ونغيرُ المـاءَ في الحوضِ ، ولذلك تتمتع كلُّ هذه الطيورِ بالصّحةِ والعافيةِ، كما أنّها تنمو وتتكاثرُ بآستمرار.

وقامتِ الفلاّحةُ باختيار واحدةٍ وعشرينَ دجاجةً ممتازةً، وطلبت ثمناً مناسباً جِدّاً ومفيداً للطفلين، لأنّها كانت مسرورةً لبيعها عدداً كبيراً من الـدَّجاجِ دُفعةً واحدة.

وهكذا سارَ كلُّ شيءٍ على أحسنِ ما يُرامُ، وبدأ الطفلانِ ينظرانِ لأيامِهما المُقبلَةِ بكثيرٍ من التفاؤلِ والأمل.

الكمارِكُ والضرائبُ والمجلسُ البلدي



"الطرقُ وينابيعُ المياهِ والاضاءةُ كلُّها مرافقُ يستفيدُ منها جميعُ الناسِ، فمِنَ العدلِ إذاً أن يدفعَ كلُّ فردٍ مبلغاً من المالِ مقابلَ ذلك"

استمرَّ المسافرونَ الثلاثةُ في رحلتِهم، وفي اليومِ القابلِ لشراءِ الدَّجاجِ، آضطرُّوا للتوقفِ على بابِ أحدِ كمارِكِ الحدودِ لدفعِ الضرائبِ على ما لديهم من بضائعَ منقولةٍ. وقال السيد بركات لأحمد :

ـ إذهبْ بنفسِكَ لمكتبِ الكمركِ، وآدفعْ للموظفِ المسؤولِ الرسومَ اللازمةَ عن الدَّجاجِ.

وأخَذَ أحمدُ ما تبقّى لديهِ من نُقودٍ، ودفعَ ما ينبغي عليه دفعُهُ، وكذلك

دفعَ السيدِ بركات الرسومَ اللازمةَ عن بضاعتِهِ، وعندما انتَهـوا من جميعِ الاجراءاتِ الكمركيةِ واصلوا سيرَهم من جديدٍ بِجدٍّ ونشاط.

وكان طلالٌ قد رأى عِدّةَ مرّاتٍ السيدَ بركات يدفعُ الرسومَ عن بضاعتِه، ولم يكن يُعيرُ ذلك أيّ اهتمامٍ، إلاّ أنّه اهتمَّ في هذه المرةِ، لأنَّ ما دفعهُ أحمدُ من رسومٍ كانت جزءاً مما تبقّى لهما من مُدّخراتٍ قليلة. وفكّرَ الصّغيرُ وقال:

ـ يالَهُ من أمرٍ عجيب! لمذا يدفعُ التُّجارُ الفقراءُ كلَّ تلكَ الرسومَ، مع أنّهم يُعانونَ من مشاقِّ الحياةِ الشيءَ الكبير؟ إنَّ هذا الأمرَ مزعجٌ حقًّا.

فقال السيد بركات:

ـ على مهلِك ياطلال، فإنّك لم تفكّرْ جيداً في الموضوعِ، ألا تتصورُ حالةَ هؤلاءِ التجارِ الفقراءِ الذين تتحدّثُ عنهم، لـو لم تكن هناك طرقٌ معبّدة، حسنةُ الصِّيانةِ، تجري عليها أحصنةٌ تجرُّ عرباتٍ قد تبلغُ حمولتُها ألفَ كيلو غرامٍ أحياناً؟ وكيف كانت ستكونُ الحالةُ لو لم تكنْ هذه الطرقُ محروسةً جيداً، وكانَ اللصوصُ وُقطّاعُ الطرق يهاجمونَ العرباتِ وينهبونَ البِضاعةَ؟ ماذا كنتَ تقولُ حينئذٍ؟ إنَّ الدهشةَ تبدو عليك ياولدي، ومع هذا فالأمرُ جِدُّ بسيط: ألا تحتاجُ إنارةُ الطرقِ وبناءُ المدارسِ التي يتعلمُ فيها الأطفالُ الى أموال؟ ورجالُ الشرطةِ والمسؤولونَ عن صيانةِ الـطرق، ألا يجبُ دفعُ مرتباتِهم كلَّ شهر؟ تلك الأموالُ تأتي من الرسومِ التي ندفعُها ومن مختلفِ الضّرائبِ الأخرى. وأعتقدُ أنَّ هذا النظامَ في مُنتهى الحكمة.

وقال طلالٌ:

ـ إنّني لم أفكّر أبداً في مثلِ هذهِ الأمور. ولكن كيف نتأكدُ من أنَّ الأموالَ

التي ندفعُها تستخدَمُ في الأشياءِ التي تحدّثتَ عنها ؟

فقال السيد بركات :

ـ ألم تسمع قطُّ عن المجلسِ البلدي ؟

فردَّ طلالٌ قائلا :

ـ بالطبعِ سمعتُ عنه، ولكنّني لا أعرفُ عنه شيئاً.

فقال السيد بركات :

ـ إذاً اسمعْ جيداً، فسأشرحُ لك مُهِمّةَ المجلسِ البلدي وماذا يقومُ به من أعمال. في كلِّ قريةٍ وفي كلِّ مدينةٍ، يختارُ السُّكـانُ من بينِهم مجموعـةً صغيرةً قادرةً على خدمةِ المصلحةِ العامة. وتتكلّفُ هذه المجموعةُ بإدارةِ شؤونِ القريةِ أو المدينةِ نيابةً عن مجموعِ السُّكانِ، لمدةٍ قد تزيدُ عن أربعِ سنوات. وهؤلاءِ هم أعضاءُ المجلسِ البلدي، وهم الذين يقرّرونَ ما يجبُ القيامُ به مِن أعمالٍ نافعةٍ مثلِ وضعِ حنفياتِ الماءِ، وإقامـةِ الحمامـاتِ العموميةِ وتوصيلِ الكهرباء. . . وهم يراقبونَ كلَّ نفقاتِ وايراداتِ القريةِ أو المدينةِ، ولا يُصرفُ أيُّ مبلغٍ من المالِ بدون معرفتِهم. فهل سمعت ما قلتُهُ يا طلالُ وهل فهمتَه جَيِّداً ؟





النزاهـــة

"النزاهةُ من أنبلِ الصّفاتِ الحميدةِ في الإنسان"

وفي الغدِ، لاحظَ السيد بركات بعدَ جولةٍ سريعةٍ في سوقِ المدينةِ التي كانوا قد وصلوا إليها في الصّباحِ الباكرِ، أنه لايُوجدُ سوى قليلٍ جِدّاً من الدَّجاجِ. فاستدعى الطفلينِ وقال لهما :

- يبدو أنَّ الجميعَ منهمكٌ في الحصادِ، ولذلك لم تتمكنِ الفلاّحاتُ من المجيءِ للسوقِ لبيعِ دجاجِهن. وتلاحظانِ بأنَّ سعرَ الدجاجِ مرتفعٌ آرتفاعاً كبيراً لندْرتِهِ في السُّوقِ، فلاتتساهلا إذاً في البيعِ، ولا تقبلا بأقلَّ مِن نسبةِ عشرينَ في المائةِ من ثمنِ الدجاجةِ كمكسبٍ، وسيظَلُّ سعرُ دجاجِكما برغمِ ذلك مُناسباً.

استمعَ الطفلانِ لنصيحةِ السيد بركات ونفّذاها حرفياً، ولم يهتزّا ولم يتنازلا قط عن السعرِ الذي كانا يطلبانِه. وبعد أخذٍ وردّ، ولجاجٍ طويل، وتعبٍ شديدٍ، تم بيعُ الدجاجِ كلِّه. وكان طلالٌ يرافقُ الزبائنَ إلى منازِلهم وهو يحملُ على كتفيهِ ما اشتروه من دجاج. وعندما تمَّ بيعُ الدجاجةِ الأخيرةِ، كان قد بلغَ به الإرهاقُ حدّاً كبيراً جعله لايستطيعُ الحركةَ، إلاّ أنه برغمِ ذلك كان في منتهى الغِبطةِ والانشراحِ لمساهمتِهِ هو الآخرُ بما بذلهُ من عنايةٍ وجهدٍ وكدٍ وتعبٍ في كسبِ بعضِ المالِ، وقد كانت سعادتُهُ عظيمةً، لأن ذلك كان أولَ مالٍ يكسبه في حياتِهِ. وقد أعادت اليهِ هذه الفكرةُ شجاعَتَهُ وإصرارَهُ، وساعدتْهُ على مقاومةِ التّعبِ والارهاقِ، فنهضَ واقفاً وحملَ الدجاجةَ على كتفِهِ، ورافق الزبونةَ حتّى بيتِها، وسلّمها دجاجتَها، وتسلّمَ النقودَ ثم استدار عائداً إلى السُّوق وهو يجرُّ رجليه بصعوبةٍ شديدة.

وبعد أن قطعَ ثلثي الطريقِ، تذكر طلالٌ أنه لم يعُدَّ النقودَ عندما تسلَّمهَا من المشتريةِ، فتوقف لحظةً ودقّق حسابَه، فوجدَ المبلغ زائداً، وأدركَ بأنَّ السيدةَ قد أخطأتْ في الحساب، وقال في نفسه:

ـ لقد كان السيد بركات على حقٍّ عندما أوصاني بعدِّ النقودِ فور تسلُّمِها، ولو أنّني وجدتُ المبلغَ ناقصاً لكان من الصّعبِ عليّ مطالبةُ المشتريةِ بالباقي لأنّها كانت تعتقِدُ حينئذٍ بأنّني أنا الذي ضيّعتُهُ، ولحسنِ حظّي أنَّ المبلغَ زائدٌ، وعليّ الآنَ ردُّ الفرقِ لصاحبته.

وزفر طلالٌ زفرةً طويلةً لِما كان يشعرُ به من تعبٍ وإرهاقٍ ولاضطرارِهِ برغمِ ذلكَ للعودةِ إلى منزلِ المشتريةِ، وقال في نفسه:

ـ عليّ ألاّ أباليَ بالتعبِ، لأن استغلالَ خطأ الزبونةِ في الحسابِ والاحتفاظَ بالمبلغِ الزائدِ سيكونُ سرقةً. وعليّ أن أتحمّلَ بصبرٍ وشجاعةٍ المشيَ مسافةً أخرى، لأنّني أقبل أيَّ شيءٍ ماعدا أن أسرُقَ ولو أقلَّ القليلِ من المال.

وبدونِ ترددٍ ارتدَّ على عَقِبِهِ وتوجّهَ من جديدٍ إلى بيتِ الزبُونة.

وصل طلالُ المنزلَ ودقّ بابَهُ، وعندما فتحتْ له صاحبتُه قدَّم لها المبلغَ الزائدَ وقال لها وهو يلهثُ ويتنفسُ بصعوبةٍ :

ـ لقد حصلَ خطأٌ في الحسابِ ياسيدتي، وأعطيتني هذا المبلغَ زائداً على ثمنِ الدَّجاجة.

نظرتِ المرأةُ للطِّفلِ النزيهِ الذي كان يبتسِمُ في وجهِها بوداعةٍ ولطفٍ برغمِ تعبِهِ الشديدِ، ودعتهُ للدُّخولِ للاستراحةِ قليلاً، وأخذت تستفسِرُهُ عن سنِّهِ وعن بلدِهِ وعائلتِهِ، وطلال يردّ عليها بمنتهى الرِّقةِ واللَّباقَة. تأثرت المرأةُ كثيراً عندما عَرفَتْ بأن طلالاً يتيمٌ، ففتحت دولابَ ملابِسِها، وأخذت منه كتاباً قدمتْهُ إليه وهي تقول له :

ـ خذ ياولدي هذا الكتابَ، إنّه يتحدث عن وطنِكَ الذي تُحِبُّهُ كثيراً، وعن الرجالِ العظامِ الذين أنجبهم هذا الوطن. اقرأه ودقّقْ فيه، إن أسلوبَهُ سهلٌ وستفهمُهُ جيداً، وستجدُ فيه قِصصاً وحكاياتٍ وصُوراً ستفيدُكَ وتجعلُكَ تتمنّى أن تكونَ أنت أيضاً يوماً ما نافعاً ومفيداً لوطنك.

لمعت عينا طلالٍ من الفرح، وشكر المرأة الطِّيبةَ شكراً جزيلاً، وانطلقَ راجعاً إلى السُّوقِ والكتابُ تحتَ إبطهِ، وبيدِهِ عنقودٌ من العِنَبِ الممتازِ أعطتهُ السيدة إيّاهُ ليتسلّى بأكل حبّاتِهِ أثناءَ الطريق.

وفي المَسَاءِ، أحصى الأخَوانِ ما لديهما من نقودٍ، ووجدا بأنّهما كسبا من

بيع الدجاجِ مبلغاً لا بأسَ به من المالِ. ولم يعرفِ اليتيمانِ كيف يشكرانِ السيد بركات على ماقدّمه لهما من نصائحَ نافعةٍ، وتعبيراً عن اعترافهما بالجميلِ، عرض عليه أحمدُ ان يظلّ هو وطلالُ في خدمتِهِ أطولَ مُدّةٍ ممكنةٍ اذا كان يزالُ فيه حاجةٌ إليهما.

وذاتَ يوم قال السيّد بركات لأحمدَ:

- يا أحمد، هذه حُزمةٌ ضخمةٌ من البِضاعةِ، وقد بعتُها البارحةَ لأحدِ الزّبائنِ، وهي ثقيلةٌ جدّاً على طلال، فاحملها على ظهرك واذهبْ بها إلى متجرِ صاحبِها، وضعْ هذه (الفاتورة) في جيبِك وحافظْ عليها جيّداً لأنّها تُساوى قيمةَ البضاعةِ تماماً، وهي تلزم الزبونَ بدفعِ المبلغِ نقداً في المرةِ القادمة.

حمل أحمدُ الحزمةَ على ظهرِهِ، وسار بها حتّى وصلَ مُنهكَ القُوى الى متجرِ صاحبِها في ضاحية نائيةٍ من ضواحي المدينة. ولم يجد أحمدُ صاحبَ المَحلِّ، ولكنّهُ وجد أحدَ صبيانِه الذي أخبَرهُ بأن الفلوسَ معه وأنه يدفعُ نقداً وفوراً قيمةَ البِضاعة.

أخذَ أحمدُ الفلوسَ وأحصاها ثم قال:

- ما دامَ التاجر قد دفعَ فوراً، فإنّني سوف أنقّص من ثمنِ البضاعةِ الموجودِ على الفاتورةِ كما طلب مني السيد بركات. وها هو المبلغُ الزائدُ، فأرجوكَ تسليمَهُ لصاحبِهِ.

أخذ صبيُّ التّاجرِ الفاتورةَ والمبلغَ الزائدَ، ونظرَ لأحمدَ وقال ببطءٍ ومكرٍ شديد:

- بالطبع، بالطبع، ولكنّهُ في الحقيقة مبلغٌ زهيدٌ لايُجدي صاحبَ المتجر

نفعاً ولا يغنيهِ من جوع ، ولذلك أرى من الأحسنِ أن نقتسِمَه، فتضعَ أنت في جيبِكَ النصفَ، وأضعَ أنا في جيبي النصفَ الآخرَ، فما رأيُك ؟

ثم أخذَ يضحكُ وعلت وجهَهُ ابتسامةٌ قبيحةٌ، وأخذَ يلعبُ بقطعِ النقدِ وينظرُ خِلسة لأحمدَ في انتظارِ ما سيقولُه.

وكان أحمدُ نزيهاً جِدّاً، فلم يحملْ كلامَ الصَّبي على محملِ الجِدِّ، وبرغمِ ذلكَ آحمرّ وجهُهُ احمراراً شديداً لأنّه لم يتعودْ على مثلِ تلكَ الألاعيبِ، وعلى سَماعِ مثلِ ذلكَ الكلامِ، وفضّلَ عدَم التعليقِ على ما سمِعَهُ مجاملةً، وتناولَ القلمَ لإلغاء (الفاتورة). ولكنَّ صبيَّ المتجرِ تصوّر أن آحمرارَ وجهِ أحمدَ إنما ناتجٌ عن خَجَلِهِ، وأن سكوتَه ناتجٌ عن حَيرتِهِ وترددِهِ، ولذلك تابعَ كلامَهُ محاولاً إقناعه :

ـ إننا ـ ويالِلأسف الشديد ـ نعيشُ أياماً لا نستطيعُ فيها كسبَ ما نحتاجُ إليه من مال، فأصحابَ العملِ ينهكوننا بالأعمالِ المرهقةِ المضنيةِ، وهم لايدفعونَ سوى أجورٍ تافهةٍ، بينما تزدادُ أرباحُهم وتكثر أموالُهم. ولكننا لحسنِ الحظِ أذكياءُ، ونستطيعُ بقليلٍ من الذكاءِ ان نعالجَ هذا الموضوع . . .

ثم أضافَ بصوتٍ منخفضٍ وهو يُعطي لأحمدَ نصفَ المبلغِ الزائد :

ـ خُذْ، هذا نصيبُك، ولن يعرفَ أيُّ شخصٍ ما حدَث.

وفي هذه المرَّة، شعَر أحمدُ بالإهانة، وبالغضبِ الشديدِ يجتاحُهُ، ولم يستطعْ كبحَ جماحِ نفسِهِ، وصاحَ في وجهِ صبيِّ المتجرِ قائلاً :

ـ ويحك أيها الشَّقيُّ، ألا تزالُ تظنُّ أنّني أستطيعُ مثلَك سرقةَ الآخرين ؟

وبسرعةٍ سحب أحمدُ (الفاتورَة) التي كان قد ألغاها من بينِ أصابعِ

الصَّبي ، وتناولَ القلمَ بيدٍ مرتعشةٍ من شدةِ الغضبِ ، وكتب بخطٍ عريضٍ واضحٍ ما يدلُّ على أنه أنقصَ من ثمنِ البضاعةِ ، وأنه لم يتسلَّم كلَّ المبلغِ المُسَجَّلِ في (الفاتورةِ) ، وأنه تركَ الباقيَ لدى صبيِّ التاجرِ . ثم وضعَ القلمَ (والفاتورة) على الطاولةِ وقال :

ـ والآنَ ستُضطَرُّ برغم أنفِك لإعطاءِ صاحبِ المحلِّ ما له من نقود .

وأدارَ ظهرَهُ باحتقارٍ شديد ، وانطلقَ راجعاً من حيثُ أتى .





"عند الخطر لابدَّ من رباطةِ
الجأشِ وهدوءِ الأعصاب"

سهرةُ المَسَاء

واصل الأصدقاءُ الثلاثةُ رحلتَهم حتّى وصلوا قريةً على سفحِ أحدِ الجبالِ، ونزلوا منزلَ زارعٍ من أصدقاءِ السيد بركات. ولم يسترحْ هذا الأخيرُ سوى لحظاتٍ، ثم انطلقَ من جديدٍ للقيامِ بجولةٍ في المِنطقةِ لشراءِ شيء من المنتجاتِ الزِّراعية.

أما أحمدُ وطلالٌ، فقد بقيا في المنزِلِ، وقضيا سهرةَ المَساءِ معَ أُسرةِ الزارع. وكانت سهرةً هادئةً مريحةً، اجتمعتْ فيها النِّساءُ حول مصباحِ الغازِ وانشغلنَ بالنسيجِ، وجلسَ الرِّجال بالقربِ من الموقدِ للحصولِ على الدفءِ وللاستراحةِ من تعبِ النهارِ، بينما أخذتِ الخادمةُ تُعِدُّ الحَسَاءَ

للجميع. وفي ركنٍ من أركانِ الحجرةِ، كان طفلٌ صغيرٌ في سنِّ طلالٍ يجلسُ القُرفُصاءَ على الأرضِ، ويقومُ بجدْلِ سللِ الخيزرانِ بهمةٍ ونشاط.

اقترب طلالٌ من الطِّفلِ وجلسَ إلى جانبِهِ وبيدِهِ كتابُهُ الثمينُ الحافلُ بالصُّورِ والحكايات. وعدّل صانعُ السِّلال الصغيرِ من جلستِهِ ليواجهَ طلالاً، ونظرَ إليهِ بعينينِ واسعتينِ مليئتينِ بالوجَلِ والحَيْرَةِ، وعاد لمواصلةِ عملِهِ في صمتٍ وسكونٍ بدونِ أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة.

ولم يُعجِبْ ذلك طلالاً، وحاول بسرعةٍ كسرَ حاجزِ الصّمتِ الذي بينَهما، فقال وهو يبتسِمُ :

- ما اسمكَ ؟ أنا اسمي طلال، وأبلُغُ من العُمرِ ثمانيَ سنين.

وردّ عليه الطفلُ بخَجَلٍ :

- اسمي جمال، وأبلُغُ من العمرِ ثمانيَ سنينَ أيضاً.

وقال طلال وهو يُريهِ الكتابَ ويفتحُه تُجاهَهُ :

- في هذا الكتابِ صُوَرٌ جميلةٌ، هل تَرغبُ في رؤيتِها ؟

أجابه جمال قائلاً وهو يتنهدُ بحسرة :

- لا أستطيعُ ذلكَ، لأنهُ لا وقتَ عندي وعندي عملٌ كثيرٌ، كما أنّ اليومَ ليس يومَ عُطلة.

وقال طلالٌ بلطفٍ ومودّة :

- ألاحظُ أنّ ما تعملُهُ ليس صعباً، واذا ساعدتُكَ فإنكَ تستطيعُ الانتهاءَ بسرعةٍ من عملكَ.

فقال جمال :

ـ إنّني لا أنتهي من عملي إلاّ بآنتهاءِ النّهارِ، كما أنّني أسعى لصنعِ أكبرِ عددٍ من السلالِ لاسترضاءِ أصحابِ المنزل.

وقال طلال مستغرباً :

ـ أصحابُ المنزل ؟ ألستَ فرداً من هذهِ الأسرة ؟

فأجابه جمالٌ بحزنٍ قائلاً :

ـ لا ، لستُ من أفرادِ هذه الأسرةِ، وأنا يتيمٌ وقد جئتُ إلى هذا المنزلِ من ملجأ الأيتامِ منذُ يومينِ فقط.

اكفهرَّ وجهُ طلالٍ وقال :

ـ وأنا يتيم أيضاً.

فهزّ جمال رأسه وقال :

ـ إنّ أخاكَ الكبيرَ يرعاكَ ويهتمُّ بكَ، أما أنا فليسَ لي أحدٌ في هذه الدُّنيا.

وبدت على وجهِ طلالٍ الدّهشةُ وكأنّهُ لا يصدِّقُ ذلك، وآستفسر قائلاً :

ـ لاأحدٌ يرعاك ؟

وقال جمالٌ :

ـ نَعَمْ، لا أحد على الإطلاق.

وسكتَ الطفلانِ، وأخذَ ينظرُ كلُّ منهما إلى الآخرِ في صمتٍ. وكان أحمدُ في هذه الأثناءِ يقفُ قريباً منهما، يراقِبُهما ويسمعُ كلامَهما، وقد آلمتهُ كثيراً تعاسةُ جمال، وأوجع قلبَه وجهَه الحزينَ، وأدركَ حينئذٍ بأن أخاهُ الغاليَ طلالاً سعيدُ الحظِ فعلاً لتمتعهِ بأخٍ أكبرَ يحبُّه ويهتمُّ بهِ ويرعاه.

وقطع طلالٌ مرةً أخرى الصّمتَ الذي خيّمَ عليه وعلى جمالٍ وقال :

ـ هل تُحِبُّ القِصصَ والحكايات ؟

وردّ جمال وهو ينظُر بحسرةٍ الى كتاب طلال ٍ وقال :

ـ بالطبع ، وتلك هي تسليتي الوحيدةُ في بالعَـالَم ، إلاّ أنّني ـ ويالـلأسف الشديد ـ لا أستطيعُ الآنَ قراءَة أيِّ شيءٍ لعدمِ وجودِ الوقت .

فقال طلالٌ :

ـ إذاً ـ هذا ما سوف نفعلُهُ : سأقرأُ لك من كتابي هذا بضعَ حكاياتٍ بصوتٍ منخفضٍ حتى لا نُزعجَ أحداً . وسوف نتسلّى نحن الاثنين ونستمتعُ بذلكَ كثيراً . . . وفي الوقت نفسهِ لن تُضيعَ أنتَ منْ وقتِك شيئاً .

وعندئذٍ أشرقَ وجهُ جمالٍ وعلتهُ آبتسامةٌ جميلةٌ وهزَّ رأسهُ علامةَ الموافقةِ عِدَّةَ مرّات . وفتح طلالٌ كتابهُ وقال بفرحٍ وآغتباط :

ـ ليستْ هناك خُرافاتٌ في هذا الكتابِ ، وإنما قِصصٌ وحكاياتٌ حقيقيـةٌ تتحدّثُ عنْ حياةِ أشهرِ الرِّجال وأعظمِهم في وطنِنا .

وبدأ طلالٌ يقرأُ بصوتٍ خفيض . . .

وعندما رجعَ السيد بركات من جولتِهِ ، جلسَ الجميعُ على مائدةِ العَشاءِ ، وأثار وجودُ جمالٍ اهتمامَ السيد بركات ، فاستفسرَ من صديقِهِ الزَّارع وقال :

ـ إنّني لا أعرِفُ هذا الطّفلَ ، فأينَ عثرتَ عليـه ؟ ويبدو أنّـه ذكيٌّ ، أليس كذلك ؟

وقال الزَّارعُ :

ـ نَعَمْ إنّه ذكيٌّ ، ويساعِدُني كثيراً لو بقي هنا معنا . وقد كانت بي حاجةٌ لطفلٍ في مثلِ سنِهِ لحراسةِ الماشيةِ ، فذهبتُ الى ملجأ الأيتامِ وأتيتُ به من هُناكَ ، لأنَّ المسؤولينَ في الملجأ يُفضلونَ إلحاقَ الأطفـالِ اليتامى بـالمزارعِ ، وتسليمهم لزارعين منَ ذوي الشهامةِ والأخلاقِ الحسنة . وكما ترى ، فإنهُ

لايزالُ في منتهى الحياءِ والخجلِ ، وهو لا يُثير أيةَ ضجةٍ أو صخب، حتّى أننا ننسى أنّهُ موجودٌ معنا في كثيرٍ من الأحيان. وهذا في الواقعِ لايُزعجني، لأنّ أحوالَهُ سوف تتحسنُ بمرورِ الأيام.

وقال السيد بركات :

- بالطبعِ ، خاصةً وأنكَ من أفضلِ النّاسِ وأطيبِهم، ولأنّكَ تُحِبُّ الأطفالَ وترعاهم.

وبعد العَشاءِ مباشرةً، ذهبَ الجميعُ إلى الفراشِ في وقتٍ مبكـرٍ طلَباً للرّاحةِ واستعداداً للعملِ الشّاقِّ في اليومِ المقبل. وقد نام أحمدُ وطلالٌ في غرفةٍ صغيرةٍ بالدورِ الأرضي، ونام جمالٌ في غرفةٍ ضيقةٍ بأعلى المنزلِ، أما السيد بركات فقد نام على فراش وثير في غرفة بالدور الأول.

وقبلَ النوم، قال السيد بركات للطفلين :

- كونا على استعدادٍ للرّحيلِ منذُ الآن، لأنّنا سنغادرُ المنزل في الصَّبـاح الباكرِ. وقد حمَّلْتُ العربةَ بالبضاعةِ، ولم يبقَ سـوى ربطِ الحصانِ بهـا، وسأرتِّبُ حقيبتي وأقفلُها قبلَ أن أنام.

ولم يتأخرِ الأخَوَانِ في تنفيذِ نصيحةِ السيد بركات، وقاما هما بإعـداد صُرّتيهما وربطهما برطاً محكماً قبل أن يذهبا للفراش. وكانَ الجميعُ قد نام منذُ وقتٍ طويل عندما استيقظَ أحمدُ من النوم فَجْأةً، وهـو متضايِقٌ جـداً ويشعرُ بالاختناقِ، وقد بلغَ بهِ الاضطرابُ حدّاً جعلهُ لايُدرِكُ بسهـولةٍ مـا يجري حَولَهُ. وبدونِ تفكيرٍ، قفزَ من سريرِهِ وفتحَ النافذةَ لاستنشاقِ بعض الهواءِ النقي، فاندفعتْ رياحٌ باردةٌ الى داخلِ الغرفةِ، ومن شدة اندفاعها وقوّتِها فتحتِ البابَ الذي لم يكن مُغلقاً بشكلٍ جيد. وحينئذٍ، دخلَ دخانٌ

كثيفٌ ملأ الغرفةَ، وسمِعَ أحمدُ أزيز نارٍ توشِكُ أن تشتعلَ، فانتابهُ فَزَعٌ شديدٌ، وجرى مُسرِعاً لايقاظِ طلال، وهزّهُ بعنفٍ وهو يصيح :

- اصح يا طلالُ، إصحَ، فقد اشتعلتِ النّارُ في المزرعةِ.

قفز طلالُ بسرعةٍ من السريرِ وهو لايزال يغالِبُ النّومَ، ولم يترك له أحمدُ الفرصةَ للسؤالِ والاستفسارِ، بل وضع ملابسَهما على ذراعِهِ، والتقطَ صُرّتيهما الجاهزتينِ، ثم جرّ أخاهُ من يدِهِ منطلقاً به بسرعةٍ خلال الدُّخانِ.

وأيقظ أحمدُ أولا السيد بركات، ثم أيقظ الآخرينَ بعدَ ذلك. وعندما استيقظَ الجميعُ، قال السيد بركات لأحمد :

- إجرِ بسرعةٍ للاصطبلِ، واربطِ الحصانَ بالعربةِ، ثم انطلقْ بها بعيداً عن الخطر. وسأذهبُ أنا لمساعدةِ الزارعَ على مقاومةِ النيرانِ.

جرى أحمدُ بسرعةٍ إلى الاصطبلِ وهو يجرُّ معه طلالاً الذي لم يكنْ قد تركَ يدَهُ لحظةً واحدةً، ووجد أن تطايرَ الشرارِ قد أشعلَ النّارَ في التبنِ الطويلِ الموضوعِ على السقفِ، كما اشتعلتِ النيرانُ في الأجزاءِ العُليا من الاصطبلِ حيث يوجدُ مخزنُ العلفِ.

ولاحظ أحمدُ أن أسنان طلال تصطكُ وأنّ جسمه كلّهُ يرتعشُ من البردِ القارصِ، فطلبَ منه أن يلبسَ ملابِسَهُ، ولبس هو الآخر بنطلونَهُ بسرعةٍ، ورمى الصُّرتينِ وبقيةِ ملابسهِ في جوفِ العربة.

ولم تمرَّ سوى لحظةٍ واحدةٍ حتى امتلأتِ ساحةُ الاصطبلِ بسكانِ المزرعةِ، وكانوا في حالةِ رعبٍ شديدٍ لايمكن وصفُها، وارتفعتْ صيحاتُهم اليائسةُ مختلطةً بخُوارِ البقرِ الذي كانوا يحاولون إخراجهُ من الحظيرةِ، وبُثغاءِ الغنمِ التي كانت في حالةِ هرجٍ ومرجٍ وترفضُ الخروجَ إلى الهواءِ

الطلق.

وفي وَسَطِ هذه الفَوضى الشاملةِ، وبرغم الدُّخانِ الكثيفِ الذي كان يُعمي البَصرَ ويحولُ دون الرؤيةِ، استطاعَ أحمدُ أن يضعَ طلالاً داخلَ العربةِ ويربطَ الحصانَ بها، ثم يقودَه بعزيمةٍ وإرادةٍ قويةٍ في الطريقِ الذي أنارتهُ أضواءُ الحريقِ الحمراء. وعندما أصبحت العربةُ بعيدةً عن الخطرِ، أوثقَ أحمدُ الحصانَ بإحدى الأشجارِ وقال لطلالٍ :

ـ حاولْ أن تسترجعَ هدوءَك ورباطةَ جأشِك حتّى تكونَ نافعاً ومفيداً، وانتبهْ لما سأقولُه لك جيّداً : عليك بالبحثِ عن حجارةٍ لاسنادِ عجلاتِ العربةِ، وسأجري أنا لمساعدةِ رجالِ المزرعةِ للتغلبِ على المصيبةِ التي حلّت بهمْ، وعندما تنتهي مما طلبتُه منكَ، عليك بالالتحاق بي بسرعة.

وردّ طلالٌ قائلاً بصوتٍ حاولَ أن يجعلَه ثابتاً وقوياً :

ـ اذهبْ يا أحمد وكن مطمئناً. . .

وقفز طلالٌ من العربةِ للبحثِ عن الحجارةِ، بينما انطلقَ أحمدُ راجعاً بسرعة إلى المنزلِ الملتهبِ بالنِّيران.





الحريق

"يجب على الانسانِ أن يساعد أخاه الانســانَ في وقتِ المحنــةِ لأن الجميعَ إخوة"

بلغ الحريقُ حدًّا مفزعًا للغايةِ، وأخذَ اللَّهبُ ينتشرُ باتجاهِ هبوبِ الريح. وكانت أسقفُ الأكواخِ المصنوعةِ من التبنِ إمَّا تتهاوى وتنهارُ، وإما تتدحرجُ كالقذائفِ المشتعلة. ولم يعُدْ هناك أحدٌ يفكر في إمكانية إطفاءِ الحريقِ، لأنَّ القَرية لم تكُنْ بها مطافىءُ ولأن النيرانَ آنتشرت بشكلٍ مخيف، ولذلك اكتفى الجميعُ بإنقاذِ مايمكنُ إنقاذُهُ من الماشيةِ أولاً ثم من المحاصيلِ الزراعية ثانياً. وكان الكلُّ يعملُ بحميةٍ منقطعةِ النظيرِ برغم الخطرِ المحدِقِ من جميعِ آلجهات.

أمَّا الزَّارعُ المسكينُ الذي لم يكن قد أمِنَ على منزلِهِ ومزرعتِهِ برغمِ

نصائحِ العديدِ من أصدقائِه، فقد كان يجري كالمجنونِ من مكانٍ إلى اخر، وهو يُشاهدُ النيرانَ تأكلُ محصولَ ثلاثينَ عاماً من الجُهدِ المتواصل.

وفي هذه الأثناءِ، كان آلصَّغيرُ طلالٌ قد آسترجع تماماً هدوءَه وثباتَ جأشِهِ، فقامَ بما أمرهُ به أحمدُ، ثم آنطلق مسرعاً لمساعدة الآخرين. وأول ما فكَّر فيه عندما وصلَ إلى المنزلِ، هو البحثُ عن جمالٍ وسَطَ مجموعةِ الناسِ التي كانت تقاوِمُ الحريقَ، ولكنَّه لم يعثرْ عليه، وحينئذ ملأ الخوفُ قلبَه وقال في نفسِه :

ـ لاشك في أن جمالاً لايزالُ نائماً في غرفتِهِ الصغيرةِ.

وجَرى طلالٌ بكلِّ قوتِهِ وحاولَ الدخولَ في المنزلِ ولكنَّهُ ـ وياللأسف ـ لم يستطعْ ذلكَ لأن السُّلم المؤديَ للغرفة الصغيرةِ كان قد آنهار، ولهيبُ النارِ عظيمٌ أمامَ البابِ. ورجع طلالٌ إلى فِناءِ المنزِل، وتطلَّعَ إلى نافذةِ الغرفةِ الصغيرةِ، وقال في نفسِهِ عندما وجدَها مسدودةً تماماً :

ـ من المؤكد أن جمالاً لايزالُ غارقاً في نومِهِ غيرَ شاعرٍ بالخطرِ المُحدِق به.

وتناولَ طلالٌ من الأرضِ حجراً مستديراً متوسطَ الحجمِ، وسدَّدَهُ بمهارةٍ وبمنتهى القُوةِ إلى النافذةِ الصغيرةِ التي كان مِصراعُها ينفتحُ إلى الداخلِ، ومزلاجُها ضعيفاً بالياً فلم يتحمّل ضربَةَ الحجرِ. وانفتحَ بابُ النافذةِ مُحدِثاً ضجيجاً عالياً، وارتفع عندئذٍ صوتُ طلالٍ يهتفُ ويقول :

ـ جمال، جمال. . . .

وبعدَ لحظاتٍ، ظهرَ رأسُ جمالٍ من النافذةِ التي أضاءها لهيبُ النيرانِ، وأخذَ المسكينُ يستغيثُ وقد آصفرّ وجهُهُ وبدَا عليه الذُّعرُ الشديدُ وامتلأتْ عيناهُ بالدُّموعِ.

وعندئذٍ جرى أحمدُ بسرعةٍ واختفى خلفَ المنزلِ، ثم عاد يجر سلّمًا وضعه على الحائطِ أسفلَ النافذةِ، إلا أنه ـ وياللأسف ـ لم يصل إليها، وظلَّ بعيداً عنها مساحةَ مترين. وعندما رأى ذلك السيد بركات، قال لأحمدَ:

ـ لا يهمُّ، سأرتقي السُّلم لآخرِهِ، وبما أنّني ضخمٌ وطويلٌ، فإن جمالاً سيستطيع النزولَ على كتفي، وعليك أنتَ أن تُمسِكَ السلّم جيداً.

وبدأ السيد بركات على صعودِ السُّلم العتيقِ، ولم تتحملْ إحدى درجاتِهِ المسوسةِ وزنَه الثقيلَ، فانكسرتْ تحتَ رجليه وسَقطَ الرجلُ الطيِّبُ متدحرجاً على الأرض. وقام السيد بركات من سقطتِهِ وهو يقولُ يائساً:

ـ من المستحيل الوصولُ الى هذه النافذة.

وكرّر بعض الموجودين قوله بحسرةٍ وألم، في حين أدار البعضُ الآخرُ رؤوسَهم حتى لا يَروا انهيارَ سقفِ المنزلِ على الطّفل التعيس.

ولم ينطقِ أحمدُ بكلمةٍ واحدة، ولكنه التقطَ بسرعةٍ سوطاً كبيراً كان مرميًا على الأرضِ بسبب الفوضى الضاربةِ أطنابَها، وأخذ سكينةً، وفصلَ به مقبضَ السوط عن جلدتِهِ الطويلةِ، ثم ضمَّ المقبضَ الصُلبَ المتينَ لأعلى درجةٍ في السلّم وربطهما بالجلدةِ ربطاً محكماً. وبعد أن تأكد من متانةِ الدرجة وقوّة تحمّلها، وضعَ السُّلَم على الحائط مرةً أخرى وقال للسيد بركات:

ـ جاء دورك الآن لإمساك السُّلّم، إنّني أخفُّ منك وزناً بكثيرٍ كما أنَّ الدرجةَ العُليا قويةٌ ومتينةٌ ولا خوفُ منها على الإطلاق.

وبدأ أحمدُ يصعُد على درجات السلم ببطءٍ إلى أن وصلَ الدرجةَ العُليا، واستدارَ بهدوءٍ شديدٍ وأسنَدَ ظهرَهُ إلى الحائطِ، وعندما تأكّد تماماً من ثباتِ

وضعهِ وتوازنهِ رفعَ ذراعيهِ إلى النافذةِ الصغيرةَ وقال لجمال بصوتٍ هادىءٍ يُوحي بالثقةِ وبرودةِ الأعصابِ :

ـ أمسك بذراعيّ وآستعنْ بِهما على النزولِ على كتفي ، وكنْ شُجاعاً .

جلس جمال على حافةِ النافذةِ، وأخذَ ينزلقُ ببطءٍ شديدٍ حتى لمستْ قدماهُ كتفي أحمد. وفي هذه الأثناءِ، كان شرارُ النيرانِ يتطايرُ أكثرَ فأكثرَ حولَ الطفلينِ، كما بدأت درجةُ السُّلم العليا تنثني تحتَ ثقلهما، وكان المنظرُ رهيباً ومخيفاً حتّى أنّ نفراً من الموجودين أقفلوا عيونَهم لحظةً خوفاً وهلعًا.

وعندما شعر أحمد بجمال واقفاً على كتفيهِ، أمسكَ بوسطهِ وطلب منه أن ينزلِقَ بهدوءٍ على جسمهِ إلى أن أوقفهُ على الدرجةِ التاليةِ من السُّلم، وقال له

ـ انزلِ الآن، وانتبهْ للدرجةِ المكسورةِ في وَسَطِ السُّلم.

نزلَ جمال بسرعةٍ، وخلفَهُ أحمد، وقبل أن يصلا إلى منتصف السُّلم، سمِعَ الجميعُ قرقعةً، ثم شاهدوا جزءاً من السقفِ ينهارُ، وبعضُ أحجارِ الحائطِ تتدحرجُ وتصطدمُ بالسُّلم فتكسِرُه من منتصفِهِ. وانطلقتْ صرخةُ رعبٍ من جميعِ الأفواهِ، وقبل أن يتحركَ أيُّ شخص كان أحمدُ واقفا على رجليه وقد أصابته رضوضٌ خفيفةٌ، وأسرعَ بانهاض جمال الذي كان مغمياً عليه من تأثيرِ السقطةِ. وحمل أحمد جمالاً بين ذراعيهِ، وجلسَ به بعيداً فوق كومةٍ من التبنِ وقد هدّهُ التّعبُ وأنهكهُ الإرهاق.

وبعد لحظاتٍ، آستعاد جمالٌ وعيه، وأحاط عنقَ أحمدَ بذراعيهِ عندما وجدُ نفسَهُ في أحضانِهِ، ونظرَ إليه بعينيـهِ الواسعتينِ الحـافلتينِ بالخـوفِ والرهبةِ، وأخذَ يبحثُ عن كلمةٍ يستطيعُ بها التعبيرَ عن الامتنانِ والاعترافِ بالجميلِ ، ثم أخذ يفكِّرُ فيما يمكنُهُ أن يُهديَهُ لهذا الصديقِ الشُّجاعِ ، ولكنه

تذكّر فَجْأَةً أنه لا يملِكُ شيئاً، وأنهُ وحيدٌ في هذا العَالَم، لا أبٌ ولا أمٌّ ولا أخٌ ولا قريبٌ يستطيعُ أن يشترِكَ معهُ في شكرِ أحمد. ولم ينطق جمال ببنتِ شفة، ونظَر الى منقذِهِ نظرةً حزينةً، وتنهّدَ بحسرةٍ شديدةٍ وكأنّهُ يحمِل همومَ الدُّنيا كلّها على كتفيه.

فهِمَ أحمد نظرة جمال، وأدرك ما يجول في خاطرِه، فأمسك بيدهِ بين يديه وقال له :

- إنّني أعرفُ ياجمال أنّك وحيدٌ في هذه الدنيا، وهذا هو الذي جعلني أجدُ الشَّجاعةَ الكافيةَ لإنقاذِك. وأنت بدورك، يجبُ عليك عندما تكبرُ وتصبحُ قوياً أن تُساعِدَ الضعفاءَ وكلَّ من يحتاجُ إلى المساعدةِ.

وفي هذه اللحظةِ، وصل طلالٌ وهو يحملُ صُرَّةً من الملابسِ الثقيلةِ وأعطاها لجمال وطلبَ منه أن يلبسَها حمايةً له من شدةِ البردِ القارص.

ولم يمض سوى قليلٍ من الوقت حتى أشرقتِ الشمسُ، وانتهت بذلك ليلةٌ مشئومةٌ حافلةٌ بالمتاعبِ والأخطار.

وعندما حلّت ساعةُ رحيلِ الأصدقاءِ الثلاثةِ، سحب السيد بركات صديقه الزّارعَ إلى جهةٍ، وقال له بودٍّ وإخلاص :

- ياصديقي العزيز، إنّني أراكَ يائساً متشائماً أكثرَ من اللازم، بينما يجب عليك أن تتمسك بالشّجاعةِ والصبرِ، لأنهُ مع الوقتِ يمكنُ تعويضُ ما أفسدَهُ الحريق. لقد كانت أحوالي طيبةً للغاية في هذا العام، وأستطيع لحسنِ الحظِ قرضَك بعضَ المالِ الذي قد ينفعُك في ضائقتِكَ الحالية. خُذْ هذا المبلغَ، فإنّني ليست بي حاجةٌ إليه الآن، ولا تردّهُ إلاّ عندما تستطيعُ ذلك. وأنا أعلم جيداً أنّك رجلُ الجدِّ والعملِ والنشاطِ، ولذلك أطلبُ منك أن

تعدني بمقاومةِ اليأسِ والتشاؤمِ ، وألاّ تبردَ همّتُك ويخمدَ نشاطُك.

ولم يكن الزارعُ السيءُ الحظِ ينتظرُ شيئاً من السيد بركات وبلغ تأثُرهُ حدّاً منعهُ من الكلامِ ، ودمعت عيناهُ وشدَّ على يدِ صديقهِ بحرارةٍ ومودّةٍ، وافترق الصديقانِ وقلبُ كلٍّ منهما طافحٌ بالشجن.

وانطلقتِ العربةُ في الطريقِ، وأخذت تبتعدُ شيئاً فشيئاً عن القريةِ، وعندئذٍ وضع السيد بركات يَدهُ على كتفِ أحمدَ ونظرَ إليه بفخرٍ وإعجابٍ وقال له :

ـ إنّك لم تَعدْ طفلاً، لأنّك في وقتِ الشدّةِ تصرّفتَ كرجلٍ ، وحافظت على نباهتِكَ وحضورِ بديهتِك في الوقتِ الذي فقد فيه كثيرٌ منّا صوابَهم. والحقيقةُ أنّني لا أعرفُ ما الذي يجبُ أن امتدِحَه فيك : شجاعتَك التي عبّرتَ عنها، أو ذكاءَك الذي أثبتَّهُ بجدارة.

ثم استدار السيد بركات وقال لطلالٍ :

ـ وأنتَ أيضاً ياصغيري طلال، لقد أحسنتَ بتذكركَ لجمال في الوقتِ الذي نسيه الجميعُ، وإذا كان لا يزالُ حيّا فالفضلُ في ذلك يرجعُ إليك، لأنك أنتَ الذي أيقظتَهُ بالحجرِ الذي رميتَه على مصراعِ نافذةِ غرفتهِ الصغيرةِ. ولولاكَ لكان الآنَ في عدادِ الأمواتِ لأنك أنت الوحيدُ بيننا الذي سأل عنه ولم ينسَهُ. إنكما أخَوانِ شجاعانِ وطفلانِ رائعانِ، وإنني لأُحبكما من أعماقِ القلب. ونصيحتي لكما هي أن تحتفِظا بطبعِكما هذا، وبسلوكِكما الممتازِ؛ لأنّه لا يكفي أن يكونَ للانسانِ في وقتِ الخطرِ قلبٌ جريءٌ، وإنما يكون له عقلٌ هادىءٌ ورقيقٌ، يُساعد على التغلبِ على مُختلفِ المَصاعِبِ والعقباتِ بالتبصّرِ والتفكير.



الـــوداع

"ما أصعبَ فراقَ من نحبّ !"

وحانَ وقتُ الوَداعِ بعد أن أصبحَ من اللازمِ على الأصدقاءِ الثلاثةِ أن يفترقوا.

فبعدَ ستةِ أسابيعَ من التنقلِ المستمرِ والتعبِ والإجهادِ، لم يعُدْ أمامَ السيد بركات سوى العودةِ لمنزلِهِ حيثُ تنتظرهُ زوجتُه وابنُه الرضيع. أما أحمدُ وطلال، فقد كان عليهما قطعُ مسافةِ مأتين وأربعين كيلومترٍ قبلَ الوصولِ إلى المدينةِ التي يعملُ بها عمُّهما.

وقال السيد بركات لأحمد :

ـ عندما طلبتَ مني في مقابلتِنا الأولى أن أعطيَك مبلغاً ولو قليلاً من المالِ زيادةً على ما عرضتُهُ عليكما، تعويضاً لكما عما ستقومان به من

عمل، رفضتُ حينئذٍ الالتزامَ بأيِّ شيءٍ لأنّني لم أكن أعرِفُكما. ولكنَّك أثبتَّ لي منذُ ذلكَ اليومِ أنَّكَ ولدٌ نشيطٌ وشجاعٌ، وكنت لي نعمَ المساعدُ والمعين، ويسعدني الآن أن أعبرَ لك ولأخيكَ عن شُكري وامتناني.

ثم قدّم السيد بركات لأحمد كيساً جديداً بداخِلهِ مبلغٌ لا بأسَ بـهِ من المالِ وقال:

- لديكما الآنَ من المالِ ما يكفيكما وزيادة حتّى تعثرا على عمِّكما، وقد كتبت رسالةَ توصيةٍ أشرتُ فيها إلى حُسنِ سيرتِكَ وسلوكِكَ، وإلى ما قمتَ بِهِ من أعمالٍ خلالَ الستةِ أسابيعَ الماضية. وقد صدّق العُمدةُ على توقيعي ووضعَ بجانبهِ ختمُ بلديةِ هذهِ المدينةِ الصغيرة. وسلّم السيدُ بركات الرسالةَ لأحمد وكذلك الأشياء الأخرى التي كان الأخَوانِ قد تركاها في عهدتِه. وقبل أن ينطقَ أحمدُ بكلمة شكرٍ واحدةٍ، جذبه إليه الرجل الطيّبُ واحتضنهُ بعطفٍ وكذلك الصغيرُ طلال، وكان في منتهى التأثرِ والانفعالِ بعدَ أن تذكرَ في لحظةِ الوداعِ تلكَ كلَّ الأيامِ الماضيةِ التي قضاها معهما، والعملَ الذي قاموا به مع بعض، وكذلك مشاعرَ الفرحِ والحزنِ والقلق التي وحّدت قلوبَهم، وتذكّرَ ليلةَ الحريقِ المشئومةَ ومنظرَ أحمدَ وهو يحمِلُ الصغيرَ جمالاً بينَ ذراعيهِ...

وبقلبٍ مهمومٍ قبّلَ السيدُ بركات الطفلينِ وقال لهما بصوتٍ خافت:

- إنّني لن أنساكما أبداً، وأرجو أن تكتبا لي ولو مرةً واحدةً في السّنةِ في الأقلّ، حتّى أعرفَ أحوالَكما وماذا تفعلانِ، ولسوف يُعزّيني ذلك عن فراقِكما وعدم رؤيتِكما مرةً أُخرى.

وآفترق الأصدقاءُ الثّلاثةُ، وسار الأخَوانِ في آتجاهِ الجَنوبِ على الطَّريقِ

الممتدّ على شاطىءِ أحدِ الأنهارِ وعلى كتفِ كلٍّ منهما عصاهُ وصُرّتـه الصّغيرة.

وكان طلالٌ يسير وعيناهُ تنظرانِ إلى الأرض وقد آمتلأتا بالدُّموعِ ، وبدتْ على محياهُ الرزانةُ الشديدةُ والتفكيرُ، وأخذ يتأوّهُ بين آونةٍ وأخرى وقد ذكّره هذا الفراقَ الجديدَ بفراقِ كلِّ المرّاتِ السابقة. وتذكّر طلال قريتَهُ الصغيرةَ وأصدقاءَه والعمَّ سعيداً وزوجته الطّيبةَ والمرأةَ العجوزَ صاحبةَ الجرّةِ العتيقةِ، ثم تذكّر صديقَهُ جمالاً الذي قال له وهو يودّعه :

ـ إنّني أشعُر بألمٍ وحزنٍ عميقٍ عندما أفكّر في أنّنا قد لا نلتقي مرةً أُخرى.

وهيّجت هذه الذكرياتُ كوامنَ نفسِهِ، وشعرَ بالأسفِ الشديدِ لإحساسِهِ بأنّه ليس هناك في الدُّنيا أشدُّ لوعةً ومرارةً من السَّفرِ والتّرحالِ الدائمين. وبرغم كونِهِ متفائلاً بطبعِهِ ويحبُّ المرحَ والبهجةَ، إلا أنّه فقدَ الرغبةَ تماماً في مشاهدةِ مناظرِ الطريقِ الجميلةِ التي بدت له طويلةً وكئيبة.

وبغتةً، توقّف طلالٌ عن السيرِ وقال لأحمدَ :

ـ إنهُ لمحزن وتعيس أن نُفارِقَ هكذا بآستمرار الناسَ الذين نُحِبُّهم، وألّا يكونَ لدينا أيُّ شيءٍ على الإطلاق، لا مدينةً ولا منزلاً، ولا أسرةً نرجعُ إليها، ولا أصدقاءَ نعيشُ معهم وبينَهم دائماً. إنّني لم أعُدْ أستطيعُ تحمّلَ مشقةِ السّفرِ هكذا باستمرارٍ من مكانٍ إلى آخر. . .

وأخذَ صوتُهُ يرتعشُ وكأنّه يوشك أن يبكي، فسكت وقد ظهرَ على وجهِهِ الآنفعالُ الشديد.

ونظر أحمدُ اليهِ بلطفٍ وحنانٍ وقال له :

ـ تشجّعْ يا طلالُ، فأنتَ تعرِفُ جيداً أنّنا ننفِّذُ وصيَّةَ والدِنا المرحومِ، وأنّنا نقومُ بواجبنا، وأنّنا نسعى لملاقاةِ عمِّنا مهما كلَّفنا ذلك من جُهدٍ وعذابٍ ومعاناة. فتشجّعْ إذاً، ولنسرْ بشَجاعةٍ وأملٍ وتفاؤل. وبدلاً من الشكوى والتذمرِ، علينا ياأخي أن نفرحَ ونستبشَر لأنَّ المراحلَ الأولى من رحلتِنا مرّت بصفةٍ عامةٍ على أحسنِ ما يُرام.





الحادثـــة

"من الخيرِ أن يكونَ لـدى الانسانِ بعضُ المالِ عندما تـحِـلُّ بـه الـمـصـائـبُ والنكبات"

وفي صباحِ اليومِ القابلِ، بدأَ الأخَوانِ سيرَهما بجدٍ ونشاطٍ، وقبلَ أن يقطعا سوى مسافةٍ قصيرةٍ، وقفت لهما عربةٌ تسير في الاتجاه نفسه ودَعاهما سائقُها للركوب.

وكانَ السائقُ رجلاً طيّباً بشوشاً يُحِبُّ الأطفالَ ويعتني بهم، فلم تمضِ سوىٰ لحظاتٍ حتّى كان الثلاثةُ يتحدثونَ بمرحٍ وسرورٍ وكأنّهم متعارفون منذُ وقتٍ طويل. وكانتِ السماءُ صافيَةَ الأدِيم، وذاتَ زرقةٍ رائعةٍ، برغم أن الريحَ كانت تهبُّ بقوّةٍ وعنفٍ شديدينِ، وأدهشَ ذلكَ طلالاً فتساءَلَ قائلاً :

ـ عجيبٌ جِداً أن تظلَّ ٱلسَّماءُ مضيئةً، وأن تكونَ الحقولُ غنيةً وحافلةً بالخيراتِ برغمِ هُبوبِ هذه الريحِ القويةِ العنيفة ؟

وردّ عليه سائقُ ٱلعربةِ قائلاً :

ـ نَعَمْ هذا عجيبٌ بالفعلِ . وعليْك أن تعلَم أنَّ هذه الأرضَ خِصبةٌ جِداً، وعندما نرويها فإنَّ انتاجَها يتزايدُ بشكلٍ مدهش.

وتساءل أحمدُ قائلاً :

ـ هل تستعملونَ هُنا طريقَةَ الريِّ في الزِّراعة ؟

فردّ السائقُ قائلاً :

ـ نَعَمْ، وعندما يصِلُ الماءُ إلى أيَّةِ منطقةٍ، فإنَّ انتاجَها يتضاعفُ ثلاثَ مرّاتٍ . ولكنَّ الماءَ لسوءِ الحظِّ نادرٌ، ونحنُ الآن نكافِحُ من أجلِ حفرِ تُرعةٍ نستطيعُ بذلك ريَّ جميعِ أراضينا وتحويلِها إلى حديقةٍ غنّاء .

وبينما كانَ الثلاثةُ يتحدثونَ هكذا بودّ ولطافةٍ، كانتِ ٱلرِّيحُ تهبُّ قويةً وتدفعُ العربةَ من الخلفِ وتساعدُ الحِصانَ على جرِّها بسرعةٍ كبيرةٍ. وفي إحدى المُنعَطَفاتِ، انحدرتِ الطريقُ بغتةً انحداراً سريعاً، وهبَّتِ ٱلرِّيحُ بقوّةٍ رهيبةٍ مما أخلَّ بتوازنِ العربةِ، فانقلبتْ إلى الأمامِ بعُنفٍ شديد. وكانتِ الصّدمةُ قويةً بشكلٍ لم يستطعْ معَها الحصانُ الحفاظَ على توازنِهِ ووقَع على الأرضِ، بينما طَار الرُّكاب الثلاثةُ في الهواءِ بعيداً عن العربة. ونهضَ الثلاثةُ من وقعتِهم وأخذوا ينفضُونَ الغُبارَ عن ملابِسهِم، ولم تكن هناك لحُسنِ الحظِّ كسورٌ وإنما بعضُ الرّضوضِ والكدمات. ولكنّ إصابةَ طلالٍ كانت ـ ويَاللأسفِ ـ بالغةً، وقد أصيبت ساقُهُ اليُمنى وكذلك رسغُ يدِهِ اليسرى، وعندما قامَ وبدأ في تنفيضِ ملابسهِ شعَر بألمٍ فظيعٍ يمنعُهُ عن

الحركةِ، كما أحسّ بأنَّ رأسه ثقيلٌ وجبهتَه شديدةُ السخونةِ، وكادَ يبكي من القهرِ لولا أن تمالكَ نفسَهُ بصعوبة. وعندما رأى أحمدُ حالةَ أخيهِ، آنزعجَ انزعاجاً شديداً وخشي أن يكونَ هناك كسرٌ ما في يدِهِ أو رجلِهِ. أما السّائقُ الذي كان في منتهى الضيقِ والانزعاجِ، فقد اقتربَ من طلالٍ، وطلبَ منه تحريكَ أصابعِ يدِهِ ورجلِهِ المُصابتينِ، وعندما وجدَهُ يستطيعُ تحريكَهما قال:

- ليس هناك على ما أعتقدُ أيّ كسرٍ، وإنما مجردُ ملخٍ مِفْصليٍّ في الذّراعِ والساقِ.

ثم خاطبَ أحمدَ قائلاً:

- خُذْ منديلَكَ ومنديلَ أخيكَ، وبلِّلهما جَيِّداً بالماءِ البارِدِ الموجودِ هُناكَ في تلكَ الحفرةِ، ثم استعمِلهما كضمادتينِ واحدةٍ للرّسغِ والثّانيةِ للسّاقِ، فالماءُ البارِدُ هو أحسنُ علاجٍ للرضوضِ والكَدماتِ في بدءِ الإصابةِ بها، لأنهُ يمنعُ الانتفاخَ ويحدُّ من التهيّج.

وبينما أخذَ أحمدُ في آستعمالِ ضماداتِ الماءِ البارِدِ لمعالجةِ طلالٍ، أسرعَ السائقُ وأنهضَ حصانَهُ الذي لم يُصَبْ بسوءٍ، ولكنّ قطعتي الخشبِ الطويلتينِ اللتينِ يوضعُ الحصانُ بينهما لجرِّ العربةِ كانتا مهشمتين تماماً، وأصبحَ من المستحيلِ استعمالُ العربةِ مرةً أخرى للركوبِ، ووجدَ السائقُ نفسَهُ مضطراً للبحثِ عمّن يساعدُهُ في سحبِها لإحدى القُرى القريبةِ حتّى يتمَّ هناك إصلاحُها.

وبرغمِ ضَماداتِ الماءِ البارِدِ، لم يقدرِ طلالُ المسكينُ على المشيِ، وبدأتْ شكواهُ تزدادُ من شدَّةِ الصُّداعِ في رأسِهِ، فحملَهُ أحمدُ بين ذراعيهِ،

بقلبٍ حزينٍ سار بهِ مسافة كيلومترينِ، والصغيرُ برغمِ ألمِـهِ يعتذِرُ لأخيـهِ ويقول :

ـ ماذا سنفعلُ الآنَ بعد أن أصبحتُ عاجزاً عن السّير ؟ وكيف سنقطعُ مسافةَ المائتيِ كيلومترٍ التي لا تزالُ أمامنا ؟

وقال أحمدُ :

ـ لا تنزعجْ ولا تقلقْ يا طلالُ، أليس لدينا الآن مبلغٌ كافٍ من آلمال ؟ فقد أسعدنا الحظُّ بتوفيرِ مبلغٍ لا بأسَ بهِ، وقد آنَ الأوانُ للاستفـادةِ من ذلكَ بشراءِ تذكرتينِ لركوبِ القطار. آه ياعزيزي طلال. إنه رائعٌ أن يكونَ لدى الانسانِ بعض المالِ عندما تشتدُّ به الأزَماتُ وتواجِهُهُ المصائب.

وقال طلالٌ :

ـ ولكنّ ركوبَ القطارِ سيكلِّفُنا كثيراً، ولن يبقى لدينا من مُدَّخراتِنا أيُّ شيء. وماذا سنفعلُ عندما نصلُ إلى المدينةِ التي يعملُ بها عمّنا ولا نجدُه هناك ؟ وكيف ستكونُ حالتُنا عندئذٍ ؟ فيا لَلحسرَةِ يا أحمدُ، ويا لَتعاستِنا التي لا حدَّ لها.

وردّ أحمدُ قائلاً :

ـ لا يا طلالُ، إنَّ السفَر بالقطارِ لا يكلّفُ غالياً كما تعتقدُ، وسندفعُ مبلغاً ضئيلاً لشراءِ التذكرتينِ، وهكذا ترى بأنّه لا داعيَ للشكوى، لأنَّ حالتَنـا بالفعلِ طيبةٌ ولا بأسَ بها.

وتنهّدَ طلالٌ وقال :

ـ إنّني مهمومٌ جِدّاً على أيّةِ حالٍ، وسأكونُ حِملاً ثقيلاً عليك، وسأزيدُ من متاعِبكَ أثناءَ الطريق.

وضم أحمدُ أخاه إلى صدرِهِ وقالَ له :

ـ لا تتكلم هكذا يا طلالُ، وإذا كنتَ شجاعاً واذا لم تشتكِ، فإنّ الرِحلةَ ستكونُ أحسنَ مما تتصوّر. ألمْ نتغلبْ على العديدِ من العَقَبات ؟ إننا سنتغلبُ بالتأكيدِ على هذهِ العَقَبةِ الجديدةِ، ولكن علينا أن نتمسّكَ بالصبرِ وبهدوءِ الأعصابِ ورباطةِ الجأشِ في مواجهةِ محنةٍ لم يكن في وُسعِنا تلافيها.

وطوّق طلالُ عنقَ أخيهِ بذراعِهِ السليمةِ وقبّلهُ وتنهّدَ وقال :

ـ سأُحاوِلُ أن أكونَ معقولاً وأن أتحلّى بالصّبرِ والشّجاعةِ، وألاّ أشتكيَ أو أتذمرَ بعدَ الآن أبداً.



الطَّبيـــب



"ذكاءُ الممرِّض وحنانُهُ ورعايتُهُ تساعِدُ على شفاءِ المريضِ وتكمِّلُ علاجَ الطبيبِ ونصائحَه"

وصل أحمدُ وهو يحملُ بينَ ذراعيهِ أخاهُ إلى قريةٍ صغيرةٍ قريبةٍ من مكانِ الحادثِ، وأشفقت عليهما امرأةٌ طيّبةٌ من سُكّانِ القريةِ، فاستضافتهُما لقضاءِ بضعةِ أيامٍ عندها.

ولكن آلامَ طلالٍ بدأت تتضاعَفُ، وأخذَ يرفعُ يدَهُ ويضعُها بدونِ توقّفٍ على جبهتِهِ ويشتكي من صُداعٍ رأسِهِ ويقول:

- رأسي، أشعُرُ بِهِ وكأنّهُ يوشكُ أن ينفجرَ، إنّهُ يؤلمني أكثرَ من رِجلي ويدي.

وطلبَ أحمد من طلالٍ أن يتمدّدَ على السّريرِ ليستريحَ قليلاً، ولكنَّ الألمَ ظلَّ يشتدّ عليه فلم يستطعِ النومَ، ثم أصابتْه حمّىً شديدةٌ من ذلكَ النوعِ الخطيرِ الذي ينشأُ عَنِ الإصاباتِ البالغة.

انزعج أحمدُ انزعاجاً بالغاً، وخرج مُسرِعاً من المنزلِ لاستدعاءِ الطبيبِ الوحيدِ الموجودِ بالقرية. ولم يجدْهُ لسوءِ الحظِّ في عيادتِهِ، وعندما سألَ عنه في منزلِهِ، أخبرتْهُ زوجتُهُ أنَّه سيعودُ متأخراً في المَساءِ. وتركَ أحمدُ لدى زوجةِ الطبيبِ عنوانَ المنزلِ الذي ينزِلُ فيه هو وطلالٌ، وعاد خائباً والقلقُ ينهشُ قلبَهُ، وجلسَ قربَ السريرِ الذي ينامُ عليه أخوهُ وكلُّهُ رغبةٌ وعلى آستعدادٍ لعملِ أيِّ شيءٍ قد يُخفِفُ عن أخيهِ بعضَ آلامِه.

وظلّ أحمدُ جالساً مدةً طويلةً قربَ السّريرِ، وعيناهُ مركّزتانِ بحنانٍ في وجهِ طلالٍ المريضِ، ثم شعَر فَجْأةً بحزنٍ هائلٍ يعتصرُ قلبَهُ، وودّ لو أنهُ كانَ هو المريضَ بدلاً من أخيهِ ولو كانت آلامُه أشدَّ ألفَ مرّة.

ولم يَعُدْ طلال يشتكي من الألمِ، وبدا وكأنّه قد آنغمرَ في حُلْمٍ مليءٍ بالضّيقِ والقَلَقِ والضجرِ الشّديدِ، وأخذَ يتقلّبُ في سريرِه ويهذي بصوتٍ خافتٍ وينطقُ بكلماتٍ لا معنى لها.

واقترب أحمدُ من طلالٍ وقال له:

ـ هل تُريدُ شيئاً يا أخي الصّغير؟

ونظر طلالُ إلى أحمدَ وكأنه لا يعرفُـهُ، وقال بصوتٍ بطيءٍ مشحونٍ بالحزنِ والأسى:

ـ أُريدُ أن أعودَ إلى منزلنا.

وردّ أحمدُ بهدوءٍ قائلاً:

ـ نعم يا طلالُ، سيكونُ لدينا منزِلٌ عمّا قريبٍ عندما نلتقي بعمّنا.

وقال طلالٌ :

ـ ذلك بعيدٌ جِدّاً، ذلك بعيدٌ جِداً. . .

وفي هذه الأثناءِ، دخلَ الطبيبُ الغرفَةَ وسمِعَ ما يقُوله طلالٌ، فاستفسرَ من أحمدَ عن ذلك وقال بصوتٍ مطمئنٍ هادىء :

ـ ما هذا آلشيءُ البعيدُ يا صديقي؟

وعندئذ حكى أحمدُ للطبيبِ ما جرى لهما في الطّريقِ، وكيفَ انقلبتِ العربةُ وأُصيبَ طلالٌ في رسغِهِ وساقِه. وقال الطبيبُ بعد أن فحصَ طلالاً جَيّداً :

ـ ليس هناك خطر من الملخ ِ المِفصَلي، ولكنّني منزعِجٌ من حرارةِ المريض ِ الشديدةِ ومن هذيانِه القوي.

وعندما آنتهى الطّبيبُ من الفحص ِ تماماً، سأل أحمدَ عن المنزل ِ الذي يُريدُ طلالٌ العودَةَ إليهِ، وحكى له أحمدُ ما جرى لهما منذُ البدايةِ، وتحدّثَ عن موتِ أبيهما وعن رحيلهما وعن رحلتِهما الطويلةِ، وعن شَجاعةِ طلال ٍ وبهجتِه ومرحِهِ طوالَ الوقتِ، وعن ألمِهِ وانفعالهِ وتأثرِهِ الشديدِ عندما تأتي لحظةُ فراقٍ من يعاشرانِهم من المعارفِ والأصدقاء. . .

وأعطى الطبيبُ الدواءَ اللازمَ للمريض ِ، وغادرَ المنزلَ وتركَ أحمدَ جالساً بجوارِ أخيه، وقد ظلّ كذلك طَوالَ الليل ِ، يراقبُ طلالاً ويحرسهُ ويسهرُ عليه، ويصبّرهُ ويخفّفُ عنه آلامه بألطفِ الكلام ِ كما تفعلُ أشَدُّ الأمهاتِ حناناً في هذا العَالَم.

وبقي طلالٌ المسكينُ يتململُ بآستمرارٍ في فراشِهِ لساعاتٍ طويلةٍ وقد

جفاهُ النومُ، وازدادَ قلقُ أحمدَ وتوترت أعصابُهُ، وظلّتِ الحالةُ كذلكَ حتّى أشرقَ الصّباحُ، وبلغَ التعبُ والإرهاقُ من طلالٍ مبلغاً هائلاً، وبدأ يهدأُ شيئاً فشيئاً، ويركنُ إلى السكونِ، ثم أغمضَ عينيهِ ونامَ ويدُهُ الصغيرةُ لا تزالُ بينَ يدي أخيه.

ولم يجرؤْ أحمدُ على الحركةِ خوفاً من إيقاظِ طلالٍ، وظلّ جامداً في مكانِهِ وقد امتلأ قلبُه بالأملِ عندما رأى أخاهُ يخلُدُ إلى النومِ بعد مدةٍ من التّهيجِ والهذيانِ، وتذكّرَ عندئذٍ بفرحٍ قولَ الطبيب :

ـ إذا نام أخاكَ الصغيرُ، فتأكدْ من أنّهُ سيحظى بالشّفاء.

وأخيراً، وبعد أن هدّه الانفعالُ والتّعبُ، غلبهُ النومُ هـو الآخر ورأسُـهُ متكىءٌ على طرفِ السريرِ ويدُهُ ساكنةٌ في يدِ أخيه.





الخيبـــة

"لنتعاونْ وليساعدْ بعضُنا بعضاً"

عندما استيقظَ طلالٌ من النومِ ، كانت حالتهُ أحسَنَ بكثيرٍ، فقد آختفى الهذيانُ وهبطتْ درجةُ الحرارةِ إلى مستواها الطبيعي تقريباً. وهكذا تحققتْ لحُسنِ الحظِّ توقُّعاتُ الطبيب. وظلَّ طلالٌ مستريحاً تماماً في فراشِهِ لمدةِ يومينِ كاملين، إلى أن استرجعَ قُواهُ واستردَّ عافيتَهُ. وعندئذٍ سمحَ الطبيبُ للأخَوينِ بالرَّحيل، بعدَ أن تحدّثَ مع أحمد على آنفراد، وأوصاهُ بالعنايةِ بأخيهِ عِنايةً كبيرةً، وأن يحولَ دونَ قيامهِ بأعمالٍ شاقةٍ مُتعِبَةٍ، وقال :

- لن يستطيعَ طلالٌ المشيَ بسهولةٍ قبلَ شهرٍ منَ الآن. وأُوصيكَ بتسليتِهِ، ولا تتركْهُ بمفردِهِ أبداً لأنَّ ذلك يُحزِنُهُ ويكدِّره.

وشكر أحمدُ الطبيبَ على تعليماتِهِ ونصائحِهِ الطِّبيةِ، ولم يعرفْ كيف يُعبِّر له عنْ آمتنانِهِ وآعترافِهِ بآلجميلِ ، لأنَّهُ لم يأخذ ثمنَ العلاجِ حسب، وإنما قام بإهداءِ مريضِهِ الصغيرِ خفًّا مناسباً لرجلِهِ المريضة.

وبدأ طلالٌ يسترجعُ بشاشتَهُ ومرحَهُ شيئاً فشيئاً، وأصرَّ على أن يقومَ بنفسِهِ

وهو جالسٌ على سريرِهِ بإعداد صُرّةِ سفرِهِ، ولم ينسَ أن يضعَ كتابَهُ النفيسَ في جيبِ سترتِهِ، حتّى يستمتعَ أثناءَ الرِّحلةِ بالقِطارِ بالقِراءةِ والاطلاع.
وعندما حانَ وقتُ السفرِ، وتمّتْ جميعُ الاستعداداتِ، قام أحمدُ بتسديدِ جميعِ نفقاتِ إقامتهما، وحمل طلالاً بينَ ذراعيهِ وهو يُمسِكُ صُرّتَهُ بيدِهِ السليمةِ، وسارَ بهِ برغمِ ذلكَ بخُطىً حثيثةٍ إلى محطّةِ القطارِ التي لم تكنْ تبعُدُ كثيراً عنِ القريةِ. وبعدَ ذلك بنصفِ ساعةٍ، كانَ الأخَوانِ يجلسانِ جنباً إلى جنبٍ في إحدى عَرَباتِ القطارِ، ولم تمضِ سوى لحظاتٍ حتى أطلقتِ القاطرةُ صفيرَها، وبدأَ القطارُ يتحرّكُ، وأخذتْ سرعتُهُ تزدادُ شيئاً فشيئاً. ولم يكنْ طلالٌ قد ركِبَ القطارَ قط، وقضى السّاعةَ الأولى من الرِّحلةِ في مُتعةٍ رائعةٍ، وكان ينظرُ من خلالِ النافذةِ وهو مدهوشٌ من سرعةِ القطارِ الشديدةِ ومن منظرِ الأشجارِ التي تبدو وكأنّها تُسابِقُ الريح.

وبعدَ عدةِ ساعاتٍ، بدأَ القطارُ يخفِفُ من سرعتِهِ شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى محطتِهِ بالمدينةِ الكبيرةِ القائمةِ على البحرِ التي كان يعيشُ فيها عمُّ الطفلين.

ونزلَ الأخَوانِ من عربةِ القطارِ وَسَطَ ازدحامِ المسافرينَ، وكانا يشعرانِ بالإرهاقِ الشديدِ وبوجعٍ في الأُذُنينِ من قرقعةِ عَرَباتِ القطارِ ومن زعيقِ المسافرينَ والحمّالين.

واستفسرَ أحمدُ بعنايةٍ بالغةٍ عن الطريقِ المؤديةِ إلى عُنوانِ العمِّ، ثم حملَ طلالاً بينَ ذراعيهِ بشجاعةٍ وعزمٍ، وسارَ بهِ بين المارّةِ في الشّارعِ الكبيرِ المُزدَحم.

وشعر أحمدُ بتأثرٍ عميقٍ، وبالانفعالِ يجتاحه فجأةً وقال في نفسِهِ:

ـ ها نحنُ الآنَ نُوشكُ أن نصلَ إلى نهايةِ رحلتِنا الطَّويلةِ، ولكنَّ سعادَتنا لن تتمَّ إلاّ بلقاءِ عمِّنا، وبرضائِهِ وفرحِهِ برؤيتِنا.

ولم يكن طلالٌ أقلَّ تأثراً وانفعالاً من أحمدَ، وكان يُفكِّرُ تماماً مثلَ أخيهِ، إلاّ أنّهُ لم يُفصِح عن أفكارِهِ وظلَّ صامتاً يُراقِبُ أخاهُ ويُعجَبُ بهدوءِهِ ورقَّتِهِ وشجاعتِهِ التي لم تخُنْهُ قطُّ.

وأخيراً وصل الطفلانِ إلى الشارع الذي كانا يتمنيانِ الوصولَ إليهِ منذُ وقتٍ طويل. وبعدَ لحظاتٍ وقفا أمامَ المنزلِ المنشودِ، وبقلبٍ شديدِ الخفقانِ دقَّ أحمدُ البابَ، ففَتحَ لهُ بحار في ناهز الأربعينَ من عمرِهِ، وسألهُ أحمدُ عن السيدِ فريد، فردّ البحّارُ قائلاً:

ـ لم يعُدْ السيدُ فريد يُقيمُ هُنا، وقد رحلَ منذُ خمسةِ أشهرٍ تقريباً.

ولم يتمالك أحمدُ نفسَهُ وصاحَ قائلاً:

ـ يا لَلمُصيبة.

واصفرّ وجهُهُ وبدا وكأنّه يكادُ يُغمى عليه، ثم تماسك على نفسِهِ بصعوبةٍ واستفسرَ البحار قائلا:

ـ وهل تعرفُ أينَ ذهبَ يا سيّدي؟

وردّ البحّارُ قائلاً:

ـ تفضلا أولاً بالدُّخولِ لأنَّ الهواء هنا باردٌ جدّاً. إن فريد من أعزّ أصدقائي ونستطيعُ الحديثَ عنه بشكلٍ أفضلَ داخلَ المنزلِ وليس على عَتَبَةِ الباب.

وسبَق آلبحّارُ الأخوينِ إلى الدّاخلِ، وقادَهما عبرَ ممرٍ ضيقٍ معتمٍ، وسار خلفَهُ أحمدُ وهو يحمِلُ طلالاً بينَ ذراعيهِ، والصغيرُ يتأسّفُ ويعتذرُ لما يسببهُ لأخيه من تَعبٍ وإرهاق إضافيين.

وصلَ الثلاثةُ غرفةً كانت بها زوجةُ البحّارِ تقوم بإحضارِ طعامِ العَشاءِ، وفي أحد أركانِها كان يلعبُ ثلاثةُ أطفالٍ صغارٍ.

جلسَ أحمدُ على كُرسيٍّ بجـوارِ النافـذةِ وأجلسَ طلالاً على ركبتيـهِ، ووقفَ البحّارُ وَسَطَ الغرفةِ لحظةً ثم جلسَ على مقعدٍ في مواجهتِهما وقال :

- سأحكي لكما ماجرى بالضّبط. كان لفريد أخٌ شقيقٌ أكبرُ منهُ، وكان قد أخطأَ معه فيما مضى، فانقطعتِ العلاقاتُ بينَهما تماماً. ومنذُ نهايةِ الحرب، بدأ فريد يفكِّرُ كثيراً في أخيه الأكبر الذي كان يعيشُ في الأراضي المُحتلّةِ، وكان يقولُ بآستمرار :

"لاشك في أنَّ أخي يعيشُ هناك في مرارةٍ وبؤسٍ وحِرمانٍ لأنّه تحمّل جميعَ ويلاتِ الحربِ. أما أنا، فقد استطعتُ توفيرَ بعضِ المالِ، وسأطلبُ منه أن ينسى أخطائي الماضيةَ، وأن يأتيَ إلى هنا لنشتريَ قطعةً صغيرةً من الأرضِ نقومُ بزراعتِها معاً."

وكان الواجبُ على فريد قبل أن ينفّذَ مشروعَهُ هذا، أن يسافرَ الى إحدى المُدنِ الكبيرةِالواقعةِ على بعدِ مائةِ كيلومترٍ من هُنا، لتسويةِ بعضِ الأعمالِ هُناك. وقد أخبرني بأنَّهُ سيعملُ أثناءَ سفرِهِ لكسبِ بعضِ المالِ، مما قد يُؤخِرُ لوقتٍ ما وصولهُ إلى المدينةِ التي يسعى إليها.

وتأوّهَ أحمدُ وقال بأسفٍ وأسى :

- يا لَلحَسرةِ، إنَّ السَّيدَ فريد عمُّنا، وقد ماتَ أبونا منذُ مدةٍ، وهو الشقيقُ الأكبرُ الذي كان العمُّ فريد يريدُ دعوَتهُ للمجيْ إلى هنا. وقد طلبَ منّا أبونا قبل أن يموتَ أن نبحثَ عن عمِّنا، وها نحنُ قد جئنا بعدَ فواتِ الأوان. وقبلَ مجيئِنا، كُنّا قد كتبنا إليه ثلاثَ رسائلَ، ولكِنّنا - وياللأسف - لم نتسلّمْ منه أيَّ

رد .

وفتحَ البحّارُ أحدَ الأدراج ، وتناولَ منه ثلاثَ رسائلَ لم تُفتحْ بعدُ وقال :

- نَعَمْ ، أعرِفُ ذلك ، فقد وصلتْ رسائلُكما الثلاثُ بعد سفرِ فريد ، وانتظرتُ وصولُ عُنوانِهِ حتى أبعثَ إليه بهذهِ الرسائل ، ولكنّه لم يكتبْ إليّ ، ولا أعرفُ أيّ شيءٍ عنهُ من يوم رحيلِهِ منذُ خمسةَ أشهرٍ تقريباً .

وأخذَ أحمدُ يفكِّرُ والحزنُ يملأُ قلبَهُ والحَيرةُ مسيطرةٌ عليهِ ، وبعدَ مُـدَّةِ صمتٍ مُمِضَّةٍ قال :

- والآن ماذا سنفعلُ ؟ إنّنا لانعرفُ عُنوانَ عمِّنا في تلكَ المدينةِ الكبيـرةِ ، وحتى لو كُنّا نعرِفُهُ ، فإنّنا لانستطيعُ الذَّهابَ إليه ، لأنَّ أخي الصغيرَ مريضٌ ولا يستطيعُ المشيَ ، وليست لدينا النقُودُ الكافيةُ لركوبِ القطار .

وردَّ البحارُ محاوِلاً تشجيعَ أحمدَ :

- إيهِ ، لا تحزنْ ولا تيأسْ هكذا بسرعةٍ ، إنَّ على الفقراءِ أن يُساعِدَ بعضُهم بعضاً ، ونحنُ لسنا أغنياءَ ، ولذلك فإنّنا نشعرُ بآلامِ الآخرينَ ونُشفِقُ عليهم ونعملُ كلَّ ما في وسعِنا لمساعدتِهم .

وقالت زوجةُ البحّار :

- سوف نتعاونُ جميعاً ، وسيكونُ كلُّ شيءٍ على أحسنِ ما يُرام . لقد حان وقت العَشاءِ ، فلنجلسْ على المائدةِ ، وأثناءَ الأكلِ سيُحاولُ زوجي وهـو رجلٌ سديدُ النُّصحِ أن يفكِّرَ في حلٍّ ملائمٍ لمشكلتِكُما . أليسَ كذلك ؟

وأثناءَ ذلكَ ، سحبتِ المرأةُ الطيِّبةُ المائدةَ إلى وَسَطِ الغرفةِ ، وأجلستْ أحمـدَ على يمينِها وطـلالاً على يَسارِهـا ، وأجلست آبنيهـا على جـانبي والدِهِما ، وكانا توأمينِ جميلينِ يبلُغ سنُّهما أربـعَ سنين ، وأجلست آبنتَها

الصغيرةَ على رُكبتَيها، ثم أخذت في تقديمِ حساء السّمكِ للجميعِ ، وقالت والابتسامةُ لا تُفارق شفَتيها :

ـ هذا هو الأكلُ المُفضَّل عندنا في هذا الإقليم.

في أثناء العَشاءِ، حكى أحمدُ ما جرى لهما بتفصيلٍ من البدايةِ إلى النهايةِ، وقدّمَ للبحّارِ بعدَ ذلكَ جميعَ الشّهاداتِ التي كانت تشهدُ بجدّهِ ونشاطِهِ وحُسْنِ سلوكِهِ وأخلاقِهِ.

وكانَ البحّارُ يستمعُ لحديثِ أحمد بعنايةٍ واهتمامٍ ، ثم قرأَ جميعَ الشهاداتِ، وظلّ مدةً من الوقتِ يفكّر دونَ أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة. وفي نهايةِ العَشاءِ، نظرَ البحّارُ إلى أحمدَ وقال :

ـ أعتقدُ أن هناك حلاً مناسباً لمشكلتِكما. ولكن، هل تستطيعانِ ركوبَ المركبِ، أم أنكما تخافانِ من البحر ؟

وردّ الطفلانِ بصوتٍ واحدٍ وفي الوقت نفسهِ :

ـ لا ياسيدي، إنّنا لانخافُ البحرَ برغم أنّنا لم نرهُ قطُّ. وقد جئنا إلى المنزلِ من محطّة القطارِ مباشرةً قبل الذّهابِ لأيِّ مكانٍ آخر.



فقال البحّار :

- إذاً يُمكِنُكما أن تركبا المركبَ معي إلى أحد الموانئ القريبةِ من المدينةِ التي يعملُ بها عمُّكما حاليّاً، وهي مدينةٌ صغيرةٌ تربطُها بالميناءِ ترعةٌ صغيرة. وعندما نصل إلى الميناءِ، سنسألُ كلَّ من نعرفُهُ عن مكانِ عمِّكما، وبما أنّنا نحنُ البحارةَ نعرفُ الكثيرَ جِداً من الناسِ ، فربما وجدنا من يدلُّنا على عُنوانِهِ بالمدينة. وعندئذٍ يُمكِنُكما ركوبُ أحدِ المراكبِ الصغيرةِ والاتجاهُ إلى هناك بطريقِ التُرعة. أما المركبُ الذي سنسافرُ عليه، فإنهُ سيُقلِعُ بعدَ غد.

وقال طلالٌ :

- ولكن ليس لدينا من المالِ ما يكفي لركوبِ المركب ؟

وردَّ البحار قائلاً :

- يا آبني ، إنَّ أخاكَ فتىً جريءٌ لايهابُ العملَ ولا يخشاهُ، وقد تحقّقتُ من ذلك من الشهاداتِ التي لديه. وإذا فعلَ ما سوفَ أقولُ له بالضّبطِ، وساعدنا على تحميلِ وتفريغِ البضائعِ ، فإنّ ركوبَ المركبِ لن يكلفَكما شيئاً، وستأكلانِ بالمجّانِ، بل وستكسبانِ بعضَ المالِ زيادةً على ذلكَ، صحيحٌ أنّ العملَ سيكونُ شاقاً ومُجهداً، ولكن هذا أمرٌ طبيعي ، لأنّه ليس في عالَمِنا هذا شيءٌ يُمكن الحصولُ عليهِ بدونِ تعب.

وصاح أحمدُ قائلاً :

- وكَيفَ لا ، إنّني لا أطلبُ سوى العملِ وقضاءِ الوقتِ في العملِ النافعِ المُفيد.

وبينما أخذَ أحمدُ وطلالٌ يشكرانِ البحَّارَ ويعبرّانِ له عن آمتنانِهما ، ذهبت

زوجتَهُ لإعداد الغرفةِ التي كان ينامُ فيـا العم فريـد ليقضي فيها الأخـوَان ليلتَهما.

ولم تكن هذه الغرفةُ قد استعملتْ منذُ رحيلِ فريد، وقد كانت أصغرَ غرفةٍ في المنزلِ، وتُشرِفُ من مكانٍ مرتفعٍ على جميعِ سـطوحِ منازلِ المدينة.

وصعدَ الطفلانِ فَنظرا إلى الغرفةِ، وعندما فتحَ أحمدُ نافذتَها، صاح من الدهشة والذُّهول وقال:

ـ يالَهُ من منظرٍ رائعٍ يا طلال!

ثم حملَ أخاهُ بين ذراعيهِ وأجلسهُ على كرسيٍّ قرب النافذةِ، ولم يتمالكْ طلالٌ نفسَهُ وصاح بفرحٍ شديدٍ وقال:

ـ البحر، البحر يا أحمدُ، فيالَه من منظرٍ أخَّاذ!

وكان البحرُ يمتـدُّ على مدى البصـرِ، وزرقتُهُ أدكنُ من زرقـةِ السماءِ، والمراكبُ فيه تتهادى بصواريها العاليةِ، وراياتُها المختلفةُ الألوانِ والأشكالِ تخفقُ بشدةٍ، بينما أشعةُ الشَّمسِ الغاربةُ تملأُ الأفقَ بلونٍ ذهبيٍّ جميل.

وجلس أحمدُ وطلالٌ بالقربِ من النافذةِ وهما مبهورانِ بجمـالِ البحرِ وعظمتِهِ واتساعهِ، وأخذا يتأملانِهِ مرةً ويتأملانِ السماءَ مرةً أخرى، ويتطلّعانِ إلى الميناءِ الممتلىءِ بالسُّفنِ والمراكبِ، وإلى المدينةِ الكبيرةِ المزدحمةِ الممتدةِ تحتَهما.

وظلّ الأخوَانِ يشاهدانِ المنظَرَ الجميلَ بإعجاب وآنفعالٍ، وتذكرا كلامَ آلبحّارِ الطيبِ، وقال أحمدُ بعد صمتٍ طويل:

ـ إنّني سعيدٌ جِدّاً بحديثِهِ عن عمِّنا فريد الذي أعتقدُ أنّني أعرِفُهُ الآن جَيِّداً،

والذي بدأتُ فعلاً أُحِبُّهُ حبًّا جماً من أعماقِ القلب.

وقال طلالٌ:

وأنا أيضاً يا أحمدُ، والحقيقة أنَّ فكرةَ شراءِ قطعةٍ صغيرةٍ من الأرضِ فكرةٌ عظيمةٌ، وهذا هو ما كنتُ أتمنّاهُ دائماً. وسيكون رائعاً أن تكونَ لدينا أرضٌ نزرعُها وحيواناتٌ نربّيها ونرعاها، وإنَّني على آستعدادٍ كاملٍ لقطعِ جميعِ البحارِ من أجلِ تحقيقِ هذه الأُمنية.





أخبــارٌ ســيئة

"الرّجلُ الشُّجَاعُ هو الـذي
لا يعتمدُ إلاّ على ما يكسبهُ
من عرقِ جبينِه"

وفي صباحِ اليوم المُقبلِ ، استيقظَ أحمدُ مُبكِّراً ولبس ملابسَ العملِ ، ولحِقَ البحّارَ في الميناءِ حيثُ كان يتمُّ شحنُ المركبِ الذي كانوا سيسافرون عليه . وكان هذا المركبُ التجاريُّ ينقلُ البضائعَ بين الموانىءِ ، وكانَ البحارةُ يشحنونَ في هذهِ المرَّةِ جذوعَ أشجارِ الصَّنوبرِ لصناعةِ صواري المراكبِ ، وقد ساعدَ أحمدُ في الشَّحنِ ، وبدأ بسرعةٍ يُصبحُ نافعاً ، ولقيَ من اللحظةِ الأُولى ما يستحقُّهُ من آحترامٍ وتقديرٍ برغم سِنِّهِ الصغير . وأقلعَ آلمركَبُ في ساعةٍ مبكرةٍ من صباحِ غدٍ ، وعند الخروج من الميناءِ ، بدأتْ تبدو على الشّاطىءِ العديدُ من المستنقعاتِ والممالحِ ، حيثُ يتبخّرُ ماءُ البحرِ من شِدّةِ

حرارةِ الشَّمسِ ، ويتركُ على الأرضِ في المممالحِ ما كانَ يحتوي عليه من مِلح .

وقبل أن ينتهيَ النّهارُ، وصلَ المركبُ إلى الميناءِ المطلوبِ. وبعدَ الإرساء، بدأ البحّار يسألُ عن العمِّ فريد ويستفسرُ عن عُنوانِهِ، وقد أخبرهُ بحّارٌ من أصدقائهِ بأن فريد كان في منتهى التَّعاسةِ في الأيامِ الأخيرةِ، وأنّه عندما وصلَ إلى المدينةِ التي كان يتركُ فيها مُدَّخراتِهِ في حوزةِ أحدِ أصدقائِهِ، وجدَ هذا الصديقَ قد أفلسَ تماماً وبدّدَ كلَّ ما كان يمتلِكُهُ من أموال. ولم يتحمّلْ فريد الصدمةَ، وأصابهُ آنهيارٌ حاد نُقِلَ بعدهُ الى المستشفى وهو مُصابٌ بحُمّى التيفوئيد، وفي حالةِ هذيانٍ وضَعْفٍ شديدين، إذ لا يجبُ اخبارُهُ بموتِ أخيهِ وبوصولِ أحمد وطلالٍ حتى لاتنتكس صحتُهُ وتتعرضَ حياتُهُ للخطر.

عندما عَلمَ البحّارُ بهذهِ الأخبارِ السيئةِ، شعَر بألمٍ عميقٍ وبضيقٍ وحرجٍ بالغينِ، وعندما عادَ للأخوينِ على المَركبِ، لم يعرفْ كيفَ يُخبِرُهُما بذلك، وأخيراً تمالكَ نفسَهُ وحكى لهما ما سمِعَهُ من صديقِه البحّار، ثم قال :

ـ والآن عليكما أن تفكرا جَيِّداً فيما سأقُولهُ لكما : إذا اشتغلَ أحمدُ على المركبِ الذي سينقُلكما عن طريقِ التُرعةِ إلى المدينةِ التي بها عمُّكما، فإنَّ الرِحلةَ لن تكلفَكُما شيئاً، هذا صحيح، ولكنَّها ستكونُ رحلةً طويلةً حيث ستستغرقُ شهراً كاملاً، كما ستكونُ متعبةً جداً خاصةً وأننا في فصلِ الشِّتاءِ. لذلك أرى أنّه ربما كان من الأفضلِ أن تركبا القطارَ، وسأُقرِضُكما ما تحتاجان إليه من مالٍ لشراء تذكرتي السَّفرِ، وهكذا ستصلان بسرعةٍ بدونِ

تعبٍ ولا إرهاق.

وردّ أحمدُ قائلاً بصوتٍ يرتعشُ حُزناً وألما. وقد هزّتـهُ الأخبارُ السيئـةُ وأصابتهُ في الصّميم :

ـ أشكُركَ جزيلَ الشُّكرِ، وأنا في غايـةِ الامتنانِ لمـا تعرِضُـهُ علينا من معروف. ولكن، لنفترضْ مثلاً أنّنا ركبنا القطارَ هذه الليلةَ، ووصلنا في الغدِ إلى تلكَ المدينةِ الضخمةِ الكبيرةِ فماذا سيكونُ مصيرُنا إذا لم أجـدْ فوراً عملاً شريفاً نعيشُ منه ؟ وأنت تعلمُ أن طلالاً لايستطيعُ المشيَ، وعمّنا فريد في المستشفى، وقد لا تكونُ لديه أيةُ مُدَّخَراتٍ مدَّة نقاهته ؟

وردّ البحّار قائلاً وقد أدهشهُ صوابُ رأي أحمد :

ـ نَعَمْ، هذا صحيح.

واستمر أحمدُ في حديثِهِ قائلاً :

ـ سيكونُ وضعُنا في منتهى السوءِ حينئذٍ، ولن يكونَ في وسعِنا ردُّ النقودِ التي ستقدّمُها إلينا بجودٍ وكرمٍ حسب، بل سنضطرُ للاستدانةِ من أشخاصٍ آخرين، وهذا غيرُ معقولٍ وغيـر مقبولٍ. وأحسنُ حـلٍّ في رأيي، هو أن نركبَ المركبَ، ونكتبَ إلى عمِّناالإخبارِهِ بموعدِ وصولِنا. وقد علّمني والدي منذُ وقتٍ طويلٍ أنّ الانسانَ الذي يستدينُ بدلاً من كسبِ قوتِ يومِهِ بالجدِّ والعملِ لايفعلُ سوى تكبيلِ نفسِهِ بقيودِ الفقرِ والعُبوديّـة. وما ألـذّ ذلكَ الطعّامَ الذي نحصلُ عليه بما نكسبهُ من عرقِ جبيننا !

يا سيدي، عندما نكون فقراءَ، يجبُ أن نتحلّى بالشّجاعة. أليسَ كذلك يا طلال ؟

وردّ طلالٌ قائلاً :

ـ نَعَمْ يا أحمدُ، أوافِقُكَ على ذلك.

واستمرّ أحمد في حديثه قائلاً:

ـ وعلى كلِّ حالٍ، فإنّهُ بالصبرِ والشّجاعة والاحتمالِ ستتغلبُ على متاعبِ آلعملِ وسيمرّ الشهرُ بسرعة. وستكونُ رِجْلُ طلالٍ المريضةُ قد شفيتْ تماماً، وسيكون عمّنا فريد بدون شكٍ قد آسترجعَ عافيتَهُ، وسنصلُ ومعنا جميعُ مُدّخراتِنا بالكامل، بالاضافة لما سأكونُ قد كسبتُهُ من مالٍ من العملِ فوقَ المركب. وحينئذٍ قد نستطيعُ مساعدةَ عمِّنا فريد بدلا من أن نكونَ حملاً ثقيلاً عليه. ومن أجلِ كلِّ هذا، سنكونُ بنا حاجةً إلى قليلٍ من الشّجاعةِ لتحمّلِ متاعبِ وأعباءِ شهرٍ واحدٍ فقط. إذاً، سنكونُ في منتهى الشجاعةِ، أليسَ كذلك يا طلالُ؟

وقال البحّار:

ـ إنّني أتفقُ معك تماماً يا أحمدُ وقد أسعدني كلامُك كثيراً. إنّ رأيَكَ في منتهى الحكمةِ والصَّوابِ. وقد ذكّرتَني بأشجار منطقتِكَ، أشجارِ الصَّنوبر العظيمةِ، تلك الأشجارُ الضخمةُ التي لا يفسدُ قلبُها أبداً، التي نصنعُ من جذوعِها صواري مراكِبنا الممتازةِ، إنّها الوحيدةُ التي تستطيعُ الثباتَ في وجهِ العواصفِ والرياحِ الشديدةِ، وعندما تهبُّ العاصفةُ قويةً عنيفةً، فإنه لا يثبتُ أمامَها سوى تلكَ الصَّواري التي لا تنكسرُ أبداً، وإنما تنثني مثلَ أعواد الخيزرانِ ثم تنتصبُ بعدَ كلِّ عاصفةٍ مستقيمةً قويةً وصُلبةً كما كانت من قبل. فلتكونا مثلَ تلك الأشجارِ، ولا تنهزما أبداً أمامَ تجاربِ الحياةِ الصعبةِ، وتأكدا من أنّهُ إذا ماثبتُّما وقاومتما، فإنكما ستكونانِ بعدَ كلِّ تجربةٍ أكثرَ صلابةً وأكثرَ آستعداداً للمقاومةِ والنِّضال.



المـــزاج العصـــبي

"ليس هناكَ قلبٌ لا يمكنُ
اكتسابُهُ باللُّطفِ والوَداعة"

وفي اليوم آلمقبلِ ، استعملَ البحّارُ نفوذَهُ لدى أحدِ معارفِهِ من أصحابِ المراكبِ من أجلِ التعاقُدِ معهُ على آستخدامِ أحمد والسماحِ لطلالٍ بمرافقتِهِ. وبعدَ أخذٍ وردٍ، وافقَ صاحبُ المركبِ على ذلك، على أن يأخذَ أحمدُ عندَ الوصولِ مبلغاً يسيراً جِدّاً من المال.

وقال البحّار لأحمدَ :

ـ هذا مبلغٌ يسيرٌ جِدّاً، ولكنّ المركبَ ممتازٌ، والأكلَ فيه جيدٌ، وستنامانِ في مكانٍ لا بأسَ به. وهو بصفةٍ عامةٍ أحسنُ من المراكبِ الأخرى بكثير. أمّا

صاحبُهُ، فإنّهُ رجل طيّبٌ وشريف، برغمِ أنّهُ سريعُ الغضبِ وطبعُهُ حادٌّ ومزاجه عصبي. وما عليكما الآن سوى التمسُّكِ بالصبرِ الجميل.

شكر الطفلانِ صديقَهما البحّارَ شكراً جزيلاً، وودّعاهُ وحملَ كلٌّ منهما صُرَّتَهُ وهما في مُنتهى العزمِ والحزمِ والإصرار.

وقبلَ الانطلاقِ إلى الميناءِ، أرادَ طلالٌ تجربةَ رجلِهِ المريضَةِ ليعرِفَ مدى قوّتِها وصلابتِها، وقد استطاعَ أنْ يمشيَ بضعَ خُطواتٍ بالاعتماد بقوّةٍ على يدِ أحمد، والاتكاءَ على رجلِهِ المريضة. وقد أسعدَهُ ذلك سعادةً كبيرةً وأخذَ يُصَفِقُ بيديهِ فرحاً وسروراً ويقول:

- سترى بعينكَ يا أحمدُ، سأستطيعُ المشيَ بعد مُدَّةٍ قصيرة.

وكان أحمدُ فرِحاً مسروراً، ولكنّه لم يكنْ يرغبُ في أن يُرهِقَ طلالاً نفسَهُ، كما أنه كان يُريدُ الوصولَ إلى المركبِ حتّى لا يتأخرَ عن رئيسهِ الجديد. وحمل أحمدُ طلالاً بينَ ذراعيهِ، وانطلقَ يجري حتّى وصلَ الميناءَ وصعدَ المركب، ولكنّه برغمِ ذلكَ وصل متأخراً عن الميعادِ المُحدّد.

وجدَ الطفلانِ القبطانَ واقفاً على سطحِ المركبِ وصبرهُ نافذٌ وغضبُهُ شديدٌ، لأنّهُ لم يكنْ ينتظرُ سوى وصولهما لأعطاء إشارةِ الإقلاع. وقد قابلهما لسوءِ الحظِّ مقابلةً سيئةً وعاملهُما بعنفٍ وقال لهما بأنه نادمٌ على موافقتهِ على اصطحابِهما معهُ، وكرّر ذلك عِدّةَ مرّاتٍ أمامَ جميعِ البحّارةِ الآخرينَ، ثم أمر أحمدَ بإشارةٍ من يدهِ بوضعِ طلالٍ بينَ كيسي قمحٍ في أحدِ أركانِ المركب. واعتذَر أحمدُ بأدبٍ جمٍّ، بينما أصابَ الذهولُ طلالاً، فانكمشَ صامتاً في مكانِهِ لا يجرؤُ على الحركة.

أقلعَ المركبُ، وكان طلالٌ في حالةٍ نفسيةٍ سيّئةٍ، ولكنَّ ذلك لحسنِ

الحظَّ لم يدمْ طويلاً بعد أن خلّصتهُ من أفكارِهِ المتشائمةِ مناظرُ التُرعةِ والطبيعةِ الجميلةِ المحيطةِ به. وفَجْأةً رأى طلالٌ منظراً عجيباً لم يره قطُّ في حياتِهِ، فعندما وصلَ المركبُ أمامَ إحدى القناطرِ، توقفَ عن الحركةِ تماماً لأن القنطرةَ كانت منخفضةً جدّاً ولا تسمحُ بالمرورِ. وفجأة، وبعدَ إشارة معيّنةٍ بدأتِ القنطرةُ تتحرّكُ وتنفتحُ مثلَ مِصراعِ الباب، تاركةً المجرى حُرًّا أمامَ المركبِ الذي انطلقَ مرةً أُخرى في زهوٍ وُخَيلاء.

دهشَ طلالٌ لهذا المنظرِ، وودَّ لو سألَ أحدَ البحّارة عمّا رآهُ، ولكنَّ الجميعَ كانوا يعملونَ بجدٍّ ونشاطٍ وليس لديهم من الوقتِ ما يضيعونَهُ. وتطلّع طلالٌ إلى أحمدَ، فوجدهُ واقفاً على حافةِ المركب، وبيدِهِ عصا طويلةٌ في مُقَدَّمَتِها قَوسان قصيران مِنَ الحديد، وكان مثلَ غيرِهِ من البحّارةِ يغطّسُ العصا في الماءِ حتّى يلمس بها قاعَ الترعةِ، ثم يتكئُ عليها ويضغطُ بقوةٍ، وبعدَ ذلكَ يسحبُ العصا من الماءِ ويعيدُ العمليةَ نفسها من جديد. وهكذا كانَ يتمُّ تحريكُ المركب. وكان لذلك يسيرُ ببطءٍ شديد.

ظل طلالٌ مدةً من الوقتِ يتأمّلُ ويفكّرُ فيما يراهُ، ثم تناولَ كتابَهُ من جيبِ سترتِهِ وأخذَ يقرأُ فيهِ بانعامٍ وآهتمام.

وبينما كان طلالٌ منغمراً في قراءتِهِ، كان القبطانُ يراقِبُهُ خفيةً ويقولُ في نفسِهِ:

- يبدو على هذا الطفلِ الهدوءُ والرزانةُ، أمّا الآخرُ فيبدو عليه الذّكاءُ والحذِقُ والمهارةُ، كما أنهُ يُحِبُّ العملَ ولا يخشى التّعبَ والإجهاد. ويبدو لي أنّهما سيكونانِ أحسنَ بكثيرٍ ممّا كنتُ أتصوّر.

ولام القبطانُ نفسَهُ على المعاملةِ السيّئةِ التي قابلَ بها الأخوينِ، واقتربَ

من طلالٍ محاولاً إصلاح ما أفسدهُ كلامُهُ الشديدُ في البدايةِ، ولمسَ بيدهِ الكبيرةِ وجههُ وقال له :

- يبدو أنّك عالِمٌ كبيرٌ، فماذا تقرأ ؟

ثم آبتسمَ وأضافَ قائلاً :

- هل تظلُّ هكذا هادئاً حتّى نهايةِ الرِّحلةِ ؟ تقرأ في كتابِكَ وتتعلمُ منه وكأنّكَ في المدرسة ؟

وردّ طلالٌ قائلاً بهدوءٍ ولطف :

- نَعَمْ، وقد وعدتُ أخي أحمدَ بعدمِ ازعاجِكم على الإطلاق.

فقال القبطانُ :

- هذا شيءٌ عظيمٌ، فلنتصالحْ إذاً.

وتناولَ القبطانُ يدَ طلالٍ آليُسرى القريبةَ منهُ، وأخذَ يهزُّها بيدهِ علامةً على المحبةِ والصداقة. ولكنّ هذه اليدَ لسوءِ الحظّ كانت هي آليدَ المريضة، وآصفرَّ وجهُ طلالٍ، وكادت تصدرُ منه صرخةُ ألمٍ لولا أنّهُ تمالكَ نفسَهُ بشدةٍ. ولاحظَ القبطانُ ذلكَ، وغضِبَ وفقدَ صبرَهُ بسرعةٍ وقال :

- ماذا ؟ هل أنتَ مصنوعٌ من السُّكرِ، ويكفي لإمساكِكَ حتى تنكسرَ وتتناثر ؟

وتأوّه طلالٌ وتنهّدَ وردّ قائلاً :

- إن يديَ اليُسرى مثلُ رجلي مصابةٌ هي الأخرى بملخٍ مِفصَلي.

فقال القبطانُ وقد تلطّفتْ لهجتُهُ.

- يبدو أن حظّك معي سيءٌ ياولدي.

ونظرَ اليه طلالٌ بتأثرٍ وابتسمَ وقال ويدهُ لا تزالُ تؤلِمُهُ :

- بالعكس يا سيدي، إنّ حظي معك طيبٌ ما دمتَ لم تعُدْ غاضباً. وعلى كلٍّ

حال، فإنَّ المصافحةَ قد تمّت بيننا وهي دليلٌ على المحبةِ والصّداقةِ، أليسَ كذلك؟

وتلاشى تماماً غضبُ القبطان وقال :

- إنّك طفلٌ لطيفٌ جداً.

ثم انحنى على طلالٍ، ووضع يديه الكبيرتينِ القويتينِ تحتَ إبطيهِ وقال :



- وهنا ؟ هل تُوجد إصابات ؟

وضحك طلالٌ وقال :

- بالطبع لا .

حينئذ رفَع القبطانُ طلالاً في الهواءِ حتى أصبحَ على ارتفاعِ لحيتِهِ الكثّةِ، وقبّلهُ على وجنتيه وقال له :

- هذهِ علامةٌ إضافيةٌ على المحبةِ والصداقةِ التي بيننا. وبينما كانَ القبطانُ يضعُ طلالاً في مكانهِ بين كيسي القمحِ بلطفٍ ورقّةٍ، كان البحّارة يتابعونَ هذا المنظرَ العجيبَ بدهشةٍ واستغرابٍ، وقد سمِعَهم أحمدُ يقولون :

- لن يكونَ هذا الطفلُ الصغيرُ تعيساً هنا.

وعاد طلالٌ إلى كتابهِ وعلى وجههِ تبدو علاماتُ الرِّضى والتفاؤل. أما أحمدُ فقد امتلأ قلبُه بالبهجةِ والسُّرورِ بعد أن رأى اللّطفَ والوداعةَ ينتصرانِ على المزاجِ العصبي والطبعِ الحادِ والمعملةِ الفظّة.

******



اللقـــاء

"ما أجملَ لقاءَ الأهلِ والأحبابِ، واجتماعَ الشَّملِ مرةً أخرى"

ظلَّ المركب يسيرُ أياماً طويلةً في التُّرعةِ التي كانت تلتقي بنهرٍ كبيرٍ يصبُّ غرباً في المحيط الأطلسي.

وذاتَ يومٍ ، وصلَ المركبُ إلى النهرِ ودخلهُ بسهولةٍ ويسرٍ، ودفعَهُ تيّاره السريع فانطلقَ في مجراه بسرعةٍ كبيرة. وخلال هذه المدةِ كانت ساقُ طلالٍ قد شفيَتْ تقريباً، وبمقدارِ ما كانت تتحسنُ صحتُهُ، بمقدار ما كانت تزدادُ بهجتُهُ ورغبتُهُ في القفزِ والجري واللّهوِ واللّعب. وبمقدارِ ما كانت تقتربُ لحظةُ اللقاءِ مع عمِّه فريد بمقدارِ ما كانت تزدادُ حماستُهُ ويشتدُّ انفعاله،

وكان يفكّرُ باستمرارٍ في عمِّهِ ويقولُ في نفسِهِ :
ـ آملُ أن يكونَ عمّي فريد قد شفي هو الآخر.

وفي صباحِ يومٍ جميلٍ ، وصلَ أحمدُ و طلالٌ إلى المدينةِ التي بها عمُّهما . وبدأ المركبُ يدخلُ الميناءَ ببطءٍ، وكانَ جميعُ من عليهِ من البحّارةِ في منتهى الحرصِ والانتباهِ حتى لا يصطدمَ مركبُهم الصغيرُ بالمراكبِ الأخرى. وأخيراً رسا المركبُ على الرصيفِ الممتلىءِ بالحركةِ والمزدحمِ بالبحّارة والحمّالينِ الذينَ كانوا يجيئونَ ويذهبونَ بالبضائعِ المختلفةِ. ووضع البحّارةُ لوحاً واسعاً طويلاً من الخشبِ على حافةِ المركبِ من ناحيةٍ، وعلى الرصيف من الناحيةِ الأخرى، وبدأتْ حركةُ نقلِ البضاعةِ من المركبِ وإليه تسيرُ على قدمٍ وساق وبخفّةٍ ونشاط. ونزلَ القبطانُ وأحمدُ وطلالٌ من المركبِ إلى الرصيفِ، ولاحظَ القبطانُ بعينيهِ الحادتي النّظرِ، رجلاً جالساً على كومةٍ من الألواحِ في مكانٍ منعزلٍ، وقد علت وجهَهُ الصفرةُ وعلاماتُ المرضِ والتعبِ والإرهاق، وكانَ يبدو عليه الاهتمامُ الشديدُ بالمركبِ وبمن عليهِ من الرُّكاب.

ولمسَ القبطانُ كتفَ أحمدَ وقال له :
ـ أنظرْ، أراهنُك على أنَّ الرجلَ الجالسَ هناك هو عمُّك فريد الذي كتبتَ إليه منذ عدّةِ أيام.

ونظر أحمدُ إلى حيثُ أشارَ القبطانُ، وخفقَ قلبُهُ بشدّةٍ، لأنَّ الرجل كان يشبهُ أباهُ شبهاً كبيراً مما لايتركُ مجالاً للشّكِ، وصاحَ أحمدُ منادياً طلالاً، وأمسكَ كلٌّ منهما بيدِ الآخرِ، وأسرعا إلى حيثُ يجلسُ ٱلرجلُ الغريب.

وكانتِ الدهشةُ قد أصابت طلالاً أيضاً للشبهِ الكبيرِ الموجودِ بينَ الرجلِ

الجالسِ وبينَ والدِهِ، فأخذَ يتأوَّهُ ويقول :

ـ هو بالتأكيد عمُّنا فريد شقيقُ والدِنا.

في هذهِ الأثناءِ، كان العمُّ فريد لا يزالُ يتابعُ بآهتمامٍ كبيرٍ حركةَ الرُّكابِ والبحَّارةِ على المركبِ وأمامَهُ على الرصيفِ، وعندما رأى الطفلين يجريانِ نحوهُ، فكَّر فوراً في ولدي أخيهِ، وفتح ذراعيهِ وآحتضنهُما بحنانٍ ومحبةٍ وتأثرٍ شديدٍ وأخذَ يقبلُهما ويقول :

ـ كيف عرفتماني وَسَطَ هذا الجمعِ الغفيرِ من آلنَّاس ؟

وردَّ طلالٌ بصوتٍ مرتعشٍ من شدةِ الانفعال وقال :

ـ إنَّك تُشبهُ والدَنا بشكلٍ عجيبٍ، حتَّى أنني اعتقدتُ لحظةً أنَّك هو بنفسِهِ.

وكان العمُّ فريد قد خرجَ من المستشفى منذ أُسبوعٍ فقط، وآستأجَر غرفةً صغيـرةً في منزلٍ قـريبٍ من الميناءِ، وجهَّـزهـا لاستقبـالِ ولـدي أخيـهِ الصغيرينِ. وبالرغم من أنَّه كانَ طريحَ الفراشِ ومرضُه خطيرٌ، الا أنَّه كانَ يستعيدُ صحتَهُ بسرعةٍ نظراً لقوَّتهِ وضَخامةِ جسمِهِ ومتانةِ بنيتِهِ. وعندما سأله أحمدُ عن صحتِهِ، قال له وهو يبتسمُ :

ـ بعدَ أسبوعٍ واحدٍ فقط سأكونُ على أحسنِ ما يُرامُ، وسأستطيعُ العمـلَ حينئذٍ.

وردَّ عليه أحمدُ قائلا :

ـ من الأصوبِ يا عمي أن تستريحَ مدةً أطولَ، أسبوعينِ مثلاً، لأن الراحةَ ضروريةٌ لاسترجاعِ صحتِك وعافيتِك.

وشعرَ العمُّ فريد عندَ سَماع كلامِ أحمدَ بسعادةٍ غامرةٍ، فبعدَ الأحزانِ

والآلامِ والهمومِ التي عاشَها وحدَهُ، سيجدُ نفسَهُ من الآن فصاعداً معَ آبني أخيهِ اللطيفينِ : مع أحمدَ وحكمتِهِ وشجاعتِهِ، ومعَ طلالٍ وحيويتِهِ وحنانِهِ وبهجتِهِ التي لم يشعرْ بمثلِها منذُ وقتٍ طويل.

وذاتَ يومٍ ، قال العمُّ فريدٌ لابْنَي أخيهِ :

ـ أُريدُ الحديثَ معكما عَنِ الحالةِ التي نحنُ فيها. إنّكما تعرفانِ الفَوضى التي كانت سائدةً أيامَ الحربِ، وقد ترتّبَ على ذلكَ أنّ جميعَ أوراقي الرسميةِ أصبحتْ غيرَ ساريةِ المفعول. وبما أنّه أصبحَ من اللازم الآنَ أن أُعلن نفسي رسمياً وصيّاً عليكما. فإنّهُ يجبُ عليَّ القيامُ ببعضِ الاجراءاتِ القانونيةِ الضّروريةِ، ومنها تجديدُ أوراقي الرسميةِ كلِّها. إنّ القانونَ يكونُ في بعضِ الأحيانِ قاسياً ومتعباً، ولكن برغمِ ذلكَ يجبُ احترامُهُ، لأنّـه "القانونُ"، ولأنّـه يجبُ أن يكونَ فـوقَ ٱلجميع. وعلى هـذا الأساس، سيكونُ من اللازم أن نعودَ لقريتِنا، ولكنّ قريتَنا بعيدةٌ ومُدَّخَراتي ضئيلةٌ جدّاً لاتسمحُ لنا بذلك. وقد كنتُ حاولتُ آستثمارَ مبلغٍ كبيرٍ من ٱلمالِ، ولكنّه ـ ويالِلأسف الشديد ـ ضاعَ مني للأبد، وهو مبلغٌ كافحتُ من أجلِ توفيرِهِ مدةَ عشرينَ سنةً كلُّها كدُّ وجُهدٌ وحرمانٌ، وها أنا الآنَ أجدُ نفسي وكأنّني لم أفعلْ شيئاً في حياتي الماضيةِ، وعليّ أن أبدأ كلَّ شيءٍ من جديد. وعلى هذا الأساسِ ، سنُحاولُ القيامَ برحلةِ العودةِ إلى قريتنا بدونِ أن نُنفِقَ شيئاً، بل علينـا أن نَعملَ لكسبِ بعضِ المـالِ ، كما فعلتمـا في الأشهـرِ الأربعَـة الماضية. وأنتما تعرفانِ أنّني أعملُ في التجارةِ على السُّفنِ، ويوجـدُ في الميناءِ صديقٌ قديمٌ لي يعملُ بإحدى البواخرِ المتَّجهةِ إلى ميناءٍ قريبٍ من منطقتِنا، وقد وعدني بالتدخّلِ لدى ربّانِ الباخرةِ لإلحاقي بها.

وهتف طلالٌ بفرحٍ وسرور :

ـ أي أنّنا سنرى البحرَ مرةً أُخرى.

وردّ العمُّ فريد قائلا :

ـ نَعَمْ، ولكنّه بحرٌ آخرُ أعظمُ وأخطرُ وأشدُّ هولاً، إنّهُ المحيطُ الأطلسي، وليس البحرَ المتوسطَ الذي تعرفانِه. وما يُزعِجُني الآنَ يا طلالُ هو أنّك لن تذهبَ إلى المدرسةِ عِدّةَ شهورٍ أُخرى.

وقال طلالٌ :

ـ كنْ مُطمئناً يا عمي فريد، لأنّني سأدرسُ بالباخرةِ كما لو أنّني بالمدرسةِ، وسوف يُعطيني أحمدُ التمارينَ، وسأحلُّها وأردُّها له لتصحيحِها. وهكذا لن أكونَ مُتَخلِّفاً عن التلاميذِ الآخرينَ عندما نستقرُّ أخيراً وأذهبُ إلى المدرسةِ.





رحلــة جديــدة

"لافـرقَ عنـدَ الـرجـلِ
ٱلشَّـريفِ بينَ مـا يَعِـدُ بـهِ
مُشَافَهةً وما يتعهّدُ بِهِ كتابةً"

وفي انتظارِ إقلاعِ الباخرةِ التي ستأخذُ ٱلعمَّ فريد وأحمدَ وطلالاً إلى البحرِ مرةً أخرى، بدأ طلالٌ في تنفيذِ ما وعدَ به عمَّهُ فريداً بأن يكونَ مُجدّا ومُجتَهِداً، وألّا يضيعَ من وقتهِ الثمينِ شيئاً. وجلسَ في أحدِ أركانِ الغرفةِ الصغيرةِ وبيدِهِ لوحتُهُ المدرسِيّةُ وأخذَ يفكّرُ في نصيحةِ عمّهِ بأنْ يُحاولَ دائماً أن يكونَ منظَّمَا، ويسيرَ حسبَ برنامجٍ مُحَدّد. وبعدَ تفكيرٍ وتأملٍ، وضعَ طلالٌ برنامجاً يومياً للمدةِ التي سيقضِيها في البحرِ، وقد قسّمَ يومَهُ الى أربعِ مُدَدٍ، وخصّص المدةَ الأولى للمطالعةِ، والثانيةَ للتمارينِ، والثالثةَ

للدروس ، وترك المدةَ الرابعةَ للتّسلية والألعاب.

وأخيراً أقلعتِ الباخرةُ، ولم تمرَّ سوى بضع ساعاتٍ حتّى وجدَ طلالٌ نفسَهُ لسوءِ الحظِّ يُعاني من دُوّارِ البحرِ، وظلّتْ حالتُهُ كذلك لعدّةِ أيام ، والبحّارةُ يضحكونَ ويتمازحونَ معهُ ويقولون له :

ـ ذلك لا شيء ، وسوف تتحسّنُ حالتُك وتُصبحُ على أحسنِ ما يُرام.

ولكنَّ حالتَه ـ ويالِلأسف الشديد ـ لم تتحسنْ بسرعةٍ، وظلَّ مدةً لا يستطيعُ فيها الأكلَ ولا الشُّربَ، ولم يكنْ يتمنّى سوى شيءٍ واحدٍ، هو أن يعودَ للشاطىء ويضعَ رجليه على الأرضِ الصُّلبةِ الطيّبة.

وبمرورِ الوقتِ، بدأتْ حالتُهُ تتحسّنُ، وبدأ يتعودُ شيئاً فشيئاً على الحياةِ بالباخرةِ، وكانت لضخامتِها تبدو له كعَالَمٍ صغيرٍ، وكان يحلو له التّجولُ فيها والانتقالُ مِنَ السّطحِ إلى القاعِ ، ومن القاعِ إلى السّطحِ عدةَ مرّات في اليوم ، وكان يستفسرُ عن كل شيءٍ، ويُراقبُ البواخرَ في المحيطِ، ويسألُ عن جنسياتِها ومن أينَ أتت وإلى أينَ تسير.

وكانَ على ظهرِ الباخرةِ شخصٌ يُحبُّ طلالُ الحديثَ معه والاستفسارَ منهُ عن أيِّ شيءٍ يخطرُ على بالهِ، وهذا الشخصُ هو العمُّ جبرٌ مساعدُ ربّانِ الباخرةِ الذي كان يُحِبُّ الأطفالَ كثيراً، وكان يقضي النهارَ كلَّهُ تقريبا أمامَ الدّفةِ، يوجّهُ الباخرَةَ بمهارةٍ وثقةٍ على طولِ الشاطىء الذي كان يعرفُهُ تمامَ المَعرفة.

وكان العمُّ جبرٌ صديقاً قديماً للعم فريدٍ، وقد ركبا الباخرة نفسَها عدةَ مرّاتٍ، وواجها معاً العديدَ من أخطارِ البحرِ ومصاعبِهِ. وتصادقَ طلالٌ مع

العمِ جبر، وكانا يلتقيانِ يومياً ويتحادثانِ عن الكثيرِ من الأمورِ والأشياءِ، وكان العمُّ جبر يقصُّ عليهِ ما شاهدَهُ خلال رحلاتِهِ العديدةِ لمختلفِ بلادِ العالمِ ، وكان طلالٌ يُنصِتُ إليه بدونِ ملَلٍ ولا كَلَلٍ ، ولم يكن هناك شيءٌ أحبَّ إليهِ من الحديثِ مع العمِ جبر، والاستماعِ لحكاياتِهِ ولو لساعاتٍ طويلة. وفي بعضِ الأحيانِ كان طلالٌ يقرأُ في كتابهِ بصوتٍ مرتفعٍ ، بينما يُنصِتُ العمُّ جبر في عنايةٍ واهتمام. وذاتَ يومٍ استفسرَ طلالٌ من العمِّ جبر قائلاً :

- هل يجبُ على الإنسانِ أن يقضيَ في البحرِ المدةَ الطويلةَ التي قضيتَها حتى يتعلّمَ ويعرفَ كلَّ الأشياءِ الكثيرةِ التي تعلّمتَها وعرفتَها ؟

وردَّ مُساعِدُ الربّانِ قائلاً وهو ينظُر إلى البحر وإلى أمواجِهِ المتلطِمَة :

- نَعَمْ بالتأكيد. وقد طفتُ بجميعِ البحارِ والمُحيطاتِ طَوالَ الخمسَ والعشرينَ سنةً الماضيةِ، وكنتُ أُسافِرُ في مُختَلفِ الشُّهورِ والفُصولِ ، ولم أترِكْ قارةً ولا بلداً إلاّ وقضيتُ فيهِ بعضَ الوقت.

وقال طلالٌ :

- ألم تَملَّ وتسأمْ من البقاءِ طَوَالَ هذه المدةِ في البحرِ ؟ وفي مواجهةِ العواصفِ والأخطار ؟

ورد العمُّ جبرٌ قائلاً :

- لكلِّ مهنةٍ متاعبُها، ومهنةُ الملاّحِ لها هي الأُخرى متاعبُها الخاصّةُ بها، وقد اخترتُ أن أكونَ ملاّحاً، وتمسّكتُ بذلك لأنّني أُحبُّ البحرَ، وكما يقولُ المثلُ : ترعى العنزةُ في المكانِ المربوطةِ فيه.

وقال طلالٌ :

ـ أما بالنسبةِ لي ، فإنّني أُحبُّ الحقـولَ أكثر من البحـرِ، لأنّني أخافُ من الأمواجِ العاليةِ ومن العواصفِ.

وقال العمُّ جبرٌ :

ـ سأُجَرِبُ العملَ في الحقولِ عمّا قريب.

وسأل طلالٌ قائلا بدهشَةٍ :

ـ كيف ؟ ألن تبقى ملاحاً إذاً ؟

وردّ العمُّ جبرٌ قائلاً :

ـ لا ، لن أبقى ملاّحاً. والحقيقةُ أنّ زوجتي ورثتْ قطعةَ أرضٍ صغيرةً لم نكن نحسبُ لها أيَّ حِساب، وقد قرّرنا أن نستقرَّ فيها بعدَ عودتي من هذهِ الرِّحلة. وقد كانت زوجتي المسكينةُ وبناتي يُفضلنَ توقفي عَنِ العملِ في البحرِ منذُ وقتٍ طويلٍ ، نـظراً لغيابي المستمـرِ وللأخـطارِ العديـدةِ التي نتعرضُ لها كلَّ يوم. بل إنّهنَ كُنَّ يرغبنَ في عدمِ قيامي بهذهِ الرِّحلةِ، لأنَّ الطقسَ غالباً ما يكون في منتهى القبحِ في هذا الوقتِ من السنـةِ. وكما لاحظتَ، فإنَّ هذه المنطقةَ من البحرِ في مُنتهى الصعوبةِ، وقـد تعرضتْ باخرتُنا لعاصفةٍ خطيرةٍ في الأيامِ الماضيةِ، وما زال البحرُ كما ترى لم يهدأْ.

وقال طلالٌ :

ـ وعلى كلِّ حالٍ ، فقد فضّلتَ أنتَ القيامَ بهذهِ الرِّحلةِ لأنّكَ تُحبُّ البحرَ، أليس كذلك ؟

وردّ العمُّ جبرٌ قائلاً :

ـ لم يعُدْ هِياجُ البحرِ ولا عواصفُهُ تُشغِلُ بالي أو تُهِمُّني. ولكنّ الإنسانَ لا يفعلُ دائمًا ما يرغبُ فيه. وأنا شخصياً لم أكنْ أملِكُ شيئاً على الإطلاقِ،

ولكنّني فكّرتُ عندما ورثت زوجتي قطعةَ الأرضِ ، إنّهُ ربما سيكونُ من الأفضلِ أن نستقرَّ فيها ونجربَ مهنةَ الزراعةِ. وطلبتُ من الرّبانِ أن يُعفيَني من القيامِ بهذهِ الرّحلةِ، وأن يتركَني ،أذهبُ مع أُسرتي الصغيرةِ للاستقرار بأرضِنا الجديدةِ، ولكنّ الرّبانَ رفضَ ذلكَ رفضاً باتاً قاطعاً وقال لي :

"لقد وعدْتَني بالسّفرِ معنا، وأنا أعتمدُ عليكَ آعتماداً كليّاً لأنّهُ يستحيلُ عليَّ الآنَ العثُورُ على مساعدِ ربّانٍ ماهرٍ مثلِكَ يقودُ الباخرةَ في هذهِ الرّحلة. وليس هناكَ بالطبعِ تعاقُدٌ كتابيٌّ بيننا، فأنتَ لم توقّعْ أيَّ تعهُّدٍ مكتـوبٍ، ولذلك فأنتَ حرٌّ تماماً، ويمكِنُكَ عدمُ الذّهابِ معنا إذا قررتَ ذلك. أمّا بالنسبةِ لي، فإنّني لا أستطيعُ عملَ أيِّ شيءٍ، لأنّه ليسَ لديَّ سـوى وعدٍ منكَ، وهو وعدٌ شفويٌ فقطْ". وقد قلت لصاحب الباخرة وربّانها :

"هكذا إذاً، وأنتَ تعتقدُ أنّ وعديَ الشفويَّ لا يُساوِي أيَّ تعاقدٍ كتابيٍّ بيننا ؟ وأنّه لا فرقَ بينهما ؟ اسمعْ يا صديقي، فيكَ حاجةٌ لخدماتي، وأنت تعتمدُ عليَّ آعتماداً كاملاً ويستحيلُ عليكَ الآنَ العثورُ على من يحِلُّ محلّي، إذاً سأبقى وسأسافِرُ معكم في هذهِ الرّحلة".

ولم يقُلْ طلالٌ شيئاً، ولكنّه زفـرَ زفرةً طـويلةً وأخذَ يهُـزُّ رأسَهُ بـدهشةٍ واستغراب. وسأله العمُّ جبراً قائلاً :

ـ لمذا تزفُر وتهزُّ رأسَكَ هكذا ؟

وأجاب طلالٌ :

ـ آه، لو كنتُ مكانَكَ لكنتُ قد تركتُ كلَّ شيءٍ وذهبتُ إلى الأرضِ الطيّبةِ التي تنتظِرُني. فمنَ العجيبِ أن يتركَ أيُّ إنسـانٍ أرضَهُ ويـأتيَ إلى البحرِ ليتعرضَ للعواصفِ الرهيبَةِ مثلِ عاصفةِ ذلكَ اليوم. وعلى كلِّ حالٍ، فإنهُ

يكونُ من الصَّعبِ في بعضِ الأحيانِ على الإنسانِ أن يفيَ بجميعِ وعودِهِ.
وقال العمُّ جبرُ :
ـ صعبٌ أو سهلٌ، فإنهُ ليس للانسانِ الشّريفِ المخلصِ سوى كلمةِ شرفٍ واحدةٍ، وإذا أعطاها، فعليه أن يتحمّلَ مسؤوليةَ ذلكَ لأنّهُ لا يستطيعُ سحبَها، وإلاّ فإنهُ يُصبحُ إنساناً غيرَ شريفٍ ورجلاً بلا كلمةٍ. قل لي يا طلالُ :

ولو أنّني كتبتُ على ورقةٍ ما يأتي : "إنّني أتعهّدُ بأن أعملَ معكَ على الباخرةِ في الرِّحلة المقبلةِ"، وأعطيتُها للرّبان قبلَ أن ترثَ زوجتي قطعةَ الأرضِ، فإنّ هذه الكلماتِ ستظَلُّ موجودةً على الورقةِ مهما تغيّرتِ الظروفُ والأحوالُ، وحتى بعد أن ترثَ زوجتي قطعةَ الأرضِ، لأنَّ هذا الإرثَ لن يغيِّرَ من الأمرِ شيئاً، أليس كذلك ؟ وإذا مثلا أعتمدتُ على تغيّرِ الظروفِ ونكثتُ عهدي، فإنّهُ يكفي لأيِّ إنسانٍ أن يُلقيَ نظرةً على الورقةِ ليقول :

"يا لَلخزيِّ والعارِ، لقد نكثَ جبرٌ عهدَهُ وأخلفَ وعدَهُ وخانَ كلمةَ شرفِهِ". فهل تعتقُد أنّني أستطيعُ التراجُعَ عن تعهداتي ما دامت ليست هناكَ ورقةٌ مكتوبةٌ وليس هناك دليلٌ يستطيعُ أيُّ إنسانٍ آستخدامَهُ ضدِّي ؟ لا، لا يا طلال، إنّني لا أستطيعُ ذلك، لأنَّ ضميري هو الذي يُراقِبُني، وقد كان سيؤنّبُني تأنيباً مُمِضاً شديداً لو أنّني فعلتُ ما يخالفه.

وآحمرّ وجهُ طلالٍ خجَلاً لأنّهُ فكّر بشكلٍ غيرِ صائبٍ، وقال :
ـ لقد فهمتُ الآنَ، وسأُحاولُ أنا أيضاً أن أتمسّكَ بوعودي، وألاّ أُخالِفَ عهودي، وأن أكونَ أميناً ومخلصاً في سِيرتي وسُلوكي.



غـــرقُ الباخـــرة

"ألخِزيُ والعارُ للأناني الذي لا يُفكِّرُ إلاّ في نفسِهِ، لأنّ الانسانَ الشّهمَ الشُّجاعَ هو الذي يُضحّي بمصلحتِهِ الخاصةِ في سبيلِ مصلحةِ الجميع"

وذاتَ يوم، نامَ طلالٌ متأخراً جِدّاً، لأنَّ البحّارةَ جميعاً كانوا في مُنتهى الانزعاجِ والقَلَقِ نظراً للازديادِ المُستمرِّ في هَيَجَانِ ٱلبحر.

وبينما هو غارقٌ في النومِ كما ينام كلُّ الأطفالِ في سنِّهِ، آستيقظَ بغتةً على صوتِ ضوضاءِ حركةِ البحّارةِ الذينَ كانوا يغدونَ ويروحونَ في هرجٍ ومرجٍ على سطحِ الباخرةِ فوقَ الغرفةِ التي ينامُ فيها. وأخذَ طلال يسمعُ في الوقت نفسِهِ دوياً مستمراً كقصفِ الرّعدِ، وهزيزاً حاداً وزمزمةً تصمُّ الآذان، وكان قد سمِعَ مثلَ هذه الأصواتِ من قبلُ، في أثناءِ العاصفةِ التي هبّتْ على الباخرةِ في بدايةِ الرِّحلةِ، ولكنّها كانت أقلَّ شدّةً وحدّةً. وقال طلالٌ في نفسِهِ

والاضطرابُ يجتاحُه :

ـ واحَسْرَتاهُ، هاهيَ ذي العاصفةُ مرةً أُخرى.

وبحثَ عن أخيهِ ولم يجدْهُ، لأن أحمدَ كان قد استيقظَ قبلَ ذلكَ الوقتِ وغادرَ الغرفةَ والتحقَ بالبحّارةِ الآخرينَ للاشتراكِ معهم في مواجهةِ العاصفة.

وحاول طلالٌ أن ينهضَ، ولكنّه لم يستطعْ ذلك لأنّ البحرَ كان يهزُّ الباخرةَ هزّاً عنيفاً، وحال مرةً أخرى أن يقفَ، ولكنّه وجدَ نفسَهُ منبطحاً على الأرضيةِ من شدّةِ الاهتزاز. وبدأ طلالٌ يشعُر بالخوفِ يتسرّبُ إلى نفسِهِ وبقلبِهِ يضربُ بشدةٍ من الهلعِ والاضطرابِ، ولكنّه برغم ذلك آستجمعَ قُواهُ وشجاعَتهُ، ولبس ملابسَهُ بسرعةٍ، وفتحَ بابَ الغرفةِ وخرجَ منها، وخطا بضعَ خُطُواتٍ مُعتَمِداً ومتكئا على آلحائط. وبدأ دويُّ العاصفةِ يبدو حينئذٍ أشدَّ هولاً بشكلٍ مخيفٍ، وبدأ القصفُ يتوالى بغيرِ آنقطاعٍ، وآضطُرَّ طلالٌ برغمِ أنفِهِ لإغماضِ عينيهِ من شدّةِ ضوءِ البرقِ، وفي الوقتِ نفسهِ كان هديرُ البحرِ يرتفعُ بعُنفٍ رهيبٍ ويُغطيّ أحياناً على دَويِّ العاصفةِ المُخيف.

رفعتِ الأمواجُ العاليةُ كالجبالِ الباخرةَ إلى أعلى فجأةً، ثم هوت بها فوقَ بعضِ الصخور، وسمِعَ طلالٌ طقطقةً رهيبةً، واهتزّت الباخرةُ آهتزازاً شديداً، ثم وجدَ نفسَهُ مرمياً على الأرضيةِ من هولِ الصدمة.

ارتفعت في الباخرةِ صَيَحاتُ الرُّعبِ مختلطةً بهزِّ الرِّياحِ ودويِّ الأمواجِ، وأصابَ طلالٌ ذُعرٌ لا مثيلَ له، وأخذَ يصيحُ بكلِّ ما لديهِ من قوّةٍ وعزيمةٍ ويُنادي ويستغيثُ بأخيه، وفي تلك اللحظةِ بالذّاتِ، وصل أحمدُ ليكونَ مع أخيهِ الصغيرِ في وقتِ الشدّةِ والخطرِ الماحقِ الذي يُهدّدُ الجميعَ،

وعندما وجدَهُ مرميّاً على الأرضيّةِ، رفعَهُ بحنانٍ وضمّه إلى صدرِهِ وقال له :
ـ لا تجزعْ ولا تيأسْ يا طلالُ، إنّني معكَ ولن أُفارِقَكَ أبداً. ثم أضاف بصوتٍ منخفض :
ـ ولكنْ علينا أن نتحلّى بالشَّجاعةِ والإيمانِ، لأنّ بنا حاجةً شديدةً إليهما.

وظلّ أحمدُ يحملُ أخاه بينَ ذراعيهِ، وأخذَ يُحدِّثُهُ ويُحاوِلُ رفعَ معنوياتِهِ. ولم يكنْ أحمدُ قد تغيّر بالمرّة، وكما كان في أثناءِ حريقِ المزرعةِ، ظلّ كذلك في هذهِ المحنةِ العصيبةِ، محافظاً على هدوءِ أعصابِهِ وحُسنِ تصرُّفِهِ أثناءَ الخطرِ، وقد بذلَ أقصى جُهدِهِ مع البحّارةِ الآخرينَ من أجلِ إنقاذِ الباخرة.

ولكنْ برغم جميعِ الجهودِ الجبّارةِ التي بُذِلَتْ، لم يكن في الإمكان لسوءِ الحظِّ إنقاذُ الباخرةِ بعد أن لعبتْ بها العاصفةُ، ورمتها الرّياحُ والأمواجُ عدّةَ مرّاتٍ على الصُّخورِ، وانشقَّ جنبُها وغمرتِ المياهُ جوفَها، وبدأت تغوصُ في البحرِ وكأنّ يداً خفيةً تجذِبُها إلى الأعماق. ولم يبقَ عندئذ أمامَ الجميعِ سوى إنقاذِ ما يمكنُ إنقاذُهُ وفي المقدّمةِ البحّارةُ أنفسهُم. وصل أحمدُ إلى سطحِ الباخرةِ بصعوبةٍ شديدةٍ جدّاً، وهو لايزالُ يحملُ طلالاً بينَ ذراعيهِ، واضطُرَّ بمجرّدِ وصولِهِ إلى الاحتماءِ بأحدِ الصواري والإمساكِ بهِ خوفاً من أن تقلِبَهُ الأمواجُ الهائجةُ العاليةُ التي كانت تندفِعُ بعُنفٍ فتُغرقُ سطحَ الباخرةِ بمياهِها الباردةِ، وتسحبُ معها كلَّ ما تجدُهُ أمامَها إلى أعماقِ البحر.

ولاحظ أحمدُ أنّ البحّارةَ قد أنزلوا إلى الماءِ قاربَ الانقاذِ الكبيرِ، وأن البعضَ منهم فقد جأشَهُ وأخذَ يجري هُنا وهُناك بدونِ هدفٍ وفي فوضى

واضطراب. وسمع أحمدُ أحدَ البحّارة يصيحُ ويقولُ بأن "القارَب لن يتّسِعَ للجميعِ إذا دخلَ في الحسابِ العمُّ فريدُ وأحمدُ وطلالُ الذين لا يمكن اعتبارُهُم ضمنَ طقمِ الباخرةِ الأساسي".

وأمر ربّانُ الباخرةِ بإنزال قارَبٍ آخرَ إلى البحرِ، وكان هذا القاربُ أصغرَ وأخفَّ وأقلَّ صلابةً من القارَبِ الأولِ، بحيثُ لم يكنْ يبدو عليه أنّه سيستطيعُ الثباتَ ولو لحظةٍ واحدةٍ أمامَ الأمْوَاجِ العنيفةِ العالية. وعندما لمسَ القاربُ الماءَ، اقتربَ أحدُ البحّارةِ من الربّان وقالَ له بوقاحةٍ شديدةٍ وهو يُشيرُ إلى القارَبِ الصّغير:

ـ لن يركبَ أيُّ بحّارٍ من طقم الباخرةِ الأساسي في هذا القارَبِ، لأنّ القاربَ الكبيرَ سيستوعبُ ولو بصعوبةٍ جميعَ أفرادِ هذا الطقم. أما النّجارُ وولدا أخيهِ اللّذينَ جئتَ بهم تحتَ مسؤوليتِكَ، فهؤلاءِ لا مكانَ لهم في القاربِ الكبيرِ، وليس أمامَهم سوى ركوبِ القارَبِ الصغير إذا أرادوا مغادرةَ الباخرة.

وتلا ذلكَ صياحُ بعضِ البحّارة الذين أخذوا يكرّرونَ ما قاله البحّارُ، وحاول الربّانُ إسكاتهم واستنكارَ موقفِهم السّافِلِ، إلا أنّهم لم يسمحوا له بالكلامِ وقاطعُوه صائحينَ بصوتٍ واحد وكأنّهم يُريدون إقناع أنفسهم:

ـ القاربُ الكبيرُ للبحّارةِ الأساسيينَ فقط، ولن نتنازَل عن أيِّ مكانٍ لأيِّ شخص. ذلك حقُّنا وسندافعُ عنه. وبرغمِ ذلك، حاولَ ربّانُ الباخرةِ أخذَ طلالٍ من بينَ ذراعي أحمدَ وتسليمَهُ لأحدِ البحّارة في القارَبِ الكبيرِ، إلاّ أنّ الصغيرَ تعلّقَ بقُوّةٍ بعُنُقِ أخيهِ وأخذَ يبكي ويقول:

ـ لا أُريدُ أن أترُكَ أخي، فامّا أن ننجوَ معاً أو نموتَ معاً. وبدأ صِياحُ البحّارةِ يتعالى من جديد، وبدأ أحمدُ يسمعُ من خلالِ دويِّ العاصفةِ أصواتَهم

تقول :

ـ ليبقَ إذاً، فكلُّ شخصٍ مسؤولٌ عن نفسِهِ.

وبدأ الوقتُ يأزفُ واللحظاتُ تضيعُ، والباخرةُ تغوصُ شيئاً فشيئاً، وصياحُ البحّارةِ يزدادُ، ولم يجدِ العمُّ فريدٌ بُدّاً من آتّخاذ قرارٍ سريع، فتوجّه إلى القارَبِ الصّغير وقال لأحمدَ :

ـ تعالَ يا ولدي، وأعطني طلالاً حتّى لا يعوقَك عن النزولِ إلى القارَب.

وكان العمُّ فريدٌ يتكلم وفي صوتِهِ رعشةٌ شديدةٌ واضطرابٌ كبيرٌ، وكان يبدو كرجلٍ يقودُ أعزَّ ما لديه في الحياةِ إلى الموتِ الأكيدِ، لأنّه لم يكنْ يعرِفُ قواعدَ الملاحةِ ولا الأماكنَ الخطرةِ في هذهِ المنطقةِ من آلبحر، كما لم تكنْ تبدو على القاربِ الصّغير الصلابةُ اللاّزمةُ لمقاومةِ الأمواجِ العاليةِ والعاصفةِ الرهيبة.

وفي اللحظة ذاتِها ارتفعَ صوتُ العمِّ جبرٍ قائلاً :

ـ انتظرني يا فريد فلستُ أنا الذي أتخلّى في وقتِ الخطرِ عن طفلينِ صغيرينِ وعن صديقٍ حميمٍ. فإمّا أن ننجوَ معاً وإمّا أن نهلِكَ جميعًا.

ثم وجّه كلامَهُ للربّانِ الذي كان في حَيْرَةٍ شديدةٍ ولا يدري في أيّ قاربٍ عليه أن يركب وقال :

ـ أيُّها الربانُ الشَّهمُ الشُّجاعُ، إنَّ مكاني هنا مع أصدقائي، ومكانُك أنتَ هناك مع رجالِك، فآرحلْ بالسّلامة، وسأتولّى أنا أمرَ هذا القارِبِ آلصغير.

وتوجّه الربانُ إلى القاربِ الكبيرِ، وبعدَ لحظةٍ اختفى القاربُ عن الأنظارِ مبتعداً في الضّبابِ والظلامِ، وظلّ العمُّ جبرٌ والعمُّ فريدٌ والطّفلانِ الصغيرانِ أحمدُ وطلالٌ وحدَهم في القاربِ الصّغيرِ الذي بدأتْ تتلاعبُ بهِ الأمواج.

قاربٌ صغيرٌ في مَهبِّ الرّياح



"كيف يمكنُ ردُّ المعروفِ والوفاءُ بالدّينِ لمن أحسَنُوا إلينـا، إذا لم يكن ذلـك بتقديمِ المساعدةِ لمن بهم حاجةٌ إليها ؟"

كانَ القاربُ خفيفاً لدرجةٍ تراءى فيها لطلال أنّ أيّةَ موجةٍ تستطيعُ التهامَهُ من أولِ وهلةٍ، إلا أنّه كان لحُسنِ الحظِّ صُلباً قوياً، وبدأ يرتفعُ إلى قممِ الأمواجِ ثم ينحدرُ بسرعةٍ إلى الهاويةِ التي تتركُها وراءَها، وكان يبدو وكأنّهُ يتمرجحُ على سطحِ الماءِ، والعمُّ جبرٌ يُمسِكُ الدّفةَ، بينما يقوم العمُّ فريدٌ وأحمدُ بالتجديفِ بعزيمةٍ من حديد.

وكانت كلُّ موجةٍ تتركُ في القاربِ عندَ مرورِها بعضَ الماءِ، ولولا طلالُ

الذي يقِفُ في الوَسَطِ عاريَ القدمين، ويقومُ بتفريغ القاربِ بهمةٍ ونشاطٍ، ولولا أحمدُ الذي كان يترُكُ مجدافهُ أحياناً ويساعدُ طلالاً في مهمتِهِ، لكان القاربُ قد امتلأَ بالماءِ لآخرِهِ وغرِقَ منذ وقتٍ طويل.

أما الخطرُ الماحِقُ الذي كان يُهدِّدُ القاربَ الصغيرَ، الذي كانَ العمُّ جبرٌ يخافُ منه ويخشاهُ، فكانت الصخورَ التي أغرقتِ الباخرةَ، التي كانت تختفي تحتَ سطحِ الماء، وتكشفُ عن مكانِها إمّا عن طريقِ الهديرِ المستمرِّ الناتجِ عن آرتطام الأمواجِ بها الذي يعرفُ البحّارةُ المهرةُ صوتَهُ معرفةً جيدةً، وإمّا بطريق خطٍّ طويلٍ أبيضَ منَ زَبدِ البحر، يظهرُ عندما يخترقُ نورُ القمر ظلامَ الليل، لينبئَ عن وجودِ تلكَ الصخورِ القاتلةِ الكامنةِ تحتَ المياه. وكان العمُّ جبرٌ يعرِفُ جميعَ شواطىءِ المنطقةِ وخفاياها، وكان يعرفُ بشكلٍ أفضلَ بكثيرٍ هذا الشاطئَ الرهيبَ، ولذلك كان يقودُ القاربَ الصغيرَ بين صخورِهِ بمهارةٍ منقطعةِ النظير. ولم يكنْ هُناك أيُّ ميناءٍ قريبٍ يستطيعُ العمُّ جبر الاتجاهَ إليه والاحتماءَ بهِ، ولذلك لم يعُدْ أمامه سوى الابتعادِ عن الشاطىءِ الممتلىءِ بالصُّخورِ والتّوغلِ في البحرِ على قدرِ الإمكان.

وبعد ليلةٍ طويلةٍ جدّاً، قضاها الجميعُ في قَلَقٍ شديدٍ، بدأ نورُ الصّباحِ يُضيءُ البحر الهائج، ولم يكن يبدو على سطحِهِ سوى القاربِ الصغيرِ وقد لفَّهُ ضَبابٌ كثيف.

ونظرَ الرُّكابُ الأربعةُ بعضُهم إلى بعضٍ، وَفَجْأةً مدّ العمُّ فريدُ يديه وأمسكَ بهما يدَ العم جبر، وضغطَ عليها وكأنّ فكرةً خطرت على بالِهِ، ثم قال له بصوتٍ يخنقُه التأثرُ الشّديد:

- يا جبرُ، كيفَ نردُّ لك دينَكَ الذي في عُنقِنا؟ فلولاكَ لكان البحرُ قد ٱبتلعنا منذُ وقتٍ طويل.

وفي هذه اللحظةِ بالذّاتِ، هبّتْ بغتةً على القاربِ الصغيرِ ريحٌ عاتيةٌ، وكانت فجائيةً وقويةً بدرجةٍ لم تتركْ لأصدقائِنا الفُرصةَ للاستعداد لها، وأقبلتْ على القاربِ من الأمامِ موجةٌ عاليةٌ جبّارةٌ هادرةٌ، فكسرت المجدافين مرةً واحدةً، وفي الوقت نفسهِ ملأت نصفَ القارَبِ بالماءِ، وقلبت طلالاً، وأغشت أحمدَ والعمَّ فريداً فلم يعودا يُبصِرانِ أمامَهما شيئاً. ولم تستمرَّ العاصفةُ سوى مدةٍ قصيرةٍ جدّاً، وكانت دهشةُ أصدقائنا الأربعةِ كبيرةً عندما وجدوا أنفسَهم ما زالوا في القاربِ الذي كان برغمِ ٱمتلائِه بالماءِ لا يزالُ يطفو على السّطح، وكان لسوءِ الحظِّ في حالةٍ يُرثى لها، فقد انكسرتْ دفّتُهُ ومجذافيه، وأصبحَ من المستحيلِ توجيهُه أو تحريكُه، وبدأ وكأنّه وركابُهُ الأربعةَ مثلُ حُطامٍ عائمٍ تحتَ رحمةِ الرّياح والأمواجِ التي تستطيعُ في أيّة لحظةٍ أن ترميَهُ بعُنفٍ وتحطمَهُ تماماً على صخورِ الشاطئ. وأسرعَ الأصدقاءُ الأربعةُ بتفريغِ القاربِ من ٱلماءِ، واستمروا في ذلكَ لمدةٍ طويلةٍ، وعندما انتهوا تماماً من مهمتِهم الشاقةِ، رجعَ كلٌّ منهم إلى مكانهِ ونفسُهُ ممتلئةٌ بالهمِّ الممضِّ والقلقِ الأليم.

وجلسَ العم جبرٌ بلا حَراكٍ في قاعِ القاربِ، وقد علت وجهَهُ الكآبةُ الشديدةُ، وأخذَ يُراقِبُ الأفقَ الغارقَ في الضّبابِ بحزنٍ وأسى، واغرورقت عيناهُ بالدُّموعِ وكأنّهُ لمحَ بخيالِهِ هناكَ بعيدًا عن البحرِ منزلاً صغيراً بينَ الأشجار، وبه ٱمرأةٌ قلِقَةٌ وثلاثُ بناتٍ جميلاتٍ، هُنّ زوجتُهُ الحبيبةُ وبناتُه الغاليات.

وتنهّد الرّجلُ العجوزُ من أعماقِهِ، وظلّت عيناهُ تحومُ في الأُفُقِ الخالي وفي حلقهِ غصةٌ وفي قلبهِ حزنٌ مُقيم. وعندئذٍ، شعرَ العجوزُ بطلالٍ يضعُ يديهِ الصغيرتينِ على كتفيهِ، وسمِعَهُ يهمسُ في أُذُنيهِ بصوتِهِ الحنونِ وكأنّه فهمَ بروحِهِ البريئةِ ما يدوْرُ في أعماقِ نفسه :

ـ أيُّها العمُّ جبرٌ، أرجوكَ وأتوسلُ إليكَ، لا تظلَّ هكذا حزيناً مهموماً، لأنّني متأكدٌ من أنّك سترى مرةً أخرى عائلتَكَ ومنزلَك.

ولم يفهِ العمُّ جبرٌ ببنتِ شفةٍ، وأخذَ طلالٌ بينَ ذراعيهِ واحتضَنَهُ بحنانٍ وانفعالٍ وتأثرٍ شديدٍ، ثم قال بعدَ قليل :

ـ أرجو ذلك يا طلالُ، أرجو ذلك.





الغـــريـــق

"منْ الواجبِ علينا في وقتِ المحنةِ ألاّ نيأسَ ونفقدَ الأملَ، وأن نتفاءلَ ونناضلَ حتّى النهاية"

أثرت كلماتُ طلالٍ تأثيراً بالغاً في العمِّ جبرٍ، ولم تمضِ سوى لحظاتٍ، حتّى كان العجوزُ قد آستجمعَ قُواه واسترجعَ رباطةَ جأشِهِ وهدوءِ أعصابِهِ، وأبعدَ عن فكرِهِ كلَّ الأفكارِ التعيسة. ونظَر العمُّ جبرٌ إلى أحمدَ وطلالٍ وقال لهما :

ـ لا شكَّ في أنكما في مُنتهى التَعبِ والإرهاق، وما دُمنا لا نفعلُ شيئاً سوى النظرِ للأمواجِ وهي تلعبُ بقارِبِنا كما تشاءُ وتودُّ وتشتهي، فلنتناولْ إذاً شيئاً من الطَّعامِ نسدُّ بهِ رمقَنا ونسترجعُ بعضَ قُوّانا.

وكان العمُّ جبرٌ قد تزوّد في أثناءِ مغادرتِهِ للباخرةِ بقليلٍ من الخبزِ اليابسِ ، واللحمِ آلمجَفّفِ، وبرميلٍ صغيرٍ من الماءِ الحُلوِّ الصالحِ للشُّرب. وأكلَ أصحابُنا الأربعةَ وشربُوا، وأخذوا يشعرونَ براحةٍ وتحسُّنٍ كبيرينِ، وبدأتْ تعلو وجوهَهم أكثر من أيّ وقتٍ آخرَ علاماتُ التفاؤلِ والشّجاعةِ والأمل.

وظلّ القاربُ يعومُ بلا هدفٍ، تتقاذَفُهُ الأمواجُ وتلعبُ به الرِّياحُ، وأنظارُ رُكّابِهِ الأربعةِ تتعلّقُ بالأفقِ آلواسعِ آلعريض. وكان طلالٌ ينظُر كالآخرينَ إلى البحرِ بآهتمامٍ شديدٍ، وفَجْأةً اقتربَ من العمِّ فريدٍ وقال له :

ـ أنظر يا عمي، هناك شيءٌ ما يطفو على سطحِ الماءِ، فما هو يا تُرى ؟

وردّ العمُّ فريد قائلاً :

ـ لا شك في أنهُ بعضُ الحُطامِ الذي تركتهُ العاصفةُ وراءَها، وربما كان بعضُ بقايا الباخرةِ الغارِقة.

وقال أحمدُ بحميةٍ :

ـ لا يا عمي، ويبدو لي أن ذلك جسمُ انسانٍ غريق. ألا ترى ملابِسَهُ منتفخةً بالماءِ بشكلٍ واضح ؟

وصاحَ العم جبرٌ قائلاً :

ـ معكَ حقٌّ يا أحمدُ، ولا شكَ في أنه أحدُ الضّحايا مثلِنا، ولكنّ حظّهُ كان أسوأ من حظّنا بكثير.

وتركّزت جميعُ الأنظارِ في ذلكَ الشيءِ الذي لم يتأكّدوا من حقيقتِهِ بعد، وكلُّ واحدٍ يُحاوِلُ أن يخمِّنَ ما هو بالضّبط.

وَفَجْأةً دفعتْ موجةٌ قويةٌ ذلكَ الشيءَ، وقرّبتهُ من القاربِ، وصاحَ العمُّ

فريدٌ وقال بعدَ أن رأى وجهَ الغريقِ الشّاحب :
ـ يا لَلسّماء، إنّهُ ربّانُ الباخرة.

ولكنّ جسمَ الغـريقِ كان لا يـزالُ بعيداً عن متنـاولِ أيادي أصحـابِنـا الأربعةِ، وبعدَ محاولاتٍ عديدةٍ، استطاعَ العمُّ جبرٌ جذبَهُ بمجموعـةٍ من الحبالِ كانت بالقارَبِ، ثم تعاونَ الجميعُ على رفعِهِ، وعلى الفورِ أضجعوه على جنبِهِ، وفتحَ الأبُ جبرٌ فمَهُ فخرجَ منه كثيرٌ من الماءِ، وقامَ بعدَ ذلك بتدليكِ جميعِ أنحاءِ جسمِهِ لبعثِ الحرارةِ فيه، ثم أضجعَهُ على ظهرِهِ، وضغطَ بيدِهِ على صدرِهِ، وحرّكَ نصفَهُ العُلويَّ إلى الأمامِ ثم أرجعهُ للخلفِ مرةً أخرى، وكرّر هذهِ العمليَةَ عدةَ مرّاتٍ من أجلِ تنشيطِ عمليةِ التنفسِ، ولكنّ الجسم برغمِ ذلكَ ظلَّ بلا حراك. ولم ييأس العمُّ جبر ولم تبردْ همتُهُ، ووضعَ فمَهُ على فمِ الغريقِ، وأخذَ يتنفسُ فيهِ على مَهْلٍ، وظلَّ يفعلُ ذلكَ بصبرٍ عجيبٍ لمدةٍ طويلةٍ إلى حدٍ ما. وفي الوقت نفسِهِ كان أحمدُ وطلالُ قد خلعا سِترتيهما وغطّيا بهما الغريقَ لتدفئتهِ. وأخيراً، بدا وكأنّ تنفسَ الربانِ يتجاوبُ مع تنفسِ العمِ جبر، وارتعشَ جسمُهُ آرتعاشاً خفيفـاً وتحركتْ شفتاهُ وانفتحتْ عيناهُ، وأسرعَ العمُّ فريدُ بتناولِ برميلِ الماءِ، وصبَّ بعضَ قطراتٍ منهُ في فمِهِ، فانتعشَ وعادت إليهِ الحركةُ تماماً بعدَ قليل. وعندما أصبحَ الربانُ قادراً على الكلام، قصَّ على هؤلاءِ الذينَ أنقـذتهُ عنـايتُهم الذكيةُ من الهلاك، حكايَةَ القاربِ الكبير، وقال لهم بأنّ القاربَ كان يحملُ من البحّارة أكثرَ من طاقتهِ، وأصابَهُ عَطَبٌ وتسربَ فيهِ الماءُ، فغرقَ بسببِ ذلك. ثم أخبرهُم بأنّهُ لا يعرفُ ماذا جرى للبحّارةِ الآخرينَ، أما بالنسبةِ له، فقد سبحَ لعدةِ ساعاتٍ على أملِ أن تلتقطَهُ إحدى البواخرِ، ورأى على البعدِ

القاربَ الصغيرَ، فاتّجهَ إليه، ولكنَّ قُواهُ خانتهُ ـ ويا للأسف الشديد ـ ، ففقدَ وعيهُ ولم يعُدْ يشعرُ بأيِّ شيءٍ بعدَ ذلك.

وبدأتِ الرياحُ تهدأُ قُبيلَ الظهيرةِ، وأخذَ الضَّبابُ الكثيفُ الذي كان يكتنفُ القاربَ من جميعِ الجوانبِ ينقشعُ شيئاً فشيئاً، وأصبحَ في إمكانِ ركّابهِ الذينَ زاد عددُهم واحداً أن يروا الأفقَ جيداً ويراقبوهُ من جميعِ الجهات.

وقال العمُّ جبرٌ :

ـ لو أنّنا في الأيامِ الاعتياديّة، لكانَ من المنتظَرِ أن نرى بعدَ قليلٍ بعضَ البواخرِ في هذهِ المنطقةِ، لأنّها مطروقةٌ جدّاً، ولكنّني لا أعتقدُ أنّ البواخر ستجرؤُ على الخروجِ إلى عُرضِ البحرِ إثرَ هذهِ العاصفةِ الهوجاءِ، وسيكونُ حظُّنا سعيداً جداً لو أنّ إحداها أبحرتْ وجاءتْ لإنقاذِنا.

وقال الرّبان :

ـ نتمنّى ذلكَ على أيِّ حال.

واستمرّ القاربُ يطفو ويتحركُ على سطحِ الماءِ بفضلِ الأمواجِ الصّغيرةِ والرِّياحِ الخفيفةِ لمدةِ ساعتينِ تقريباً، وقبيلَ الساعةِ الثانيةِ بعدَ الظُّهرِ، شاهدَ الركابُ من ناحيةِ الجَنوبِ نقطةً صغيرةً بيضاءَ يصعُبُ تمييزُها عن رغوةِ الأمواجِ، وظلَّ أصدقاؤنا الخمسةُ يتابعونَ تلكَ النقطةَ باهتمامٍ شديد، وأخيراً صاحَ العمُّ جبر قائلاً :

ـ إنّها باخرةٌ، ليتها تأتي إلينا !

وبدأتِ الباخرةُ تقتربُ ببطءٍ، وبعدَ نصفِ ساعةٍ من الانتظارِ المُمضِّ، استطاع أصحابُنا تمييزَ صواري الباخرةِ الثّلاثة، وقال الرّبان :

ـ يستطيعُ ركابُ الباخرةِ رؤيتَنا الآنَ، فلنحاوِلْ إثارةَ آنتباههم.

وأخذَ منديلاً أحمراً وربطَهُ في طرفِ المجذاف المكسورِ، ثم أعطاهُ للعم جبرٍ باعتبارهِ أطولَ الجميعِ قامةً وأكثرهم ضخامةً، وطلبَ منه أن يقفَ ويحركَ المنديلَ طلباً للإغاثةِ وإشارةً لما هم فيهِ من شدّةٍ وضيقٍ ومحنة.

ووقف العم جبر وأخذَ يُحرِكُ المنديلَ والصمتُ مطبقٌ على الجميعِ، وقد امتلأتِ نفوسُهم بالقَلَقِ، وتعلقت عُيونُهم كلُّها بنقطةٍ واحدةٍ لا تحيدُ عنها. وآزدادَ اقترابُ الباخرةِ شيئًا فشيئًا، وَفَجْأةً، بدأتْ تُغيّر اتجاهَها، ثم آنطلقت في طَريقِها مبتعدةً مرةً أُخرى عن القاربِ الصغيرِ التّائهِ وَسَطَ المُحيط.

وجلسَ العم جبر في مكانهِ وقد خابَ أملهُ، وامتلأتْ قلوبُ الركابِ الخمسةِ بالغمِ والهمِ والكمدِ وسادَ القاربَ من جديدٍ صمتٌ ثقيلٌ كئيب.

وكانتِ الشمسُ تُوشِكُ أن تغيبَ وهي تحملُ معها آخرَ ما بقي للمنكوبينَ الخمسةِ من أملٍ ورجاء، عندما رأى طلالٌ الذي لم يتوقفْ لحظةً واحدةً عن مراقبةِ الأُفقِ وتفحصِهِ، مايشبهُ سحابةً داكنةً بعيدةً جِدّاً، وبعدَ لحظةٍ قال لعمِّه فريد:

ـ هل ترى تلك السّحابةَ التي هناك؟

ونظرَ العمُّ فريدٌ للنقطة التي أشارَ إليها طلالٌ، ونهضَ فَجْأةً وصاحَ قائلاً:

ـ إنّها ليست سحابةً، وإنما دُخانٌ حقيقيٌّ، إنها باخرةٌ أُخرى، ومعنى ذلك أنَّ الأملَ موجود.

وبعدَ قليلٍ، بدأ الدُّخَانُ يقتربُ شيئاً فشيئاً ويزدادُ كثافةً، وبعدَ دقائقَ مرّت على الركابِ الخمسةِ كقرنٍ من الزّمانِ، بدأوا يرونَ أعلى الصّواري

ومدخنةَ الباخرةِ، فوقفوا جميعاً في القاربِ الذي أخذَ يهتزُّ بعنفٍ، وأخذوا يُلَوِّحونَ بجميعِ ما لديهم من الملابسِ المختلفةِ الألوانِ والأشكالِ، وحتّى طلالٌ وقفَ وذراعُهُ مرتفعةٌ إلى أعلى، وفي يدهِ منديلُهُ الأبيضُ الصّغير.

وفجأة غيّرت الباخرةُ اتجاهَها، وسارت نحوَ القاربِ الصغيرِ بعدَ أن رآه ربّانُها وشاهدَ ركابَهُ يطلبونَ النَّجدةَ. ولم تمرَّ سوى لحظاتٍ حتّى كانَ الأصدقاءُ الخمسةُ على ظهرِ الباخرةِ الضخمةِ التي أخذتْ مرةً أخرى تشُقُّ مياهَ المحيطِ في سُرعةٍ وطُمأنينةٍ وأمان.





انشغالُ البالِ بما يُخفيه المستقبلُ من مُفاجآت

"الأسْرةُ المتماسكةُ في السَّراء والضَّراءِ هي أسرةٌ غنيّةٌ بوحدتِها وتضامنِ أفرادِها"

لم يُخفِ طلالٌ فرحتَهُ عندما وجدَ نفسهُ أخيراً سليماً صحيحاً وقد نجا هو وأخوه وعمّه وصديقُهم العمُّ جبر من تهلكةٍ محقّقةٍ، وقد عبّر عن بهجتِهِ وسعادتِهِ بالقفزِ هُنا وهناكَ على سطحِ الباخرةِ، وبتقبيلِ وعناقِ أحمدَ والعمِّ فريدٌ والممازحةِ مع البحّارةِ الذين كانَ يعترضُ طريقَهم.

وقال العمُّ فريدٌ للعجوزِ جبر :

- إنّ الفضل يرجِعُ إليكَ في بقائنا على قيدِ الحياةِ، وسيظَلُّ ذلك ديناً في عُنُقي ما دمتُ حيّاً. وتأكدْ من أنّني سأكونُ دوماً رهنَ إشارتِك عندما تحتاجُ

إليّ في أيِّ وقتٍ وفي أيِّ مكان.

وردّ العمُّ جبر قائلاً بتأثرٍ شديد:

- ما دامَ الأمرُ هكذا، فإنّني أطلبُ منكَ أن تلحقَ بي بالمزرعةِ الصغيرةِ التي ورثتْها زوجتي عندما تُنهي جميعَ أشغالِكَ وتصبحُ أوراقُك كلُّها كاملةً وحسب القانون. إنّني أعلمُ أنّك كنتَ قد عزمتَ على شراءِ قطعةِ أرضٍ والاستقرارِ بها، ولكنّك لسوءِ الحظِّ فقدتَ جميعَ مُدّخراتِك. وها أنا الآنَ أملكُ الأرضَ، ولكنّني لا أفهمُ في الزراعةِ شيئاً، وإذا جئتَ لزيارتي للاستراحةِ والاستجمام لمدةِ شهرٍ مثلاً، فإنّك ستساعِدُني بنصائحك الثمينةِ، كما نستطيعُ التفكيرَ حينئذٍ فيما سنفعلهُ في المستقبل. وإذا أردتَ الاستقرارَ معنا، فإنّني وزوجتي سنكونُ في مُنتهى السُّرور.

وقال فريدٌ:

- بالطبعِ يا صديقي العزيزُ، سأزوركَ بالتأكيدِ، وسنقضي وقتاً سعيداً معكم. ولكنّني - ويا للأسف الشديد - لا أستطيعُ البقاءَ في ضِيافتِكَ مدةً طويلةً، لأنّ عليّ وعلى أحمدَ أن نعملَ لنعيشَ، كما أن طلالاً ما زالَ صغيرَ السِّنِ، ومن واجبِنا تربيتُهُ وتعليمُهُ.

وقال العمُّ جبرٌ:

- وماذا تنوي عملَه؟

وتنهّدَ فريدٌ وقال:

- لستُ أدري في الواقعِ، فقد أجهزتْ تلكَ العاصفةُ اللعينةُ على جميعِ مشروعاتي، كما أن ملابِسَنا كلَّها تُوجد الآن في قاعِ البحر، ولو لم أضعْ أوراقي كلَّها ومبلغاً صغيراً جداً من المالِ في كيسٍ من الجِلدِ، ولو لم أربطْهُ

بإحكامٍ وبعنايةٍ وآهتمامٍ بجزامي، لكانَ قد ضاع منّا كلُّ شيءٍ، ولم تبقَ لنا سوى أجسامِنا التي تراها أمامك الآن.

وكان طلالٌ في هذهِ الأثناءِ يجلسُ قريباً منهما، وعندما سمِعَ ما قاله عمُّهُ فريد آنزعجَ آنزعاجاً شديداً وكأنهُ لم يُدركْ ذلكَ من قبلُ وقال:

ـ هذا صحيحٌ، لقد غرقتْ جميعُ حاجياتِنا مع الباخرةِ، بما في ذلكَ لوحتي المدرسيةُ ودفاتري وكتُبي التي حافظتُ عليها واعتنيتُ بها طَوالَ الوقت. وقد ضاعَ كلُّ ذلكَ الآن، فيا لَها من مُصيبةٍ عظمى!

أخذ العم جبرٌ طلالاً بينَ ذراعيهِ وقبّلَهُ وأجلسهُ على ركبتيهِ، ثم تناولَ يدَ فريدٍ وضغطَ عليها مُعَزِّياً وقال:

ـ لا داعيَ للحسرةِ الآن، فقد مرّت عليّ في الماضي لحظاتٌ أشدُّ وأنكى، وها أنا الآنَ حيٌّ أرزقُ وفي مُنتهى الصحةِ والعافيةِ، بل وأملِكُ مزرعةً صغيرةً لم أكن أحلُمُ بها قطُّ. وأنت أيضاً يا فريدُ، سوف يدقُّ الحظُّ السعيدُ بابَكَ ذاتَ يومٍ، لأنّهُ دائماً يأتي لأمثالِك من هؤلاءِ الذينَ يبحثونَ عن حُلولٍ لمشاكلِهم في العملِ الجادِ المفيد.

وقال أحمدُ:

ـ كما أنّك يا عمي لستَ وحيداً، ولم نُعدْ نحنُ يتيمينِ، لأنّنا نشكّل نحنُ الثلاثةَ أسرةً صغيرةً يُحِبُ أفرادُها بعضُهم بعضاً، ويتعاونونَ في السَّراءِ والضَّراء. وأنا على يقينٍ من أنّنا سنكونُ سعداءَ، وإذا لم تكنْ سعادتُنا بالمالِ، فسوف تكونُ بالمحبةِ التي تجمعُنا وتوحِّدُ قُلوبَنا.

وصلتِ الباخرةُ إلى آلميناءِ الذي كانت تسعى إليه، ونزلَ أصدقاؤنا الثلاثةُ ومعهم العم جبرٌ إلى البرِّ، وأجّروا غرفةً لبضعةِ أيام.

ولم يُضِع العمُّ فريدٌ وأحمدُ وطلالٌ لحظةً واحدةً، وبدأوا يبحثونَ عن عملٍ لكسبِ بعضِ المالِ لشراءِ ما يحتاجونَ إليه من أكلٍ وملابسَ. وظلّوا يبحثونَ لمدةِ يومينِ كاملينِ، وقطعُوا المدينَة الكبيرةَ طولاً وعُرضاً بلا فائدةٍ، وأخيراً وبعدَ مشقّةٍ وتعبٍ، عثروا على عملٍ في إحدى (الورش) بدونِ أجرةٍ، وإنما بتناولِ الطّعامِ مرةً واحدةً في اليوم. ورجعَ الثلاثةُ لغرفتِهم ورؤوسُهم محنيةٌ، وكانوا في مُنتهى البؤسِ والتعاسةِ، ولم يتكلموا أثناءَ الطريقِ ولم ينطقوا بكلمةٍ واحدةٍ آنشغالاً بما تختلجُ به نفوسهُم من همومٍ وأفكار.

وعندما وصل الثلاثةُ للغرفةِ، وجدوا العمَّ جبراً واقفاً على بابِها في آنتظارِهم، وقال لهم بمجردِ رؤيتِهم :

ـ تعالوا بسرعةٍ، ففي الغرفةِ مُفاجأةٌ لكم.

وخمّن طلالٌ بأن المفاجأةَ طيبةٌ وسعيدةٌ عندما رأى البهجةَ والإشراقَ يغمرانِ وجهَ العم جبر، فاندفعَ بسرعةٍ داخلَ الغرفةِ، حيثُ اعترضتهُ أربعةُ صناديقَ خشبٍ منَ النّوعِ المستعمل للسّفرِ. ووقفَ طلالٌ مدهوشاً عندما رأى على كلِّ صُندوقٍ آسمُ واحدٍ من أصدقائنا الأربعةِ، وأسرعَ بالطّبعِ إلى الصُندوقِ الذي يُوجد عليه اسمُهُ وفتحَه، وقفزَ من الدَّهشةِ والفرح عندما وجد داخلَ الصُندوق ملابسَ جديدةً تماماً على مقاسِهِ وأحذيةً متينةً وكلَّ ما يحتاجُ إليه.

وقال طلالٌ وهو يُشيرُ إلى داخلِ صُندوقِهِ :

ـ ولكن ياعم جبر، هل من المعقولِ أن يكونَ كلُّ هذا لي ؟ ولي وحدي ؟ ولكن، من أينَ جاء هذا الصُندوق ؟ والصَّناديقُ الأُخرى ؟ لقد جاءَ لكلِّ

واحدٍ منّا صُندوقٌ مليءٌ بما يحتاجُ إليه وأكثر، فما معنى ذلك ؟ ومَنِ الذي أرسلَ هذهِ الصَّناديق ؟

وقال العمُّ جبرٌ وقد آزدادتْ فرحتُهُ بالمُفاجأةِ السعيـدةِ التي تهلّلتْ بها جميعُ الوجوه :

ـ هذه الصناديقُ أرسلها ربّانُ الباخرة . وقد قُمنا نحنُ الاثنينِ كما ينصُّ على ذلك القانونُ، بإعدادِ محضرٍ لحادثةِ غرقِ الباخرةِ، وبما أنّ الباخرة وكلَّ حمولتِها مُؤمّنٌ عليهما تأميناً عاماً شاملاً، فإنَّ الربانَ لن يخسرَ شيئاً، وستقومُ شركةُ التأمينِ بتعويضهِ عن كلِّ شيءٍ. وقد رأى الربانُ أنّه سيكونُ من العدلِ ألا نخسرَ نحنُ أيضاً، ولذلكَ أرسلَ إلينا هذه الأشياءَ تعويضاً لنا عن حاجاتِنا التي غرقتْ مع الباخرةِ، كما أرسلَ أيضا أجرةَ كلِّ واحدٍ منّا، وهي الأُجرةُ التي كان قد تمَّ الاتفاقُ عليها قبلَ الرحلةِ المنحُوسة .

وقدّمَ العمُّ جبرٌ لفريدٍ أجرتَهُ، ولأحمدَ أيضاً، أمّا طلالٌ، فقد أعطاهُ لوحةً مدرسيةً وقال له :

ـ وهذهِ لك لمكافأتِكَ على شجاعتِكَ في البحرِ، وعلى تصرفِكَ الذي كان مثلَ تصرفِ الرِّجال.

وفي المَساءِ، احتفلَ الأصدقاءُ الأربعـةُ بالهـديّةِ الجميلةِ التي أرسلَهـا الربانُ، وتعشّوا بأحدِ المطاعمِ اللطيفةِ بالمدينةِ وكانُوا جميعـاً في منتهى الغِبطَةِ والسّعَادة.

وبعدَ العَشَاءِ، ذهبَ الأربعةُ لتحيةِ الربّانِ، وشكرُوه على كرمِهِ ومعروفِهِ.

وأثناء عودتِهم للغرفةِ، أثار طلالٌ موضوعَ التأمينِ وقال :

ـ لم أكن أعرفُ شيئاً عن هذا الموضوعِ من قبلُ، وأعتقد أنّ التأمينَ شيءٌ

ممتازٌ.

وردّ العجوزُ جبرٌ قائلاً :

- الوقايةُ أحسنُ من العِلاجِ ، والرجلُ الحكيمُ هو الذي يكونُ على آستعدادٍ دائمٍ لمواجهةِ مفاجآتِ آلحياة.



الاعترافُ بالجميل والوفاءُ بالدَّين



"شرفُ الأبِ وسمعتُهُ أمانةٌ في عنقِ أولادِهِ، يجبُ عليهم المحافظةُ عليها والدِّفاعُ عنها في حياتِهِ أو بعدَ موتِه"

وذاتَ يوم ، قال أحمدُ لعمِّه فريدٍ :

ـ هناكَ أمرٌ يُشغِلُ بالي كثيراً ، فعندما بدأنا أنا وطلالٌ رحلتَنا ، ساعَدنا العمُّ سعيدُ وزوجتُهُ مساعدةً كبيرةً كما لو أنّنا من أفرادِ أُسرتهما ، بل وضعتِ المرأةُ العجوزُ بِصُرّتي بعضَ النقودِ بدونِ أن أدريَ ، علماً بأنّهما في مُنتهى الفقرِ ولا يملكانِ شيئاً على الاطلاق. وكما تعلمُ، فإنَّهُ برغمِ المصاعبِ التي مرّتْ بنا، فإنّ لدينا الآنَ منَ المالِ ضعفَ ما كنّا نملِكُهُ في بدايةِ رحلتِنا.

ولذلكَ أرى من الأصوبِ أن نَزورَ العمَّ سعيداً وزوجتَهُ، ونردَّ لهما نقودَهُما ونشكرَهما على ما قدّماهُ لنا مِنْ معروف.

وكان طلالٌ يستمعُ بآنتباهٍ شديدٍ فقال:

- وأتذكّرُ يا عمي أنّه عِندما جاءَ وقتُ النومِ، وضعتِ المرأةُ العجوزُ كثيراً من الملابسِ فوقَنا حتى ندفأ، لأنّه لم يكنْ لديها أيُّ غِطاءٍ ثقيل.

وقال العمُّ فريدٌ:

- إذاً، سنشتري بطانيةً ممتازةً، وسنُهديها للعمِّ سعيدٍ ولزوجتهِ أثناءَ زيارتِنا لهما.

ووصل العمُّ فريدٌ والطفلانِ لقريتِهم ومسقَطِ رأسِهم، وبعدَ أن قاموا بجميعِ الإجراءاتِ الرسميةِ والواجباتِ الاجتماعيةِ، وبدأوا يستعدونَ لمغادرةِ القريةِ نهائياً، وصلتْ للعمِّ فريدٍ رسالةٌ في مُنتهى الأهميّةِ، وكان مكتوبٌ فيها ما يأتي:

"السيد فريد، كنتَ قد تركتَ جميعَ مُدّخراتِك في ذِمةِ والدي لاستثمارِها بآسمِهِ، ولكنّهُ - ويا للأسفِ الشديدِ - أفلسَ وفقدَ جميعَ ما لديهِ من أموالٍ، وكانت الصّدمةُشديدةً عليه، وماتَ المسكينُ بعدَ ذلك بقليلٍ. ولا شك في أنّ إفلاسَ والدي أضرَّ بك ضرراً بالغاً كما أضرَّ بالكثيرينَ غيرِك، وإنّني أودُّ إخبارَكَ بأنَّ أهمَّ هدفٍ لي في الحياةِ هو أن أقومَ بالوفاءِ بجميعِ ديونِ والدي حتّى يظلَّ شرفُهُ غالياً وسمعتُهُ نظيفةً. ولكنّني لسوءِ الحظِّ لا أستطيعُ القيامَ بذلكَ فوراً ومرةً واحدةً بالنسبةِ لجميعِ آلدائنينَ، وقد قرّرتُ أن أبتدئَ بكَ باعتبارِكَ أكثر هَؤلاءِ آحتياجاً. وسأبدأُ بذلكَ واجباً مقدساً فرضتُهُ على نفسي وهو الوفاءُ بالتزاماتِ والدي كلِّها. وإنّني أطلبُ منكَ أن تقدِّمَ نفسَكَ للبنكِ

الذي أتعاملُ معهُ، وتجدَ عُنوانَهُ أسفلَ هذهِ الرسالةِ، وستجدُ بآسمِكَ هناكَ المبلغَ الذي كنتَ قد دفعتَهُ لوالدي، وتستطيعُ بالطبعِ سحبَهُ بعدَ تقديمِ أوراقِكَ الرسميةِ، وبذلكَ تكونُ قد أخذتَ حقَّكَ كاملاً غيرَ منقوص. . . "

وعندما قرأ فريدُ الرسالةَ لم يصدِّقْ عينيهِ، وقرأها مرةً أُخرى، ثم صاحَ مُنادياً أحمدَ وطلالاً، وفتحَ ذراعيهِ واحتضنَهما بفرحٍ هائلٍ وابتهاجٍ عظيمٍ وقالَ لهما:

- لاتنسَيا أبداً آسمَ هذا الرجلِ الذي كتبَ هذهِ الرسالةَ، لأنهُ رجلُ الحقِّ والعدلِ والشرف.

وتناولَ أحمدُ الرسالةَ العجيبَة وقرأها على مهلٍ وبصوتٍ مرتفعٍ، وكانَ طلالٌ يستمعُ وقد فغرَ فاهُ، وعندما انتهى أحمدُ من القراءةِ قال وقد أذهلتهُ المفاجأةُ:

- هل هذا مُمكنٌ؟ أيْ إننا يا عمي لم نعُد فقراءَ، ونستطيعُ الآنَ شراءَ قطعةِ الأرضِ التي كنتَ تريدُ شراءَها فيما مضى، وسوف أتعلّم أنا الزراعةَ وشذبَ الأشجارِ والعنايةَ بالماشية. إنَّ الرجلَ الذي أرسلَ هذهِ الرسالةَ يا عمي رجلٌ شريفٌ جدّاً، ولن أنسى تصرّفَهُ هذا طَوالَ حياتي.

وفي المساء نفسهِ، زارَ الأصدقاءُ الثلاثةُ العمَّ سعيداً وزوجَتهُ العجوزَ الطيّبةَ، وقد أهدَوا إليهما بطانيةً جميلةً وبعضَ الملابسِ الشتويةِ الثقيلة. وبعدَ توديعهِما، غادروا القريةَ في طريقِهم إلى المدينةِ لسحبِ مالِ العمِّ فريدٍ مِن آلبنك، والتوجهِ بعدَ ذلكَ إلى مزرعةِ العمِ جبرٍ الذي كان ينتظرُهمْ على أحرَّ من الجمر.

******



دَمَارُ ٱلحربِ وخرابُها

"يجب على الإنسانِ أن يناهضَ الحربَ ويعارضَها، لأنّها ضدُّ الحياةِ، وضدُّ تقدمِ الإنسانيةِ وآزدهارِها"

وصل العم فريدُ وأحمدُ وطلالٌ إلى المدينةِ، وذهبوا إلى البنك، وأنهَوا جميعَ الاجراءاتِ وسحبوا المالَ ثم ركبوا القطارَ المتّجهَ إلى القريةِ القريبةِ من مزرعةِ العم جبر. وبعدَ عدةِ ساعاتٍ، وصلوا إلى محطةِ القطارِ الصغيرةِ بالقريةِ، وتركوا بمخزنِ الأماناتِ صناديقَ أمتعتِهم، ولم يأخذوا معهم سوى صُرَّةٍ خفيفةٍ بها ملابسُ نومِهم وبعضِ الهدايا الصغيرةِ لعائلةِ العم جبر، وساروا على الأقدامِ في الطريقِ المؤديةِ إلى المزرعةِ.

استمرّ الثلاثةُ يسيرونَ لمدةٍ من الوقتِ في طريقٍ ضيقٍ تظلّلهُ أوراقُ

الأشجارِ، ويقعُ على جانبِ سلسلةٍ جميلةٍ من الهضابِ يجري في سفحِها نهرٌ صغيرٌ، بينما كانتِ العصافيرُ تشدو على الأغصانِ آحتفالا بمقدمِ آلرَّبيع.

وكان طلالٌ يسير وهو يقفزُ من الفرحِ والبهجةِ ويقول :

ـ يا للسّعادةِ الفائقةِ، وأخيراً سنعيشُ في الريفِ بعد أن التقينا وآجتمع شملُنا.

وكان أحمدُ أيضاً في منتهى الغبطةِ برغمِ أنّهُ كان يُخفي ذلك، أمّا العم فريد، فلم تكن الدنيا تسعُهُ من الفرحةِ لأنهُ سيلتقي بصديقهِ الحميم جبر، وسيبقى معه هذه المرة ولن يفارقَهُ أبداً، بعد أن قرّر الاستقرارَ بالقربِ منه مع ولديه بالتّبني أحمدَ وطلال.

وبرغم سيرِهم المستمرِّ لمسافةٍ طويلةٍ، لم يقابلِ الثلاثةُ أحداً يساعدهم على استفساره عن مزرعةِ العمِّ جبر، حتّى اعتقدوا وأنّهم ضلّوا الطريق. وَفَجْأَةً، رأى طلالٌ على بعدِ مائتي مترٍ منهم، ثلاثَ بناتٍ صغيراتٍ جالساتٍ القرفصاءَ خلفَ سياجٍ من الأشجارِ الشائكةِ، وهُنّ يقطفنَ بعضَ النباتاتِ البرية. وهتفَ طلالٌ بصوتٍ عالٍ مستفسراً عن طريقِ المزرعةِ، ولكنَّ الفتياتِ الصغيراتِ لم ينتبهنَ لانشغالِهنّ التّامِّ بعملِهنّ، برغمِ أنَّ صدى صوتِهِ تردّدَ عدةَ مرّاتٍ بينَ الهضاب.

وعندما رأى طلالٌ بأنّه لا فائدةَ من الصِّياح قال لِعمه :

ـ سأهَبِطُ الهضبةَ، وسأذهبُ إليهن للاستفسار منهن عَنِ آلطريق.

وهبطَ طلالٌ الهضبةَ بسرعةٍ، واقتربَ من البناتِ وسألهُنَّ :

ـ هل مزرعةُ "الأرضِ الطّيبةِ" قريبةٌ من هنا ؟

وردّت كُبرى البناتِ قائلةً :

ـ نَعَمْ، إنّها قريبةٌ من هُنا، وتستطيعُ الوصولَ إلى مزرعتِنا في مُدّةِ خمسِ دقائق.

وتطلّع طلالٌ بدهشةٍ للبناتِ الصّغيراتِ الثلاثِ وقال :

ـ مزرعتُكُنّ ؟ إذاً، فأنتنّ بناتُ العمِّ جبرٍ الصّغيرات ؟

وقالت آلبناتُ بصوتٍ واحد :

ـ بالطّبع.

وصاح طلالٌ فرِحاً وقال :

ـ ونحنُ أصحابُهُ، وقد جئنا لزيارتِهِ. ولا شك في أنّه حكى لكنَّ حكايتَنا. وأنا اسمي طلالٌ.

وآبتسمتِ الصغيرةُ مريمُ وقالت :

ـ نعم، لقد حدَّثَنا والدُنا عنكم جميعاً، وهو يُحبكم كثيراً.

ثم أخذتِ البناتُ ينظرنَ لطلالٍ بآهتمام وكأنّهن يعرفنهُ منذُ وقتٍ طويل.

وقال طلالٌ وقد سرَّهُ ذلك :

ـ لا شك في أنكنَّ الآنَ سعيداتٌ بمزرعتِكُنَّ وبالحياةِ في الرِّيفِ ؟ وأنا شخصياً أُحِبُّ المزارعَ والحقولَ، والبقَرَ والدواجنَ وكلَّ الحيوانات. . .

اكفهرّت وجوهُ البناتِ الصغيراتِ عندَ سماعِ كلامِ طلالٍ، وتنهّدتْ كُبراهُنَّ بحسرةٍ ولم تفُهْ بكلمة. ولكنّ صُغرى آلبنات مريم لم تتمالكْ نفسَها وقلت بحزنٍ شديد :

ـ آه يا طلالُ، إنّنا لسنا سعيداتٍ، بل إننا على العكسِ من ذلكَ في مُنتهى التعاسةِ وألمُنا عميق. فقد أخبرنا والدُنا بأنّ على المزرعةِ ضرائبَ باهظةً،

كما خرّبت الحربُ نصفَ مبانيها، والأرضُ غيرُ مزروعةٍ، ووالـدتُنا تبكي بآستمرارٍ، لأنّ والدنا قرّر العودةَ إلى البحر.

وسكتت مريمُ عن الكلامِ، وأخذت تبكي في صمتٍ، وأصاب طلالاً الذُّهولُ وآمتلأ قلبُهُ بالحزنِ آلعميق.

ووصل في هذه اللحظةِ العمُّ فريدٌ وأحمدُ، وحكى لهما طلالٌ ما سمِعَه من مريم، واتّجهَ الثلاثةُ إلى المزرعةِ وهو يفكّرونَ في الحالةِ التعيسةِ التي وجَد العم جبرٌ نفسَهُ فيها.

وبعدَ قليلٍ، ظهرت في سفحِ الهضبةِ وخلفَ بعضِ الأشجارِ الميّتـةِ المحروقةِ مباني المزرعةِ، وقال طلالٌ:

- يا لَلحسرةِ، إنّ المنزلَ مهدَّمٌ تقريباً، بل لا تُوجدُ في بعض الأماكنِ سوى الجدرانِ الأربعةِ، كما أنَّ المبانيَ كلَّها سوداءُ ومليئةٌ بالثقوبِ. فيا لَفظاعةِ الحربِ ودمارِها!

وظلَّ طلالٌ يُفكّرُ في آلامِ الحربِ وأهوالِها، وما يترتّبُ عنْها من مصائبَ وويلاتٍ حتّى وصلَ الثلاثةُ إلى منزلِ العمِّ جبر الذي بدا لهم كالأنقاض.





السّـــلامُ وآلبنـــاء

"العملُ يُجَدِّدُ الأملَ ويعيدُ السعـادةَ والحياةَ الى حيثُ لم تتـركِ الحربُ سـوى الشقاءِ والتعاسةِ والفقر"

دخل أصحابُنا الثلاثةُ صالةَ المنزلِ المهدمةَ، فوجدوا جُدرانَها لا تزالُ تحمِلُ آثارَ طلقاتِ الرّصاص، والعمَّ جبراً واقفاً وَسَطَها ورأسهُ على صدرِهِ، ويداهُ خلفَ ظهرِهِ، وقد بدا منهوكاً قلِقاً يائساً خائرَ القُوى، وفقدَ تماماً مظهرَ الثقةِ والحزمِ والعزمِ الذي كان يتمتعُ بهِ على ظهرِ الباخرة.

وقبّل العمُّ جبرٌ طلالاً وسلّم على أحمدَ، وعانق صديقه الحميم فريداً وقال له بصوتٍ منخفض :

- لقد جئتَ في الوقتِ المناسبِ لأنّني في محنةٍ شديدةٍ، وأعتمدُ على صداقتِكَ ومحبتِكَ للتغلبِ عليها. إنّني مُضطَرٌّ للرحيلِ مرّةً أخرى والافتراقِ عن زوجتي وبناتي الصغيراتِ، بينما كنتُ آمُلُ البقاءَ معهنّ البقيةَ الباقيةَ من حياتي، وإنّني لأشعرُ بالحزنِ والتعاسةِ عندَما أفكّرُ في ذلك.

وسكتَ العمُّ جبرٌ وأخذَ يتحركُ في الصالةِ بدونِ هدفٍ، ثم وقفَ ورفعَ رأسَهُ وقال وكأنّهُ يُحاوِلُ التغلبَ على أحزانِه :

- لا علينا، فقد كان ذلك مجردَ حُلُمٍ لم يتحقق.

واستفسر منه العمُّ فريدٌ عن الموضوعِ، فقال :

- كانَ القريبُ الذي تركَ لنا المزرعةَ قد استدانَ وآضطَرَّ لـرهنِ الأرضِ، ولكنّهُ لسوءِ الحظِّ ماتَ قبل أن يفكَّ الرّهنَ. وكما تعرفُ فإنّني لا أستطيعُ دفعَ الدّينِ، ولـذلك أجدُ نفسي مضطراً لبيعِ الأرضِ، والمصيبةُ أنَّ الأراضي الآن ثمنُها منخفضٌ جِدّاً، والمزرعةُ في حالةٍ يرثى لها، وإذا بعتُها فلن أحصلَ إلّا على نصفِ قيمتِها الحقيقيةِ، وسأجِدُ نفسي حينئذٍ في الوضعِ الذي كنتُ عليه قبلَ أن نرِثَ الأرض، وسأُضطَرُّ عندئذٍ إلى العودة للبحر لأنهُ ليست لدينا مَواردُ أخرى غيرَ ما أكسبهُ من عرقِ جبيني.

واقتربَ العم فريدٌ من صديقِ عمره جبرٍ، ووضعَ يدَهُ على كتفِهِ وقالَ له :

- يا صديقي العزيزُ، لقد كنّا قد تواعدنا على أن يساعدَ بعضُنا بعضاً، وعلى العيشِ معاً في السّراءِ والضّراء، وقد ساعدْتَنا أنتَ بما فيه الكفايةُ، وها قد جاَء الآنَ دورُنا نحنُ لمساعدتِك.

وقال العم جبر :

- إنك لا تستطيعُ ذلك لسوءِ الحظِّ، لأنّني لا أحتاجُ إلّا للمالِ، وأنتَ - و يا

للأسف الشديد ـ أشدُّ مني فقراً.

وابتسم فريدُ وقالَ :

ـ إنَّك مخطىءٌ يا صديقي، لأنّني لم أعدْ فقيراً كما كنتُ عندما تركتنا في المرةِ الأخيرةِ، وأنا الآن أكثرُ سعادةً من أيِّ وقت مضى لأنّني سأستطيعُ مساعدتَكَ وتقديمَ يدِ المعونةِ لك.

ثم أخرجَ من جيبِهِ حُزمةً من الأوراقِ الماليةِ وقال :

ـ أنظرْ، لا يخلو عالمُنا هذا من الناسِ الشُّرفاءِ، فقد دفعَ لي آبنُ الرجلِ الذي كنتُ قد تركتُ في ذمّتهِ مُدّخراتي كلَّها هذا المالَ وفاءً لدينِ أبيهِ. خذْ هذا المبلغَ، وآدفعْ ديونَك كلَّها، وخاصةً لهؤلاءِ الذين يُريدون إرغامَكَ على بيعِ أرضِكَ بنصفِ قيمتِها.

ولم يردَّ جبرٌ ولم ينطقْ بكلمةٍ واحدةٍ من شدّةِ المُفاجأةِ والتأثُّرِ، وظلَّ لحظةً يفكّرُ ثم قال :

ـ أُوافق يا فريدُ ولكنْ بشرطِ ألاّ نفترقَ أبدا. وعندما نرفعُ الرّهنَ عَنِ الأرضِ، فإن قيمتَها سترتفع. وهي أرضٌ خِصْبةٌ جِدّاً، ونستطيعُ زراعتَها وآقتسامَ مكاسبِها والعيشَ فيها أسرةً واحدةً متحدةً طَوالَ الحياة.

وتعانقَ الرجلانِ مرّةً أُخرى، بينما جاشت عواطفُ زوجةِ العمِّ جبر، وأخذت تشكرُ فريداً بحرارةٍ شديدةٍ وهي تبكي أحياناً وتضحكُ أحياناً أُخرى، واقتربتِ الصغيرةُ مريمُ من أبيها وجذبتهُ بلطفٍ من كُمِّهِ، وسألتهُ بصوتٍ هامسٍ وهي تبتسم :

ـ هل سيبقى معنا طلالُ أيضاً ؟

وقال العم جبرٌ بعد أن رفعَ طلالاً وأجلسهُ على ركبتيه :

ـ بالطبع ، وسيذهبُ معكنَّ إلى المدرسةِ، وإذا لم تتعلمنَّ بسرعةٍ فإنهُ سيوبخُكُنّ على ذلكَ لأنهُ ولدٌ مجتهدٌ، وهو يعرفُ الآن وطنَهُ أكثرَ من مُعظمِ الأطفالِ الذينَ في مثلِ سنِّه. أما أنتَ يا أحمدُ، فإنكَ ستساعِدُنا في زراعةِ الأرضِ إلى أن نجِد لك دُكّاناً صغيراً لصناعة المفاتيحِ وتصليحِها في القريةِ المجاورةِ، وسنعملُ نحنُ الثلاثةَ على إصلاحِ المزرعةِ التي ظلّت مهملةً لمدةٍ طويلةٍ، وإعادةِ بناء هذا المنزلِ المُنهار.

وقال فريدٌ وقد تأثّر كثيراً بكلامِ العم جبر :

ـ معكَ الحقُّ تماماً يا صديقي العزيزُ، وسنعملُ جميعاً بجدٍّ ونشاطٍ، وإذا كانتِ الحربُ قد خرّبت بلادَنا ودمّرتها، فإنّ علينا نحنُ أبناءَها أن نُزيلَ ذلك الخرابَ والدّمارَ بعملِنا وكفاحِنا. وإذا فعلنا ذلكَ، فإننا سنرى هذه المزارعَ والحقولَ الممتدةَ حولنا وقد امتلأت بالخيراتِ مُدةَ سنواتٍ قليلة، وستصبحُ بلادُنا نموذجاً تحتذي به جميعُ البلدانِ الأخرى في المجالاتِ العلميةِ والتقنيةِ والزراعيةِ، وموضعَ احترامِ العالَمِ كلِّهِ بما في ذلك الأعداءُ قبلَ الأصدقاء.

وصفّقَ الجميعُ إعجاباً واقتناعاً بما يقولهُ العمُّ فريدٌ، وهتفَ طلالٌ مؤيداً عمَّهُ بصوتٍ غطّى على تصفيقِ الآخرينَ، وقد هزّتهُ من أعماقهِ فرحةٌ طاغيةٌ لوجودهِ أخيراً على أرضهِ، وفي منزلهِ الجديدِ، وبينَ أفرادِ عائلتهِ، وهي المنى التي كان يحلُمُ بها منذُ وقتٍ طويل.

وبدأ الجميعُ في العملِ الجادِّ منذُ ذلكَ اليومِ ، ومرّت ستُّ سنواتٍ، وتغيّرت تماماً مزرعة "الأرضِ الطيبةِ" ، ولم يكن فيها مكانٌ لكسولٍ أو مُهملٍ ، وكانت مثلَ خليّةِ نحلٍ تعجُّ بالحركةِ والنشاطِ دائماً، حتّى أن هؤلاءِ

الذينَ كانوا قد شاهدُوها أيامَ الخرابِ والدّمارِ لم يعرفوها عندما زاروها بعدَ ذلك.

وكما تغيّرتِ المزرعةُ تغيّر أيضاً سكانُها، وهاهو ذا أحمدُ وقد أصبحَ شابًّا في منتهى الصِّحةِ والعافيةِ، وكان كثيراً ما يبقى في المزرعةِ لتقديمِ يدِ المساعدةِ عندما لا يكون لديه عملٌ في دُكّانِه بالقريةِ، وها هو الآن يقودُ بلطفٍ وعنايةٍ عربةً تجرُّها بقرتانِ جميلتانِ وقد أخذَ يُغنّي بصوتِه الخشنِ الأجشِّ المليءِ بالرجولةِ إحدى الأغاني الشعبيةِ القديمة.

وهاهو ذا أيضاً طلالٌ، بعينيهِ الواسعتينِ المعبّرتينِ، وقد أصبحَ فتًى قوياً برغمِ نحافتِهِ، إنَّ عمرهُ الآنَ يبلغُ الرابعةَ عشرةَ سنةً، وقد آجتهدَ في دراستهِ وتعلّم كلَّ الأشياءِ والعلومِ والمعارفِ التي يتعلَّمُها التلاميذُ الأذكياءُ المجتهدونَ في أحسنِ المدارس.

ولكن، من ذاكَ الفتى الآخرُ الذي يُماثله في السنِّ الذي يعملُ معهُ في الحقلِ ولا يفارقُه أبدا؟ إنهُ الصغير جمالٌ اليتيمُ، وقد التحقَ بأصدقائنا في المزرعةِ وأصبح واحداً منهم وفرداً من العائلة.

ومرّت السنواتُ تجري بعضُها وراءَ بعضٍ، وتغيّر شكلُ أحمدَ وكذلك شكلُ طلالٍ، ولكنَّ قلبَ كلٍّ منهما لم يتغيرْ قطُّ، وظلّ الاثنانِ يتعاونانِ ويساعدُ ويُسندُ أحدُهما الآخرَ في مواجهةِ متاعبِ الحياةِ ومصاعبِها، وفي عملِ الخيرِ والطّيّبِ من الأعمال. وقد ظلاّ في مُنتهى الاخلاصِ للمبادىءِ العظيمةِ التي آحتلت قلبيهما منذُ الصغرِ وهي:

"أداءُ الواجبِ، وحبُّ الوطنِ، والتّسامحُ والإنسانية".

******





الأصدقـاءُ الثلاثـةُ

عَشَراتُ السنينَ على قِصّتِنا . . . . . .

ولكن، من هو ياترى ذلك الشيخُ العجوزُ الجالسُ هُناك، والذي يطالِعُ جريدتَهُ بعنايةٍ واهتمامٍ ويستمتعُ بأشعةِ الشّمسِ الدّافئة ؟

إنّهُ جهادُ بنُ طلال، وهو لا يزالُ مَرِحاً بشوشاً متفائلاً، يُحِبُّ الناسَ وخصوصاً الأطفالَ، ويهتمُّ بكل شيءٍ في الحياةِ برغمِ عمرهِ الذي يناهزُ الثالثةَ والثمانينَ عاماً.

عاشَ جهادُ حياةً حافلةً بالأفراحِ والأحزانِ، وبالعديدِ من الأحداثِ السعيدةِ وبغيرِها من الأحداثِ التعيسةِ، وهو يتذكّرُ بصفةٍ خاصةٍ الحربيين

العالميتينِ الأُولى والثانيةَ اللتينِ هزّتا العَالمَ وقلّبتا أوضاعهُ وأثّرتا في حياتهِ وفي حياةِ الملايينِ من النّاسِ الآخرين.

وعندما كان جهادٌ طفلاً صغيراً، كان مثلَ أبيهِ مليئاً بالحيويّةِ والنّشاطِ، مُحِبًّا للعلمِ والتعلمِ والمعرفة. ونظَراً لتفوقِهِ في المدرسةِ، أعطتهُ الحكومة منحةً دراسيّةً، وآستمرّ في الدراسةِ حتّى حصلَ على عدةِ شهاداتٍ جامعيةٍ، وأصبحَ مُهنْدِساً مرمُوقاً يُشارُ إليه بالبنَانِ في وطنهِ. وقد ساعدَهُ تكوينُهُ المهْنيُّ وخبرتُهُ الممتازةُ على المساهمةِ في تطويرِ العلمِ وفي التقدمِ العظيمِ الذي شاهدَهُ عصرُهُ في مُخْتَلفِ العلومِ والمعارف.

واليوم، عندما ينظر جهادٌ إلى الماضي، وعندما يفكِّرُ في طفولتهِ وفي حياةِ أبويهِ، فإنه يشعُرُ بالدّهشةِ ما تزالُ تتملكّهُ لذلكَ التقدمِ الرائعِ الذي حصلَ في العلومِ والفنونِ في مُدَّةٍ وجيزةٍ جدّاً مِنَ آلزّمن...

ففي نهايةِ القرنِ التاسعَ عشرَ ظهرتْ إلى الوجودِ آكتشافاتٌ علميّةٌ في مُنتهى الأهميّة، وتلتها آكتشافاتٌ أُخرى أهمُّ وأعظمُ أثراً في بدايـةِ القرنِ العشرين، وتوالت آلاكتشافاتُ بعد ذلكَ بايقاعٍ أسرعَ، كما تنوّعَ آستعمالُها بشكلٍ مدهشٍ للغاية.

وفي مزرعةِ "الأرضِ الطيبةِ" حيثُ عاشَ وماتَ طلالٌ والدُ جهادٍ وعمّه أحمدُ، كانَ العملُ قد بدأ يتطورُ ببطءٍ شديدٍ منذُ أكثرَ من خمسينَ سنـةً. وبمرورِ الوقتِ، تمّت مكننة عملياتِ الحرثِ والحصادِ، بل وحتّى حلبُ الأبقارِ، وحلّت الجرّاراتُ شيئاً فشيئاً مَحِلَّ الخيولِ والثيرانِ، وتطوّرت أيضاً أساليبُ تربيةِ الحَيَواناتِ ورعايةِ الأرضِ وإخصابِها، وبدأتْ وسائلُ النقلِ الجماعيةِ وكذلك السياراتُ الخاصةُ التي كان عدَدها يزدادُ سنةً بعد أخرى،

تسمحُ لسكانِ البوادي والأرياف وغيرِهم ـ الذين أخذَ عددُهم يتناقصُ يوماً بعدَ يومٍ بالنسبةِ لِسكانِ المُدنِ ـ بالخروجِ من عُزلتِهم، والمشاركةِ في حياةِ المدينة.

أما المنزلُ القديمُ بالمزرعةِ، فقد دخلتهُ منذُ وقتٍ طويلٍ وسائلُ التدبيرِ المنزلي التي أخذتْ تتكاثرُ بمرورِ الأيامِ حتى أصبحتِ الآنَ تُستعملُ في مُعظمِ المَهامِّ المنزليةِ، الأمرُ الذي لم يكنْ من الممكنِ تصوُّرهُ في طفولةِ أحمدَ وطلالٍ. وقد آنتشرتِ الكهرباءُ في جميعِ الأنحاءِ ودخلت جميعَ المنازلِ، وهي لم تسمحْ بالإنارةِ فقط، وإنما بالتدفئةِ وبتشغيلِ العديدِ من الآلاتِ والأجهزةِ المختلفةِ الأنواعِ والأشكالِ التي لم تكنْ معروفةً على الإطلاق أيامَ العمِ سعيدٍ وزوجتِهِ الطّيبة أيضاً.

وقد كان العجوزُ جهادُ يشعرُ بمتعةٍ وسعادةٍ عندما كان يقصُّ على أحفادِهِ الصغارِ في أُمسيّاتِ الصّيفِ الجميلةِ حكاياتِ طفولتِهِ البعيدةِ، وخاصةً عندما يراهُم ينظرونَ إليه بدهشةٍ وذهول، وهم لا يُصدِّقونَ أنّ المدةَ التي يتحدّثُ عنها كانت في طفولتهِ، وأنـهُ لم تكن في مزرعتِهم الحـديثةِ الممتـازةِ لا الكهرباءُ ولا ماءُ الشّربِ من الحنفياتِ، ولا التسخينُ المركزيُّ ولا التلفونُ ولا التلفزيونُ، بل ولا السّياراتُ والجرارات.

وكان جهادُ يتمنّى منذُ وقت طويلٍ إثارةَ هذا الحديثِ مع أطفالٍ آخرينَ غيرِ أحفادِهِ، ولكنّه لم يكنْ يستطيعُ ذلك لمسؤولياتهِ العـديدةِ ولانشغـالهِ الدائمِ في عمله. وعندما أُحيلَ على المعاش، وأصبحَ لديهِ مِنَ آلـوقتِ الفارغِ ما يكفيهِ لتحقيقِ حُلُمِهِ القديمِ، وأخذَ يُفكِّرُ في تأليفِ كُتبٍ للأطفالِ يُحاول بها تعريفَ هؤلاءِ الصِّغارِ بهذهِ الحضارةِ التقنيةِ التي يُعاصِرونها والتي

هي حضارتهم، وتوضيح قوّتها ونقاط ضعفها، إيجابيّاتها وسلبيّاتها.

وفي الحقيقةِ، كان جهادٌ يُؤمنُ إيماناً عميقاً بأنّهُ يجبُ على الإنسانِ أن يَفهمَ جيداً العَالَمَ الذي يعيشُ فيه إذا كانَ يُريدُ حمايةَ نفسِهِ والدفاعَ عنها في هذهِ الحياةِ المليئةِ بالأخطار. ولذلك كان يرغبُ في أن يجعلَ الأطفالَ يقدّرونَ مدى التقدمِ العظيمِ الذي تمَّ في مدة قصيرةٍ، ويشاركونه إعجابَهُ بهذا التقدُّمِ الرائعِ وبمزاياهُ وإيجابيّاته. ولكنّه كان يُريد أن يجعلَ هؤلاءِ الأطفالَ يشاركونهُ قلقَهُ العميقَ وحيرتَهُ الشديدةَ، وقناعتَهُ بأنَّ الإنسانَ لن يستطيعَ السيطرةَ بآستمرارٍ على التقنياتِ الجديدةِ التي يخترعُها، وأنّه لن يكونَ حكيماً بما فيه الكفايةُ بحيثُ لن يستعملَ اختراعاتِهِ إلاّ فيما فيه خيرُ البشريةِ وتقدّمِها، وأنّ التقدمَ العلميَّ لم يصاحِبْهُ نموٌّ في وعيِ الإنسانِ وحكمتِهِ وحُسنِ تصرفِهِ بحيثُ يستطيعُ حمايةَ العَالَمِ الذي يعيشُ فيه من الخرابِ والدّمار.

وذاتَ يوم، آستدعى جهادٌ صديقينِ قديمينِ من أصدقائِهِ لتناولِ العَشاءِ بمنزلِهِ، وهما المهندسُ ياسرٌ والطبيبُ شاكرٌ، وكان قد أقنعهما بالمُشاركةِ في تنفيذِ مشروعِهِ الخاصِّ بإعدادِ كتبٍ للأطفال. وقد كانَ الثلاثةُ أصدقاءَ منذُ وقتٍ طويلٍ، وكانت تجمعُهم ذكرياتٌ عديدةٌ منذُ أن كانوا تلاميذَ صغاراً بالمدرسةِ الابتدائية...

وكان جهادُ يأمُلُ في أن يتمَّ في هذا المَساءِ الذي سيختلطُ فيه العملُ بالعَشاءِ والسّهرةِ، استعراضُ العددِ الضخمِ من الاكتشافاتِ التي توصَّلَ إليها الإنسانُ، وتحديدُ شيءٍ من آلمجالاتِ الرئيسةِ التي غيّرتْ منذُ بدايةِ القرنِ توقّعاتِ المستقبلِ بالنّسبَةِ للبشريةِ جمعاء. وكان جهادُ يشعُرُ بالسّعادةِ

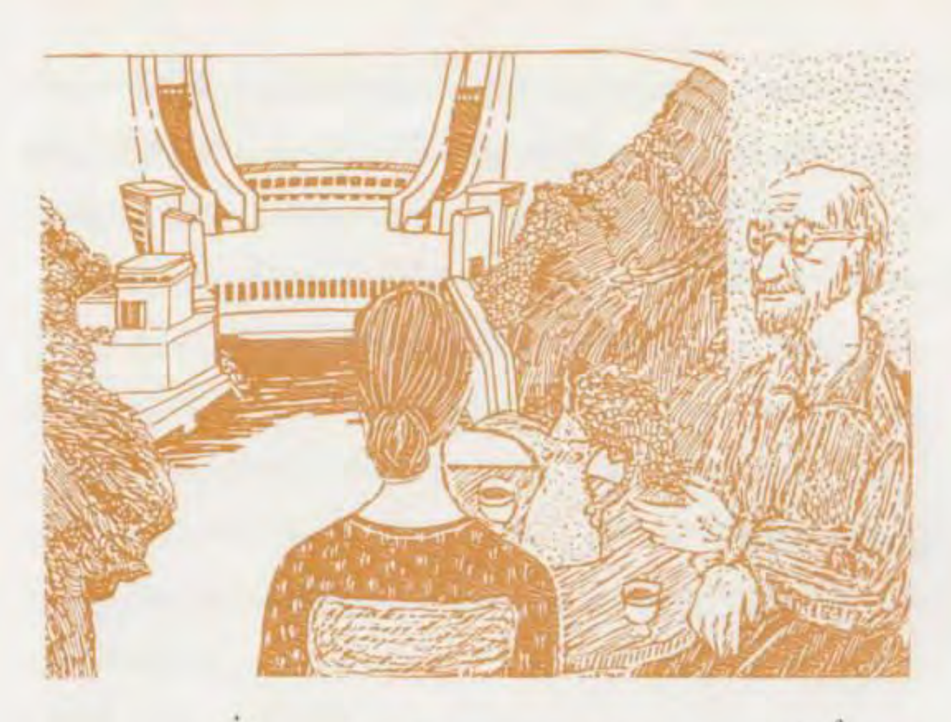
والبهجةِ لإدراكهِ بأنَّ المناقشاتِ ستكونُ طويلةً وصعبةً، وربما حادةً في بعضِ الأحيان قبلَ الوصولِ لأيِّ اتفاقٍ مُشتَرَكٍ حولَ الموضوعاتِ التي سيهتمُّ كلُّ واحدٍ من الثلاثةِ بمعالجةِ ما يدخلُ منها في آختصاصِهِ.

ولم يخِبْ ظنُّ جهادٍ، فقد كانَ ٱلمَسَاءُ ساخناً للغايةِ، وكانتِ المناقشاتُ حاميةَ الوطيسِ، واستمرت السهرةُ حتّى ساعةٍ متأخرةٍ من آلليلِ، ولم ينفضَّ جمعُ الأصدقاءِ الثلاثةِ حتّى اتفقوا أخيراً على تحديدِ خمسِ مجالاتٍ أساسيةٍ في تطورِ عصرِنا الحديثِ وهي :

- قدرةُ الإنسانِ على تغييرِ آلبيئة.
- آلنّقلُ والمواصلاتُ والاتصالاتُ السلكيةُ واللاسلكية.
- آلإعلامياتُ.
- الطّاقةُ.
- الصّحةُ.

وقد آتفقَ الأصدقاءُ الثلاثةُ على تأليفِ كُتبٍ خمسةٍ، كلُّ واحدٍ منها يُعالجُ مجالاً من المجالاتِ المذكورةِ أعلاه، كما اتّفقوا على أن يناقِشُوا في آجتماعاتِهم المقبلةِ ما يعنيهِ كلُّ مجالٍ من هذه المجالات، وما يُغطّيهِ كلٌّ منها من موضوعاتٍ مختلفة.





قدرةُ الإِنسانِ على تغييرِ البيئـة

وفي مَساءِ يومِ الخميسِ التالي، اجتمعَ الأصدقاءُ الثلاثةُ من جديدٍ حولَ مائدةٍ عليها كلُّ ما لذَّ وطابَ من المأكولاتِ والمشروباتِ وانغمروا أثناءِ الأكلِ في إثارةِ الذِّكرياتِ الغاليةِ المشتركةِ، وفي تبادُلِ الحديثِ الشيقِ الممتعِ كعادتِهم عندما يجتمعونَ. وبعد العَشَاءِ، سأل جهادٌ صديقَهُ المهندسَ ياسراً :

ـ ماذا تقصدُ بالضَّبطِ بعبارةِ : "قدرةُ الإنسانِ على تغييرِ البيئة" ؟

وردَّ المهندسُ ياسرٌ قائلاً :

ـ أقصدُ بذلك تهيئةَ الأرضِ وإعدادَها وإدخالَ كلِّ التعديلاتِ اللاَّزمةِ على الطبيعةِ حتى تُصبحَ نافعةً للإنسانِ ومفيدةً له. وفي هذا المجالِ، يتميزُ

عصرُنا بصفةٍ خاصةٍ بالنموِّ الهائلِ للمُدنِ على حسابِ البوادي والأرياف. وترتبطُ هذهِ الظاهرةُ آرتباطاً كاملاً بالنموِّ الصّناعي.

ولم يردّ جهادُ، وفكّرَ في والدِهِ طلال وفي عمه أحمدَ، وقال في نفسهِ: "لو أنهما كانا لايزالانِ على قيدِ الحياةِ، لما عرَفا المناطقَ التي مرّا بها أثناءَ رحلتِهما الطويلةِ، فسهولُ الجَنوبِ آليابسةُ والكثيرةُ الحَصَى أصبحتِ الآنَ بعد ريِّها حُقولاً غنيةً وبساتينَ غنّاء. وفي جميعِ المناطقِ، وبصفةٍ خاصةٍ في الغربِ، تمَّ تجميعُ قِطَعِ الأرضِ الصغيرة، وأزيلتِ الأشجارُ الشائكةُ التي كانت تفصلُ بينهما لتسمحَ للآلاتِ الزّراعيةِ بالقيامِ بعملِها على نطاقٍ واسعٍ وبسرعةٍ وعلى أحسنِ ما يُرام. أما الجبالُ التي كانَ من الصّعبِ استغلالُها، فقد آنعدمتْ فيها الزِّراعةُ وتربيةُ المواشي، وغطَّتها الغاباتُ وحلّتِ الأشجارُ محلَّ المراعي والحقول. ونمتِ المدنُ واتّسعَتْ، وارتفعتِ العماراتُ الشاهقةُ المبنيةُ بالإسمنتِ المُسلّحِ أو ذاتِ الهياكلِ المعدنيةِ والواجهاتِ الزُّجاجيةِ الجميلة، حيثُ نجدُ المساكنَ والمكاتبَ ومختلفَ الإدارات".

وقال آلطّبيبُ شاكرٌ وهو ينفخُ في غليونه:

ـ ما قلتَهُ صحيحٌ يا ياسرُ، وأضفْ إلى ذلك ازدحامَ السّياراتِ الرهيبَ ومتاعبَ المرورِ، والوقتَ الطّويلَ الذي نقضيه في وسائلِ النّقلِ والمواصلاتِ حتّى أصبحتْ حياةُ الباريسيينَ مثلاً تتلخصُ في عبارةٍ واحدةٍ هي:

"عملٌ ونومٌ ومترو".

وقال ياسرٌ:

ـ تماماً، ولكنّ هذا لا يُدهشنا على الإطلاق، لأنّ كلَّ تطوّرٍ يحملُ في طيّاتِهِ

المحاسنَ والمساوىء في الوقت نفسه. والمساوئ بصفةٍ عامةٍ تظهرُ ببطءٍ وبمرورِ الوقتِ، وهي تكونُ في بعضِ الأحيانِ شديدة الضرر إذا كانَ التطورُ قوياً وسريعاً، لأن إدخالَ الاصلاحاتِ اللازمةِ يكونُ حينئذٍ في مُنتهى الصعوبةِ والتعقيد.

وقال جهادُ :

- قرأتُ ذاتَ يومٍ أنه في سنة ١٩٠٠ كان ٨٠ ٪ من الفرنسيين يعيشونَ في البوادي والأريافِ و ٢٠ ٪ منهم يعيشونَ في المدنِ، وقد انعكستِ الآيةُ الآنَ، وأصبح ٨٠ ٪ منهم يعيشونَ في المدنِ، والباقي في البوادي.

وقال ياسرٌ :

- في الواقعِ أنّ مُعظمَ سكّانِ البلدانِ الصناعيةِ يعيشونَ حالياً في المدنِ، ونشاطُهم يتركّز أساساً في ميادينِ الصناعةِ والتجارةِ وإدارةِ المصالحِ والوظائفِ اللازمةِ لاستمرارِ الحياةِ في تلكَ المُدُنِ الضخمةِ الكبيرة. وقد سامَ آختلاطُ الخُبراءِ والمتخصصينَ، وتبادلُ الرأيِّ والمعلوماتُ بينَ مختلفِ المهنيينَ، إلى تضاعفِ فعّليةِ هؤلاءِ الخُبراءِ، وإلى الإسراعِ بتطورِ الفنونِ والعلومِ والتقنيات. وقد آرتبطتِ المدنُ بعضُها ببعضٍ بالطُّرقِ السريعةِ والسككِ الحديدية مما ساعدَ على سُرعةِ التعارفِ والاتصالِ بينَ النّاس. وإذا كانَ عددُ السكان في البوادي والأريافِ قد آنخفضَ وانكمشَ بشكلٍ بالغٍ، فإنّ عدداً أقلَّ من الزّارعينَ يستخرجونَ الآن من الأرضِ وبجهدٍ أقلَّ، إنتاجاً أكثرَ أهميَّة من حيثُ الكمُ والكيفُ مما كان يستخرِجُهُ آباؤهم وأجدادُهم، وذلك بفضلِ التقدُّمِ والتحسُّنِ الذي حصلَ في عالم الزراعة.

والحياةُ في المدنِ الكبيرةِ غالباً ما تكونُ سهلةً ومريحةً، برغم أنّها أكثرُ

تعقيدا ممّا كانت عليه في الماضي وخاصةً في البوادي والأرياف. ويسعى الآن كثيرٌ من سكانِ المُدنِ في أوقات فراغهم إلى الأماكن الهادئةِ المنعزلةِ حيثُ الهدوءُ والسكينةُ بعيداً عن الضوضاءِ والحركةِ الشديدةِ التي يعيشونَ فيها بآستمرار. وقد تطوّرَ هذا الاتجاهُ، وحصل نموٌّ عامٌّ شاملٌ في مجالِ السِّياحةِ، أدّى إلى آزدحامٍ رهيبٍ في الشّوارعِ والطُّرقِ في نهايةِ كلِّ أسبوعٍ، وإلى اكتظاظِ الجبالِ وشواطىءِ البحارِ بالنّاس في فصلِ العُطَل، حيثُ نجدُ ضجيجاً وجَلَبةً شبيهةً بتلكَ التي في المدنِ على حدٍّ سَواء.

وقال جهادٌ:

- أضِفْ إلى ذلك، أنّنا نجدُ جماعاتٍ من مواطني البلدانِ الصناعيةِ يتوجّهونَ في العُطَل الصيفيةِ إلى بلدانٍ قريبةٍ أحياناً وبعيدةٍ أحياناً أُخرى بحثاً عن التجديدِ والأشياءِ الغريبةِ والشّمسِ والثقافةِ والعاداتِ والتقاليدِ المختلفةِ، وكثيرٌ من هذهِ البلدانِ لا تزالُ الطبيعةُ فيها بِكراً، والحياةُ تسير الهُوينا وبسهولةٍ وهدوءٍ لم نعُدْ نعرفهُ نحنُ في بلدانِنا الشديدةِ التوتّرِ والقلقِ والهيجانِ. والواقعُ أنَّ تطورُ هذه الأسفارِ والرّحلاتِ، أصبحَ ظاهرةً مُهمّةً من ظواهرِ عصرِنا الحديثِ، وهي تُشكّلُ خطراً حقيقياً على البلدانِ التي يتوجهُ إليها السُّياحُ والتي تنمو فيها الحركةُ السياحيةُ بشكلٍ كثيفٍ وسريعٍ جدّاً. ونلاحظ بأنَّ سلوكَ السُّياحِ الأجانبِ بصفةٍ عامةٍ تنعدمُ فيهِ الرزانةُ والتعقّلُ والاحترامِ، ومخالطتُهم للسُّكّانِ الوطنيينَ هي في غالبِ الأحيانِ مخالطةٌ شكليةٌ مصطَنعَةٌ فوقيةٌ وتجاريّة. وكثيراً ما تتعرّضُ الأخلاقُ والعاداتُ والتقاليدُ وقواعدُ المجتمعِ التي يَجبُ أن تتطوّرَ ببُطءٍ وحذرٍ إلى آهتزازٍ عنيفٍ بسببِ ذلك، بل وإلى تصفيتِها والقضاءِ عليها في بعضِ الأحيانِ، بدونِ أن

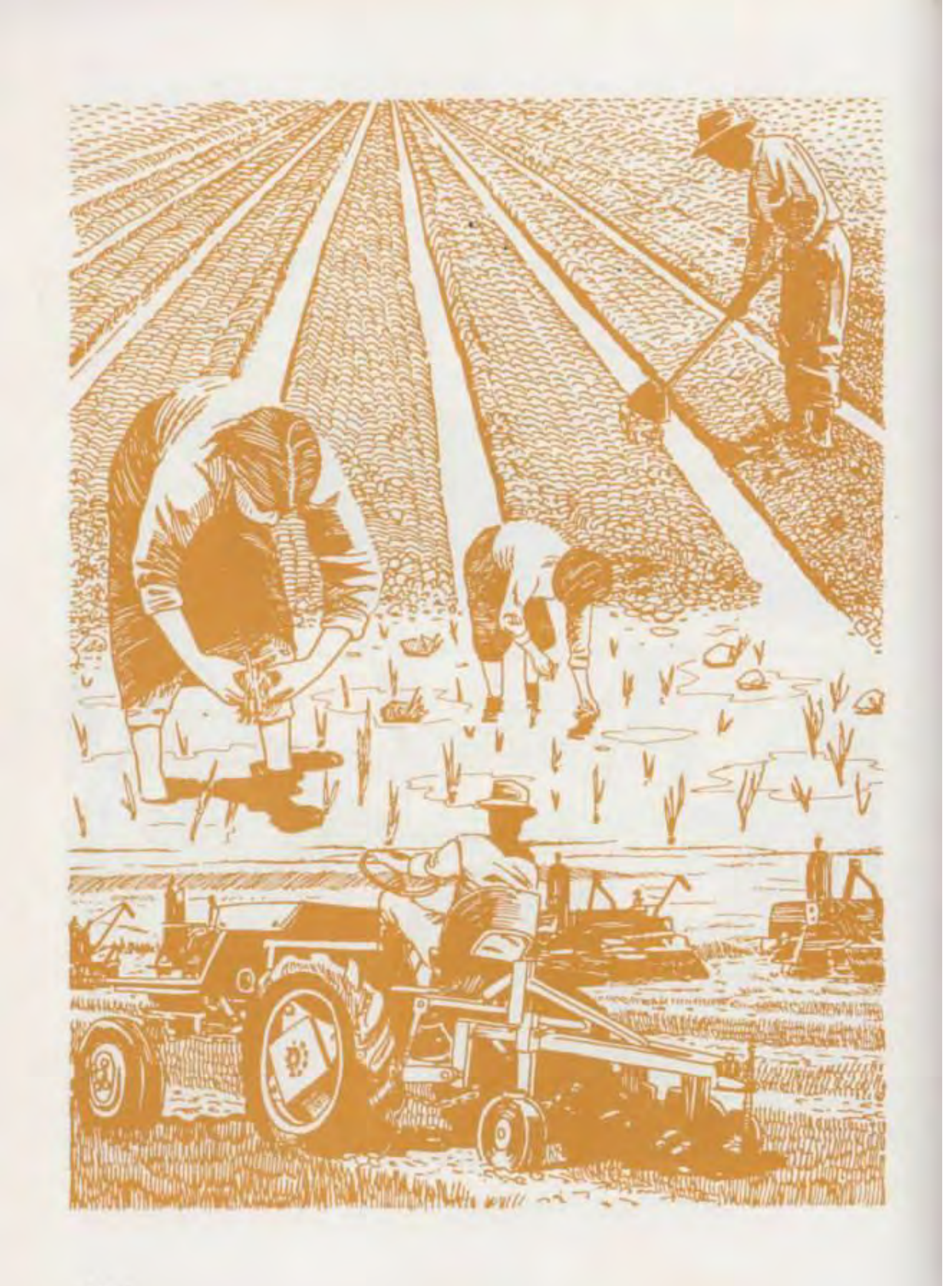
يكونَ هناك بدَلُ ملائمٌ يُخلِّفُها ويحِلُّ محلَّهـا. أضفْ إلى ذلكَ عمليـاتِ الهدمِ وتخريبِ البيْئةِ في تلكَ البُلدانِ، وإقامـة مباني ومنشـآتٍ سياحيّـةٍ بشكلٍ كثيفٍ جدّاً، وبدونِ أيِّ آحترامٍ على الإطلاق للأسلوبِ الوطنيِّ في آلبناء.

وقال شاكرٌ:

- يجب أن لا ننسى موضوع تلوّث البيئة أيضاً. فالجموعُ الكثيفةُ مِنَ النّاسِ والمصانعِ تُصيبُ الأرضَ التي توجدُ عليها بالعُقمِ، ويُلوِّثُ مداخِنَها الهواءُ كما تُلوِّثُ مجاريَها مياهُ الأنهارِ والبحارِ، ويفضلُ عنها أطنانٌ من الفَضَلاتِ يصعُبُ القضاءُ عليها يوماً بعدَ يومٍ، حتى أصبحَ الآنَ من الضروريِّ تقنينُ النّشاطاتِ الملوّثة، وتخصيصُ وقتٍ أطولَ ومالٍ أكثرَ لمحاربةِ هذهِ الأضرارِ المؤذية. وبغيرِ هذا، فإنّ آختـلالَ التوازنِ الـطبيعيِّ اللازمِ للحيـاةِ على الأرضِ سوف يزدادُ بشكلٍ أخطرَ وأكثرَ حدّةً، إلى أن يـأتيَ اليومُ الـذي سيصبحُ فيه من المستحيلِ علاجُهُ أو الحدُّ من أذاهُ.

ابتسم ياسرٌ وقال:

- إنّك تعبّر بكلامِكَ هذا عن همومِكَ كطبيب، والحقيقـةُ أنّ الحقَّ معكَ تماماً، فالانسانُ يملِكُ الآنَ إمكانياتٍ جبّارةً لم يكن يحلُمُ بها في أيِّ وقتٍ مضى من تـأريخِـهِ، فلديـهِ فنـونُ التنـظيمِ والادارةُ والمعـارفُ العلميـةُ المختلفةُ، والآلاتُ الضخمةُ القـويّةُ، ومصـادرُ الطاقـةِ التي يمكنُ نقلُها بسهولةٍ جدّاً. وهذه الامكانياتُ تسمحُ لهُ الآنَ بالقيامِ في مدةِ سنواتٍ قليلةٍ بتغييراتٍ جذريةٍ في البيئةِ لم يكن يستطيعُ القيامُ بها في الماضِي إلاّ بتعبئةِ مجموعاتٍ هائلةٍ من النّاسِ وبعشراتٍ بل وحتّى مئاتٍ من السنين.





إنّ الإنسانَ يعرِفُ حالياً كيف يُقيمُ خزّاناتٍ ضخمةً لحفظِ المياهِ وريِّ السهولِ الجافةِ القاحلةِ، ويعرفُ تماماً طرقَ تجفيفِ المستنقعاتِ وإصلاحِها وتهيئتِها للزّراعةِ، وبناءِ المُدنِ والمجمّعاتِ الصّناعيّةِ في الصّحاري، وضخِ الماءِ من أعماقِ الأرض، وتحليةِ ماءِ البحرِ عندما ينعدمُ أو يقِلُّ الماءُ الصالحُ للشُّربِ، وتحسينِ أنواعِ النباتاتِ وأصنافِ الحيواناتِ، ومعالجةِ الأرضِ لِتُعطيَ غلّاتٍ أكثرَ وأجود. والواقعُ أنَّ الانسانَ يستطيعُ تحقيقَ كلِّ ما يُريدهُ ويرغبُ فيهِ إذا خصّصَ لذلكَ جميعَ الوسائلِ والامكانياتِ اللازمة. ولكن كما يقولُ جهادٌ، هناك أخطارٌ عديدةٌ يجبُ على الانسانِ أن يجدَ حلولاً ناجحةً لها، مثلُ خطرِ تعقيمِ الأرض بسببِ الاستغلالِ الكثيفِ، وخطر كسحِ الرياحِ والعواصفِ لتربةِ الأراضي المستصلَحَةِ حديثاً، وخطرِ آستنزافِ احتياطي المياهِ الجوفيّةِ، وغيرِها من الأخطارِ التي من الصّعبِ التنبؤُ بها.

هذا هو ما أُريدُ شرحَهُ لأجيالِ الشبابِ والفتيانِ، وتوضيحِ ذلك بذكرِ نماذجَ وأمثلةٍ عديدةٍ للمنشآتِ الضخمةِ التي أُقيمت في السنواتِ الأخيرةِ في مُختَلَفِ بُلدانِ العَالَم. وأُريدُ أن أقولَ لهم بأنَّ التقدُّمَ العلميَّ والتقنيَّ قد أعطى للإنسانَ امكانياتٍ عظيمةً، ولكنّه أيضاً حمّلهُ مسؤولياتٍ أعظم. واذا كانَ الانسانُ يستطيعُ تحقيقَ تغيّراتٍ كبيرةً من أجلِ الحصولِ على العديدِ من الفوائدِ والمكاسبِ، فإنّ عليه أولاً دراسةَ جميعِ نتائجِ تلكَ التغيّراتِ من أجلِ تلافي كلِّ سلبياتِها ومساوئِها، ثم عليهِ بعدَ ذلك أن يظلَّ منتبهاً لتطوراتِها من أجلِ تصحيحِ نتائجِها السيئةِ أولاً بأوّلٍ وفي الوقتِ المناسبِ. وبهذهِ الطريقةِ، نضمَنُ عدمَ انتكاسِ آمالِنا العظيمةِ، وعدمَ

إصابتِنا بخيبةِ أملٍ أعظم.

وظلَّ الأصدقاءُ الثلاثةُ يتناقشونَ مدةً من الوقتِ، وذكرَ كلُّ واحدٍ منهم بعضَ النماذجِ المشهورةِ للأعمالِ التي حقّقها الإنسانُ في مناطقَ مختلفةٍ من العَالَم، مِثل بعضِ الخزاناتِ الكُبرى كخزّانِ أسوانَ، وبعضِ الصّحاري التي تم إصلاحُها وادخالِ زراعاتٍ جديدةٍ فيها، وفتحِ قناةِ بناما وتجفيفِ مَمالحِ الجزائر. . . الخ.

وقال جهادُ:

- بعدَ هذا النّقاشِ الطّويلِ والتدخُّلاتِ المختلفةِ فيما يتعَلّقُ بالموضوعِ الأوّلِ، فإنّني أعتقِدُ بأنّه لم يعُدْ لدينا ما يكفي من الوقتِ هذا المَسَاءِ لمناقشةِ وتحديدِ الموضوعاتِ الباقيةِ كلِّها. وإذا وافقتُما، فإنّني أقترحُ أن نناقشَ اليومَ موضوعَي "النقلِ والمواصلاتِ والاتصالاتِ السلكيةِ واللاسلكيةِ" و"الاعلامياتِ"، ونتركَ موضوعَي "الطاقةِ" و "الصحةِ" للخميسِ المقبلِ، فما رأيُكما ؟

وآبتسم شاكرٌ وقال:

- أوافِقُ على هذا آلاقتراحِ، لأنَّهُ سيكونُ لدينا حينئذٍ بعضُ الوقتِ آلإضافيِّ للتأمُّلِ والتفكير. والحقيقةُ يا جهادُ إنكَ تُريدُ منّا أن نُحَدِّدَ في بضعةِ أسطرٍ، وفي وقتٍ قصيرٍ جِدّاً، مجالاتٍ واسعةٍ من العلومِ والمعارفِ، بالرغم من أنّ هذا في مُنتهى الصعوبةِ كما تعرفُ، إلاّ أنّه لا يسببُ لكَ أيةَ رهبةٍ أو تردُّد. فلتقلْ لنا أنتَ إذاً كيفَ ستشرحُ موضوعَ "النقلِ والمواصلاتِ والاتصالاتِ السلكيةِ واللاّسلكيةِ" الواسعِ العريض.

******



النّقلُ والمواصلاتُ والاتصالاتُ السلكيةُ واللاّسلكية

وبعدَ لحظةِ صمتٍ قصيرةٍ قال جهادُ :

ـ منذُ قرونٍ عديدةٍ، لم تكن هناك مواصلاتٌ ولا وسائلُ للاتصالِ على سطحِ الأرضِ ، وكانتِ المراكبُ في البحرِ معزولةً تماماً، أمّا الجيوشُ المتوجهةُ لميادينِ القتالِ ، فقد كانت تنفصِلُ كليةً وتنقطعُ صِلتُها بالمكانِ الذي آنطلقتْ منهُ، و لم يكنْ هناك بالطبعِ "بريد" مهمتُهُ نقلُ المراسلاتِ بينَ الناسِ من مكانٍ إلى آخرَ، كما كان السّفرُ وكذلك نقلُ البضائعِ يتمُّ على الأقدامِ أو على الحُصُونِ والبِغالِ والحميرِ ولمسافاتٍ قصيرة.

واستمرتِ الحالةُ هكذا في أوروبا حتّى القرنِ السابعَ عشرَ، حيثُ

ظهـرتْ لأوّلِ مرّةٍ عـربةُ الـركـابِ ذاتُ الـدواليبِ الأربعـةِ التي تجـرُّهـا الحُصُونُ، وبدأ عندئذٍ يتمُّ التنقُّلُ والسفرُ لمسافاتٍ بعيدةٍ، كما تمَّ تـأمينُ نقلِ الرّسائلِ وغيرِها.

إلاّ أنَّ وسيلةَ النّقلِ هذه كانت بطيئـةً، فلم تكنِ العربـةُ تقطعُ سـوى عَشَراتٍ من الكيلومتراتِ يومياً، وهي المسافةُ التي تقعُ بينَ محطةٍ وأُخرى، هذه المحطّاتُ التي كانت تُعَدُّ بمثابةِ فنادقَ يقضي فيها المسافرونَ وسائقو العرباتِ والحصونِ ليلتَهم.

ولم يحصلْ أيُّ تغييرٍ في بدايةِ القرن الثامنَ عشرَ، ولكنّ الإنسانَ بدأ في استعمالِ "التلغرافِ البَصَرِي" الذي استعملَهُ الفـرسُ والرومـان قديمـاً، حيث كانت المعلوماتُ تنقلُ بالإشارةِ من شخصٍ لآخرَ بدونِ أن يتحرّكَ هؤلاءِ الأشخاصُ من أماكِنهم. ولكنّ هذهِ الطريقةَ كانت غيرَ عمليةٍ وغيرَ مضمونةٍ، ولم يكن من المُمكنِ استعمـالُها عنـدما تنعـدمُ الرؤيـةُ بسببِ الضَّبابِ أو المطر. وكانتِ الحَيَواناتُ، والحُصُونُ بصفةٍ خاصةٍ، الوسيلةَ الوحيدةَ لجرِّ العرباتِ في آلبر. أمّا في البحرِ، فقد كانت مراكبُ الشّراعِ رهنَ إشارةِ الرّياحِ وتحتَ رحمتِها (وكانتِ الرّيحُ من مصادرِ الطّاقةِ الأُولى التي استفادَ منها الانسان)، كما كانت هذه المراكبُ في خطرٍ دائمٍ وخاصةً عندما تهبُّ الزّوابعُ وتثورُ العواصِفُ ويهتاجُ آلبحرُ وترتفِعُ أمواجُه. . .

وقاطع شاكرٌ جهادًا وقال وهو يملأُ غليونَهُ بالتبغِ مرةً أُخرى :

ـ لقد كنّا قد آتفقنا على الحديثِ فقط عن تطوّراتِ المئةِ سنةِ الأخيرةِ فقط، أليس كذلك ؟

وابتسمَ جهادُ وقال :

ـ بالتأكيدِ، ولكنّني فضّلتُ الرّجوعَ للوراءِ قليلاً من أجلِ توضيحِ الموضوعِ تماماً.

وفي نهايةِ القرنِ الثامنَ عشرَ، ظهرتِ الآلةُ البخاريةُ وغيّرتْ كلَّ شيءٍ. ولكن سكةَ الحديد كانت قد ظهرتْ قبلَ ذلكَ في انكلترا، وظهرتِ العرباتُ التي تسيرُ على السككِ وتجرُّها الحَيَواناتُ. وقد أدّى تآلفُ الآلةِ البخاريةِ وسكةِ الحديد إلى ظهورِ القطارِ في بدايةِ القرنِ التاسعَ عشرَ، ويعتبرُ الوسيلةَ الأولى المهمةَ جدّاً للنقلِ العام. وقد استمرَّ نموُّ شبكةِ سككِ الحديدِ طيلةَ القرنِ التاسعَ عشرَ، كما تكاثرت القطراتُ وتحسنتْ سرعتُها إلى حدٍّ كبير.

وحلَّ التلغرافُ الكهربائيُّ محلَّ التلغرافِ البصريِّ، ثم حلَّ محِلّهُ هو الآخرُ الهاتفُ الذي سمحَ بنقلِ صوتِ الانسانِ نفسِهِ وليس فقط رسالةٍ مكتوبةٍ بإشاراتٍ كهربائية.

وبدأتِ العَجَلةُ تحِلُّ شيئاً فشيئاً محِلَّ الحِصانِ باعتبارِها وسيلةً للنقلِ الخاصِّ، وخاصةً بعد تطويرِها وتحسينِها مثلِ آستعمالِ أشعةٍ فولاذيةٍ للدولابِ واحاطتِهِ بإطارٍ من المطّاطِ وتحريكِهِ بسلسلةٍ مرتبطةٍ بدواسةِ العَجَلة.

وقد طُوِّرتِ الآلةُ البُخاريةُ المراكبَ تطويراً شاملاً، وبدأتْ صناعةُ السُّفنِ منذُ ذلكَ الوقتِ تعتمدُ على الحديدِ بعدَ أن كانت تعتمدُ أساساً على الخَشَبِ، وبدأت تزدادُ سرعةُ المراكبِ وكذلك متانتُها، كما أصبحتْ نظراً لقوّتِها وصلابتِها في مأمنٍ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى من أهوالِ البحرِ وعواصفِهِ وأمواجِه.

وشيئاً فشيئاً بدأتِ السّياراتُ البخاريةُ تحِلُّ محلَّ العرباتِ التي تجرُّها

الحُصُون، ثم اختفتْ هي الأخرى بعد مدةٍ وجيزةٍ بسببِ ظهورِ المُحرِّكِ الانفجاري.

وهذا الاختراعُ الأخيرُ، وكذلك اختراعُ إطار المطّاطِ، ساعدا على تطورِ صناعةِ السّيارات تطوراً سريعاً مما أحدث ثورةً في القرنِ العشرينَ، وجعلا من السّيارةِ وسيلةً للنقل الشّخصي ورمزاً للعصرِ الذي نَعيشُ فيه. وقد أدّت صناعةُ السّياراتِ ونموها الى تطورِ الطُّرقِ تطوراً عظيماً من حيثُ الكمِّ أو الكيفِ على حدٍّ سواء، وقد ساعدَ ذلك على تسهيلِ الاتصالاتِ بينَ النّاسِ إلى حدٍّ بعيد.

وقد سمحتْ طريقةُ الاتصال الهاتفي اللاّسلكي بنقلِ صوتِ الإنسانِ إلى مسافاتٍ بعيدةٍ بدونِ حاجةٍ الى استعمالِ وصلاتٍ سلكيةٍ كتلك المستعملة في التليفونات، وقد أدّى ذلك ولأول مرةٍ الى الاتصال بالسُّفنِ في البحارِ والمحيطات. وعندما وجدَ الإنسانُ نفسهُ يركبُ البحرَ ويسيرُ على الأرضِ بسهولةٍ ويُسر، رَغبَ أيضاً في الطّيرانِ والارتفاعِ إلى الأجواءِ العُليا. وقد حقّقَ ذلك بالمنطادِ الأخفِّ من الهواءِ. ولكنّه وجدَ بأنّهُ لا يتحكّمُ في توجيهِ منطادهِ لأنَّ الهواءَ يحرِّكُهُ كما يشاءُ، فقامَ بصناعةِ منطادٍ آنسيابي الشّكلِ وجهّزهُ بمحركٍ ومروحةٍ، واستطاعَ بذلك توجيههُ كما يُحبُّ ويشتهي. ولكنّ هذا المنطادَ برغمِ ذلك ظلّ بطيئاً، ولا يستطيعُ مقاومةَ الرِّياحِ، كما كان عُرضةً للالتهابِ في أيّةِ لحظةٍ لأن نفخه كان يتم بواسطة غاز الهيدروجين القابل للاشتعال.

ثم حلّتِ الطائرةُ محلّ المنطادِ الموجّهِ، ولكنّها كانت أثقلَ من الهواءِ، ولذلك كانت مجهزةً بجناحينِ يساعدانِها على الطّيران. وكانت محركاتُ



الطائراتِ في أولِ الأمرِ مماثلةً للمحركاتِ الانفجاريةِ التي كانت تسيرُ بها السّياراتُ، ثم حلّتْ محلَّها المحركاتُ المروحيةُ التربينيةُ والمحركاتُ النفّاثةُ، وهي محركاتٌ جديدةٌ تمتْ دراستُها بعمقٍ من أجلِ آستعمالِها بصفةٍ خاصةٍ في الطَّيرانِ . وقد استطاعَ الإنسانُ بذلكَ مضاعفةَ سرعةِ الطائراتِ أربعَ مراتٍ مدة ثلاثينَ سنةً فقط.

إلّا أن طائرةَ الركابِ الكبيرةَ تتميزُ بنقصٍ لا يمكنُ تلافيه، لأنّها تحتاجُ في المطاراتِ الى مدرجٍ طويلٍ تستطيعُ فيه الوصولَ للسرعةِ التي تسمحُ لها بالإقلاع. وتمتازُ طائرةُ الهيليكوبتر (الحوّامة) بقدرتِها على الإقلاع عمودياً مما يساعدُ على استعمالِها في المناطقِ المصابةِ بالكوارثِ، الّا أنّها أبطأُ بكثيرٍ جدّاً منَ الطّائرةِ النفّاثة.

وفي هذا الوقتِ الذي كان يتمُّ فيهِ تطويرُ وتحسينُ السّيارةِ والطّائرةِ، وجدتِ العجلةُ القديمةُ نفسَها تتغيرُ وتتطورُ هي الأخرى، فقد تمّ تجهيزُها بمحرِّكٍ صغيرٍ، وأصبحتْ عجلةً ناريةً نرى اليومَ ملايينَ منها تجري في الطّرقِ والشّوارع.

وأخيراً ظهرَ التلفزيونُ غيرُ المُلوّنِ ثم الملوّنُ بعدَ ذلك.

وأصبحَ الإنسانُ يسيطرُ سيطرةً كاملةً على أرضهِ كلِّها، وهو يستطيعُ الآنَ أن يتجوّلَ في جميعِ أنحائها، ويتصلُ بغيرهِ من أبناءِ البشرِ في بلادٍ أخرى على بعدِ آلافِ الكيلومترات.

ثم قرّر الإنسانُ أن يذهبَ الى الفَضاءِ، وقد استطاعَ تحقيقَ ذلكَ بالصواريخ. وقد وضعَ الإنسانُ أولاً أقماراً صناعيةً في مدارٍ معيّنٍ، وجهّزَ هذه الأقمارَ بأجهزةٍ علميةٍ دقيقةٍ وجعلَها تدورُ على الأرضِ كما يفعلُ القمرُ،

ثم أرسلَ فيما بعدُ روّاداً في سفنٍ فضائيةٍ، وأخيراً في سنة ١٩٦٩ م، استطاعَ آثنانِ من روّادِ الفضاءِ الامريكيينَ أن يصلا الى القمرِ وأن ينزلا عليه، وكانا أوّلَ من مشى على هذا الكوكبِ الجميلِ من البشر. وحتى الأقمارِ الصناعيةِ أصابَها الكثيرُ من التّغييرِ والتّطورِ والتّحسينِ، ويستطيعُ الإنسان الآنَ إرسالَ أقمارٍ صناعيّةٍ الى مدارٍ يبعدُ عنّا بمسافةِ ٣٦,٠٠٠ كلم، وقد أُطلقَ على هذه الأقمار اسمُ "الأراضي الثابتة"، وهي تدورُ بسرعةٍ تماثِلُ تماماً سرعةَ الأرضِ، ولذلك فإنّها تظلُّ تدورُ فوقَ نقطةٍ واحدةٍ في الأرضِ لا تحيدُ عنها أبدا. وتلعبُ هذهِ الأقمارُ أو "الأراضي الثابتةُ" دوراً متنامياً في الاتصالاتِ اللاسلكيةِ الحديثةِ، وهي على سبيلِ المثالِ تسمحُ بالنقلِ المباشرِ للبرامجِ التلفزيونيةِ منْ ولأيِّ مكانٍ في العالَم.

وفي المستقبلِ، فإنّ الإنسانَ الذي كان منذُ مئتي سنةٍ فقطْ يحتاجُ إلى يومينِ كاملينِ لقطعِ مسافةِ مئةِ كيلومترٍ بالعربةِ، ويبقى أحياناً شهراً كاملاً في انتظارِ ردّ على رسالةٍ، لن يكتفيَ بالذّهابِ الى القمرِ فقط، وإنما أيضاً سيذهبُ لاستكشافِ كواكبِ المجموعةِ الشّمسيةِ الأُخرى.

وتوقف جِهادُ عن الكلامِ، وسادَ الصّمتُ لحظةً من الوقتِ، وبدا على الأصدقاءِ الثلاثةِ الاستغراقُ في التأملِ والتفكيرِ، ثم آبتسم ياسرُ وقال لجهادٍ:

ـ لقد انطلقتَ في الحديثِ بسرعةٍ وحماسةٍ، وقد فضّلتُ عدمَ مقاطعتِكَ لأنّ ما قلتَهُ كلّهُ صحيحٌ، ولكنّني لو كنتُ مكانَكَ لابتدأتُ أولاً بشرحِ كلمةِ "آتّصالاتٍ" التي هي محورُ حديثِنا، ولكنتُ قد قلتُ مثلاً إنّها "مجموعةُ الوسائلِ التي تسمحُ للبشرِ بالاتّصالِ والالتقاءِ وتبادلِ المعلوماتِ والموادِّ

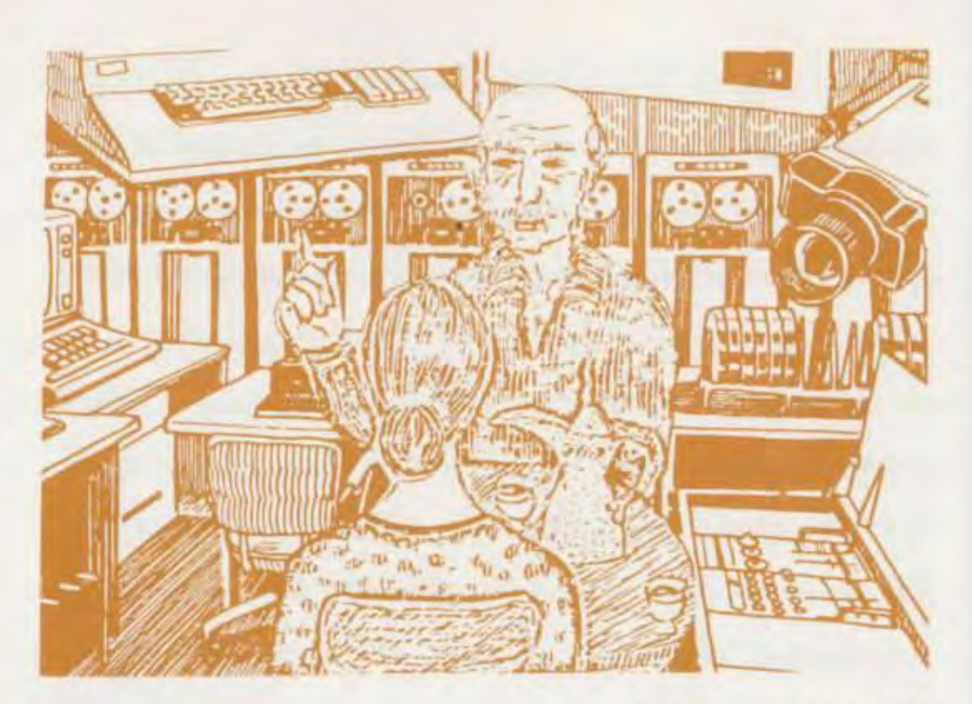
وغيرِها "أو شيءٍ من هذا القبيل. وعلى كل حالٍ، يجبُ استشارةُ المعجمِ للبحثِ عن التعريفِ الدقيقِ لهذهِ الكلمة.

وأضاف شاكرٌ مُداعِباً:

- أما أنا، فقد أعجبني كثيراً السياقُ المنطقيُّ لعَرضِكَ، ولكنّني عندما أفكِّرُ بأنهُ سيكونُ من الواجبِ عليك أن تشرحَ أثناءَ كتابتِكَ للموضوعِ مسائلَ عديدةً من بينِها على سبيلِ المثال: كيف يعملُ التلغرافُ البصريُّ، والتغرافُ الكهربائيُّ، والتلفونُ والراديو والتلفزيونُ... الخ، وإنّهُ أيضاً سيكونُ من اللازمِ عليكَ أن توضّحَ الفرقَ بينَ الآلةِ البخاريةِ والمُحركِ الانفجاريِّ والمحركِ النفّاثِ، والمُحرِّكِ بدافعٍ نوويٍّ كالنوعِ الموجودِ في بعض الغواصاتِ والذي نسيتَ ذكرهُ في عَرضِكَ السّابقِ، فإنّني أشعُرُ حقّاً بالعطفِ عليك، وأنّني لأتمنّى لك منذُ الآن عملاً ممتعاً وحظاً سعيداً.

والآن، فإنّني بآعتباري لستُ من العلماءِ ولستُ من هؤلاءِ الذينَ يفهمونَ كثيراً في الأشياءِ التي تحدثتَ عنها، فإنّني أنتظرُ بصبرٍ وفضولٍ شديدينِ أن تشرحَ لنا معنى الكلمةِ الغامِضَةِ "الإعلاميّات".





الاعـلاميـــات

كان جهادٌ متعوِّداً على دُعاباتِ صديقيهِ ومزاحِهما، فقد كانت أحاديثُهم تمتزجُ دائماً بالهزلِ والدُّعَابةِ، ولم يكن أيُّ واحدٍ منهم ينزعجُ من ذلكَ أو يتأثَّرُ بهِ، بل على العكسِ، كان مزاحُهم يساعِدُهم على تشديدِ نقدِهم للعروضِ المقدّمةِ بدونِ عُقَدٍ أو مشاكل، وعلى تعميقِ تحليلاتِهم لأبحاثِهم ودراساتِهم. ولذلك لم يتأثرْ جهادٌ بكلامِ صديقيهِ، وانطلقَ مرةً أخرى في الحديثِ، وأخذَ يشرحُ لهما معنى كلمةِ "إعلاميات"، وكأنّ ذلك هو الجزءُ الأخيرُ من برنامجِ هذه الليلة.

قال جهادٌ:

ـ لا أحدٌ يستطيعُ أن يُنكِرَ أن التقنيةَ الأكثرَ تطوراً وتغيّراً في النّصفِ الثّاني منَ

القرنِ العشرينَ هي "الإعلاميات". وتستعملُ "الاعلامياتُ" في جميعِ المجالاتِ تقريباً فلم يعُدْ في الإمكان الاستغناءُ عنها نظراً لسرعتِها ولقُدرتِها على القيامِ بحساباتٍ شديدةِ التعقيدِ، أو لإمكانياتِها الخاصّةِ بحفظِ ومعالجةِ كميّاتٍ ضخمة من المعلوماتِ، أو لقدرتِها على مراقبةِ الآلاتِ الأُخرى مراقبةً آلية.

وقاطع ياسرٌ صديقَه جهادًا قائلاً:

- هذا صحيحٌ، فلا يمكنُنا أن نتصوّرَ اليومَ قيامَ المهندسينَ وغيرِهم بعملياتٍ حسابيةٍ معقّدةٍ تستغرقُ ساعاتٍ طويلةً، وتكرارَ مثلِ تلك العملياتِ عدةَ مرّاتٍ، فالحاسبُ الآليُّ يفعلُ ذلك نيابةً عنهم في لحَظَاتٍ، وهو أيضاً ينقلُ نتائجَ تلكَ العملياتِ مباشرةً إلى حاسبٍ آلي آخرَ لفحصِها وتصحيحِها.

وقال شاكرٌ ضاحكاً:

- إنّ هذه السرعةَ الرهيبةَ في الاستجابةِ هي التي تُذهِل الجَهَلَةَ من أمثالي.

وضحِكَ الأصدقاءُ الثلاثةُ، وقال ياسرٌ:

- معكَ كلُّ الحقِ يا شاكرُ، وإذا كانت سرعةُ الانسانِ في الحسابِ تقدّرُ بثانيةٍ واحدةٍ، فإن سرعةَ حسابِ الحاسبِ الآلي تقدّر بجزءٍ من مليونٍ في الثّانية، ويا لَهُ من فرقٍ هائل. والحقيقةُ أنهُ بفضلِ هذهِ القوّةِ وهذهِ السرعةِ المفرطةِ في الحسابِ، استطاعَ الإنسانُ إرسالَ رجالٍ إلى القمرِ وإرجاعِهم من جديد، وبدأ يفكّرُ جِدّياً في إمكانيةِ القيامِ برِحَلاتٍ فضائيةٍ بينَ الكواكبِ...

وقال جهادٌ:

- ومن أجلِ شرحِ فائدةِ "الإعلاميات"، سوفَ أذكُر في كتابي عن هذا

الموضوعِ الكثيرَ من الأمثلةِ، مثلَ ما يحدثُ في الشَّركاتِ الكُبرى حيثُ تصدرُ الأجورُ الشهريةُ آلياً بناءً على بطاقاتٍ إعلامية تضمُّ المعلوماتِ اللازمةَ لجميعِ الموظفينَ العاملينَ في الشَّركةِ؛ وفي بعضِ المصانعِ نجدُ نفراً قليلاً من العُمَّالِ ، ونجدُ حاسباً آليّاً يراقبُ سيرَ مختلفِ الآلاتِ الموجودةِ في المصنعِ ، ويقومُ بإدخالِ ما يراه من التعديلاتِ على العملياتِ التي تقومُ بها هذه الآلاتُ إذا كان ذلكَ ضرورياً، وفي شركاتِ النّقلِ الضخمةِ (قطارات وطائرات)، حيثُ نجدُ نظامَ حجزٍ آلي للمقاعدِ، يقومُ به حاسبٌ آليٌّ قادرٌ على إعطاءِ عددِ الأماكنِ الشاغرةِ، ويلبّي طلباتِ الحجزِ المقدّمةِ إليه مِنَ الزّبائن.

وعندئذٍ زمجر شاكرٌ الذي لم يكن يثِقُ تماماً في الآلاتِ وقال :

ـ أرجو أن تتحدثَ أيضاً عن الأخطاءِ المحتملةِ التي قد تقعُ فيها أحيانا آلاتُكَ العجيبةُ، وما يترتَّبُ على ذلكَ من فوضَى واضطراب.

وأسرع ياسرٌ بالردِّ قائلاً :

ـ لاتنسَ يا صديقي أنَّ الخطأ ليس من الآلةِ، ولا يمكن بأيِّ حالٍ من الأحوالِ إضافَتُهُ إليها، وإنما إلى الإنسانِ الذي يُبرمِجُها. إنَّ أيةَ آلةٍ مهما كانت رائعةً وعجيبةً ومدهشةً تظَلُّ مجردَ آلةٍ، وهي ليست ذكيةً ولا غبيةً، وإنما هي آلةٌ محايدَةٌ تماماً، تكونُ كما صنعَها الإنسانُ لأنّها لا يمكنُ أن تصنعَ نفسَها.

وقال جهادٌ :

ـ في البدايةِ، أيْ في الخمسينيّاتِ، استعمِلَ الحاسبُ الآليُّ فقط بسببِ قدرتِهِ الفائقةِ على الحسابِ، وكان يستطيعُ القيامَ بعدّةِ آلافٍ من العملياتِ

الحسابيّةِ المعقّدةِ في ثانيةٍ واحدةٍ، وان يُعطيَ نتائجَ تلكَ العملياتِ مرتّبةً حسبَ الترتيبِ الذي أعطيتْ به هذهِ العملياتُ في البداية. ولكنْ، من أجلِ القيامِ بهذهِ العملياتِ الحسابيةِ، كانَ من اللازمِ أن تكون في "ذاكرةِ" هذا الحاسبِ الآليِّ كلُّ الأرقامِ المستعملةِ في الحسابِ، وكذلك قائمةُ العملياتِ التي يجبُ القيامُ بها.

وبعدَ ذلكَ، تم تطويرُ هذهِ "الذاكرةِ"مما سمحَ بآستعمالِ الحاسبِ الآليِّ في مُهمّاتٍ أُخرى من نوعٍ آخرَ مثلِ معالجةِ عددٍ هائلٍ من المعلوماتِ من أجلِ إعدادِ بعضِ الإحصائياتِ، أو إعطاءِ أيةِ معلوماتٍ مطلوبةٍ بسرعةٍ كبيرةٍ جِدّاً بفضلِ "بطاقاتٍ إعلاميةٍ "تحلُّ محلَّ البطاقاتِ المكتوبةِ باليدِ كالموجودةِ في المكتباتِ مثلاً، والتي يستغرقُ الاطلاعُ عليها وقتاً طويلاً.

ويستطيعُ الإنسانُ حالياً تخزينَ ملايينَ من المعلوماتِ المتعلقةِ بأيِّ مجالٍ من المجالاتِ مثلِ الطِّبِ والاقتصادِ والقانونِ... الخ، والعثورِ على مايُريدهُ من هذهِ المعلوماتِ في لَحَظَاتٍ، لأنَّ الحاسبَ الآليَّ يستطيعُ ترتيبَ المعلوماتِ حسبَ ترتيبٍ أبجديٍّ أو عدديٍّ أو حسبَ أيِّ ترتيبٍ آخرَ بالنسبةِ لأيِّ موضوعٍ ، وهذا ما نُسميهِ ببنكِ المعلومات.

وكان ياسرٌ يعرِفُ الكثيرَ من هذا الموضوعِ ، ولديهِ نظرةٌ شامِلةٌ لمختَلَفِ مجالاتِهِ، ولذلكَ لم يستطعْ منعَ نفسِهِ من التدخُلِ في الحديثِ، وقاطعَ جَهاداً قائلاً :

ـ آسفٌ جِدّاً يا جهادُ لمقاطعتِكَ، ولكنّني أُريدُ أن أقولَ أنَّ تكنولوجيا الحاسبِ الآليِّ قد تطوّرت بشكلٍ سريعٍ جِدًّا، فالحاسباتُ الآليّةُ الأولى

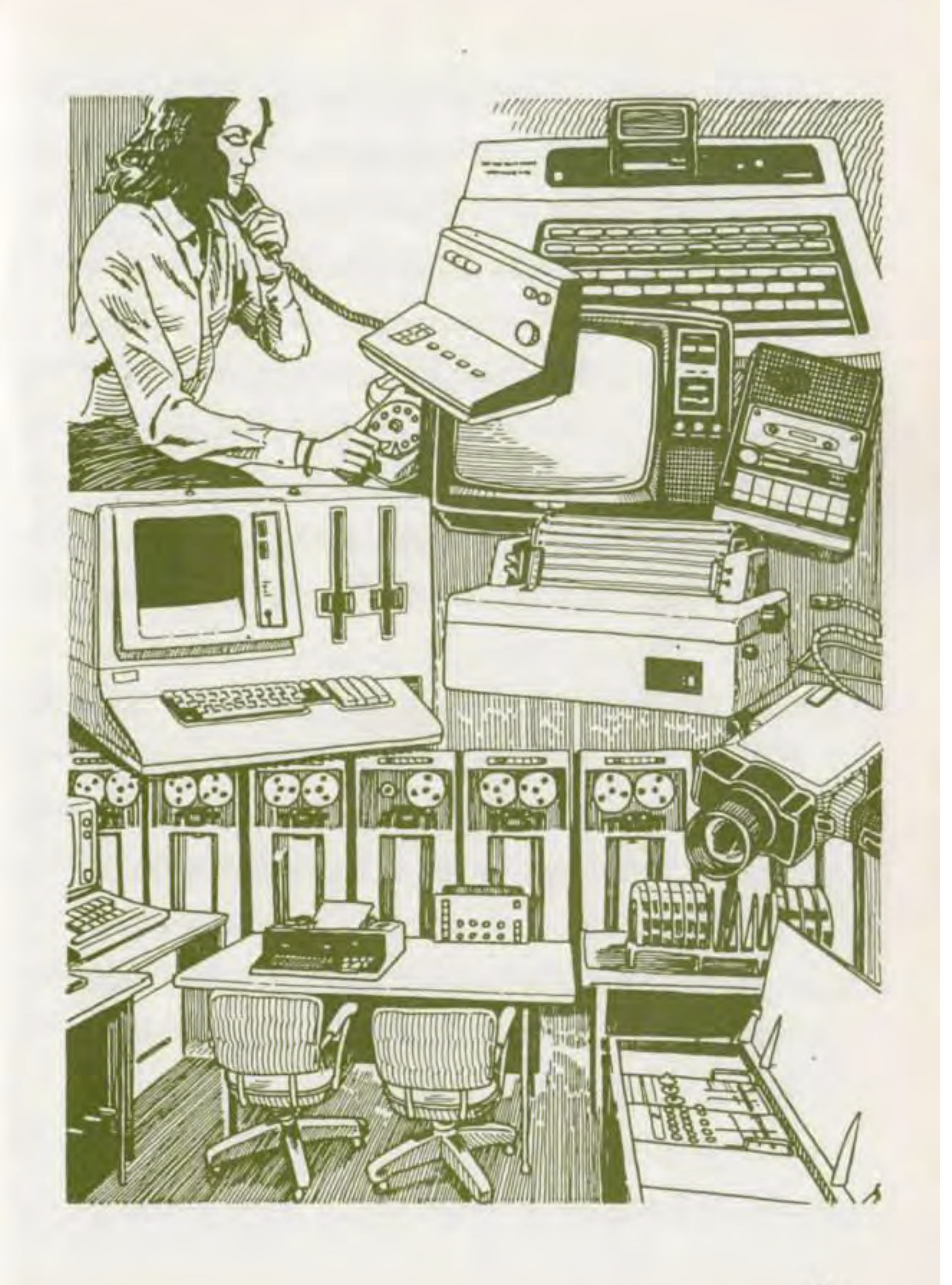
كانت ضخمةً، حتّى ان حجمَها كان يُماثل حجمَ قاعةِ مؤتمراتٍ كبرى. والآن في الثّمانيّاتِ، أصبح حجمُ الحاسباتِ الآليةِ في حجمِ الدولابِ الاعتياديِّ، كما أصبحت أشدَّ سرعةً من سابقاتِها. وقد حقّقَ الإنسانُ ذلك عندما تمكّنَ من وضعِ دائرةٍ كهربائيةٍ كانت تُشغَلُ في السنواتِ الماضيةِ مساحةً كبيرةً جدّاً، على قطعةِ سيلسيوم (وهي مادة كيميائية) لايزيدُ حجمُها على حجم الظّفرِ. وهكذا بدأ حجمُ الحاسباتِ الآليةِ يتضاءلُ بآستمرارٍ شيئاً فشيئاً. ويُصبحُ أكثرَ فعّاليةً وأرخصَ ثمناً.

وقال شاكرٌ وهو ينظرُ لدخانِ غُليونهِ المتّجهِ إلى سقفِ الغرفة:

ـ تُعجبني حماستُك الشديدةُ، ولكنّك تكونُ مُخطئاً إذا اعتقدتَ أنّني فهمتُ شيئاً ممّا قلتَهُ عن كيفيةِ سيرِ آلاتِكَ العجيبةِ، وكيفَ استطاعَ الإنسانُ تصغيرَ حجمِها ومع ذلك ازدادت سرعتُها وفعّاليتُها. والحقيقةُ أنّ الموضوعَ غيرُ واضحٍ بالنسبةِ لي، بل ويبدو لي أحياناً أنكما تتحدثانِ عن أمورٍ سحريةٍ، وأنّني إنسانٌ ضعيفٌ لا حولَ له ولا قوّةَ أمامَ ساحِرَينِ عظيمَينِ...

ضحك جهادٌ وياسرٌ ونظر أحدهما إلى الآخرِ بدهشةٍ وآستغرابٍ، ولم يُصدِّقا ما قاله شاكرٌ، لأنهما كانا يعتقدانِ أنّ حديثَهما لا غموضَ فيه، وأن ما قالاهُ واضحٌ كالشّمس في رائعةِ النّهار. وبعد مُدة مزاحٍ قال جهادٌ:

ـ إنّك تدّعي الجهلَ يا شاكرُ لترغمَنا على إعطاء تفسيراتٍ أكثرَ تفصيلاً ووضوحاً، ولا شكّ في أنّك على حقٍّ في ذلك، ولكنّنا ـ ويا للأسف ـ لانستطيعُ إعطاءَك درساً في الإعلامياتِ، ولذلك أقولُ لك ببساطةٍ ولا بأسَ عليك إذا لم تفهمْ، إنّ الحسابَ الآليّ يتمُّ بفضلِ تيارٍ كهربائيٍّ ضعيفٍ يمرُّ في بلورياتٍ صغيرةٍ. وفي البدايةِ، كان كلُّ بلوريٍّ يقومُ بعمليةٍ منطقيةٍ



أوليةٍ، وكان يجبُ أن تُضافَ إليهِ بلورياتٌ عديدةٌ أُخرى من أجلِ القيامِ بعملياتٍ معقّدة. وعندما استطاعَ الإنسانُ تجميعَ العديدِ من الخصائصِ الأساسيةِ في بلوريٍّ واحد، حصلت عندئذٍ ثورةٌ في "الدوراتِ الكهربائيةِ المندمجةِ بعضِها في بعض"، أدّت إلى إمكان القيامِ بعددٍ أكبرَ من العملياتِ الحسابيّةِ بحاسباتٍ آليةٍ أصغرَ حجماً. ويبلغُ الآن عددُ العملياتِ المنطقيةِ المجتمعةِ في بلوريٍّ واحدٍ عدّةَ آلافٍ، وأصبحنا عندئذٍ نتعاملُ مع ما يمكنُ أن نسميَه "بالعقل"، وهو الذي يُعطي لبلوريٍّ واحدٍ إمكانيةَ القيامِ بعملياتٍ حسابيّةٍ كتلكَ التي تقومُ بها آلةٌ حاسبةٌ صغيرة. وهذا التركيزُ القويُّ للقدرةِ على الحسابِ في مثلِ هذا الحيِّزِ الضيِّقِ هو الذي سمحَ بالتصغيرِ المفرطِ في حجمِ الحاسباتِ الآلية.

وقال ياسرٌ:

- أُحِبُّ أن أضيفَ إلى أنّ الحاسبَ الآليَّ لا يمتازُ بالسرعةِ البالغةِ في الحسابِ وبمعالجةِ عددٍ رهيبٍ من المعلومات فقط، وإنما يُمكِنُ استعمالُهُ من طرفِ عدةِ أشخاصٍ في الوقت نفسه؛ ومن مناطقَ مختلفةٍ، حيثُ إنه من الممكنِ استشارتُهُ بالتليفون من مكانٍ يبعدُ آلافَ الكيلومترات.

وقال جهادٌ:

- ويبقى أن نعرفَ ما إذا كانَ المستقبلُ سيكونُ لمراكزِ الحسابِ الآليِّ الضخمةِ التي تزوِّدُ بالمعلوماتِ مراكزَ أُخرى تابعةً لها كما سبقَ أن شرحتُ، ويستطيعُ أيُّ شخصٍ بالطبعِ أن يشتركَ في هذهِ المراكزِ ويطلبُ منها ما يشاءُ من معلوماتٍ، أو أنّهُ سيكونُ للحاسباتِ الآليةِ الصغيرةِ التي ستزدادُ وتتكاثرُ ويُصبحُ حجمُها وثمنُها حينئذٍ مناسبين، بحيثُ يمكنُ استعمالُها في مجالاتٍ

مختلفةٍ، في السّيارةِ والمتجرِ والمنزلِ مما سيُسهِّلُ حتى واجباتِ الحياةِ المنزلية.

وقال ياسرٌ :

ـ من المحتملِ أن يستعملَ الانسانُ في المستقبلِ النوعينِ معاً، بحيثُ ستكونُ مراكزُ الحسابِ الآليِّ الضخمة عِبارةً عن بنوكٍ كبيرةٍ للمعلوماتِ، بينما تقومُ الحاسباتُ الآليّةُ الصغيرةُ بمهمةِ حلِّ المشاكلِ الفرعيةِ الصّغيرة.

وتساءَلَ شاكرٌ قائلاً بلهجةٍ حافلةٍ بالرِّيبةِ والشّك :

ـ وبطاقاتُ المعلوماتِ هذه التي تحدَّثتَ عنها بحماسٍ وإخلاصٍ وحُسنِ نيةٍ، والتي ستضمُّ معلوماتٍ لكلِّ واحدٍ منّا، وتُحفظُ في البنوكِ ومراكزِ الصحةِ ومصلحةِ الضرائبِ وغيرِها، أليس هناك خوفٌ من أن تُستعملَ هذه البطاقاتُ ذاتَ يومٍ ضدّ مصلحةِ المواطنينَ الأبرياء ؟

وردَّ جهادٌ قائلاً :

ـ هذا في الواقع موضوعٌ مُهِمٌّ جِدّاً، ولكنّنا لن نناقِشَهُ هذهِ الليلة. وكما قال ياسرٌ سابقاً، فإنّه لا الآلةُ ولا التقنيةُ مسؤولتينِ عن الغايةِ التي يسعى الإنسانُ لتحقيقِها بواسطتِهما. وما نرجوهُ نحنُ ونتمنّاهُ، هو أن يكونَ التمسكُ بالعدلِ وحبُّ الحريةِ أقوى من أيِّ شيءٍ آخرَ في قلوبِ الأجيالِ المُقبلةِ، وأن يساعِدَ ذلك على نجاةِ الإنسانِ في المستقبلِ من هيمنةِ الظلمِ والاستبدادِ سواءٌ بالحاسباتِ الآليّةِ أو بدونِها.

وبهذهِ الأمنيةِ المُخلصةِ، أنهى الأصدقاءُ الثلاثةُ حديثَهم في تلك الليلةِ، بعد أن أدركوا بغتةً أنّهم في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، وأنّ الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ بدونِ أن يشعُروا بذلك نظراً لحماستِهم الشديدة وانغمارِهم الكاملِ في

الحديث.

وقال جهاد لصديقيه وهو يُوَدِّعُهما بحرارةٍ على بابِ المنزل :

- إلى الخميسِ المقبلِ حيثُ سيأتي دوري للاستماعِ لحديثِكما. ولا تنسَ يا ياسرُ أنّك سوف تُحدِّثُنا عن الطاقةِ، بينما ستحدِّثُنا أنتَ يا شاكرُ عن الصحة.

وسكت جهادُ لحظةً ثم ضَحِكَ وقال :

- وأقولُ لكما بصراحةٍ إنّني سوفَ أكونُ قاسياً معكما، وسوف أُناقاشكما وأنقُد آراءَكما بشدّةٍ، فعليكما إذاً أن تستعدّا لذلكَ لأنّني لن أتساهلَ أبدا.





مـواردُ الطاقـــة

وفي الخميس المقبل، اجتمعَ ٱلأصدقاءُ الثـلاثةُ في الميعـادِ المُحَدَّد تماماً، وهمْ في شوقٍ شديدٍ إلى استئنافِ أحاديثِهم المُمتِعَة.

وبعدَ ٱلعَشَاءِ ٱلفخمِ ٱللذَّيذِ الذي ٱنتهى بتناولِ كعكةِ الخوخِ الممتازِ، قال جهادُ :

ـ يجبُ أن نبدأ عمَلنا الآن، وسوفَ نتحدّثُ عن الموضوعينِ الأخيرينِ في البرنامجِ الذي حدّدناهُ في البداية. وقد جاء دورُكَ يا ياسرُ لتحدِّثَنا عن الطاقةِ التي لولاها لما عَرَفنا الحياةَ الصِّناعيّةَ الحـديثةَ، ولا التقـدمَ المبنيَّ على العلمِ، ولا التقنياتُ وفنُّ السيطرةِ عليها والتحكمِ فيها أيْ (التكنولوجيا).

تنحنح ياسرُ وقال :

- في البدايةِ كانتِ الشّمسُ. . .

وقاطعهُ جهادٌ قائلا بتهكُّمٍ :

- رويدك، لقد آتفقنا على الحديثِ فقط عما جرى في المائةِ سنةِ الأخيرةِ، وها أنت الآن تبدأُ من بدءِ الكونِ !

وقال شاكرٌ :

- بالنسبة لي، أرجوكَ أن تشرحَ لي أولا ما المقصودُ من "الطّاقة" و "مواردِ الطاقةِ" قبل أن تسحَبنَا معكَ الى الوراءِ ملايينَ من السنينَ.

ولم يدهشْ جهادٌ وياسرٌ من سؤالِ صديقِهما، فقد كانا مُتعوِّدين على مثلِ هذهِ الأسئلةِ السّاذجةِ التي كان دائماً يفاجئُهما بها، وقد أدركا نظراً للمستوى العلمي الرفيعِ الذي يتمتعُ به أنّه يحاولُ أن ينصبَ لهما فخّاً، وأنه ينتظرُ منهما أن يقعا فيهِ، ولذلك ردَّ عليه جهادٌ قائلاً بمنتهى الحيطةِ والحذرِ :

- إسمع يا شاكرُ، سنُهديك قاموساً جيداً تستطيعُ بهِ معرفةَ كلِّ ما تريدُهُ من شروحٍ وتفسيراتٍ من نوع :

* "الطاقةِ هي الآسمُ الذي نُطلِقُهُ على أيّةِ قادرةٍ على إنتاجِ عملٍ ما"

* "مواردُ الطاقةِ هي قُوى الطبيعةِ التي نجحَ الإنسانُ في السيطرةِ عليها واستخدامِها لمصلحتِهِ من أجلِ الحصولِ على عملٍ مفيدٍ له"

لذلك فإنّ الكهرباءَ مثلاً ليست مورداً للطاقةِ، ولكنّها شكلٌ من أشكالِ آستعمالِ الطاقةِ، من النوعِ الذي يسهُلُ نقلُهُ وتحويلُهُ. ولا شك في أنكَ تعرفُ أن أشكالَ الطاقةِ المختلفةِ كالحركةِ والحرارةِ والضّوءِ والكهرباءِ يمكنُ أن يتحوّلَ بعضُها إلى بعض. ومادمتَ تُحِبُّ التعريفاتِ حُبّاً جمّاً، فإنّ

هذا المعجمَ الذي سيكونُ معكَ باستمرارٍ، سيوضِّحُ لك أيضاً المقصودَ من "الصِّناعة"، وستجدُ أنّ الصِّناعةَ هي :

* "استغلالُ الثروَاتِ المعدنيةِ وموارِدِ الطّاقةِ المختلفةِ، وتحويلُ الموادِّ الأوليةِ إلى مُنتجَاتٍ مُعَلَّبة".

لم ينزعجْ شاكرٌ ولم يتأثرْ بكلامِ جهادٍ، وقال بهدوءٍ شديد :

ـ إنّني لا أُحبُّ التعريفاتِ كما تدّعي، ولكنّني عندما أشترِكُ في مناقشةِ أيِّ موضوع، فإنّني أُحبُّ دائماً أن أعرِفَ منذُ البدايةِ الموضوعَ الذي نتحدّثُ عنهُ بشكلٍ مُحَدَّدٍ ودقيق. . .

قاطعَ ياسرٌ صديقيهِ، وقال بلهجةٍ يسودُها تضرُّعٌ مصطَنَع :

ـ عندما تنتهيانِ تماماً، أرجوكما أن تسمحا لي بكلمةٍ صغيرةٍ لعرضِ الكيفيةِ التي سأُقدِّمُ بها في كتابي : أهميةُ مشاكلِ الطاقةِ في عصرِنا الحديث. فهل أستطيعُ الكلام ؟

وتوقفَ ياسرٌ عن الحديثِ لحظةً واحدةً ثم قال :

ـ إذاً أقولُ أن تقاطعاني، أنّهُ في البدايةِ كانتِ الشَّمسُ، أصلَ كلِّ حياةٍ، وبشكلٍ غيرِ مباشرٍ أصلَ مُعظمِ مواردِ الطّاقةِ (حتى الفحمِ الذي أتى من تحللِ نباتاتٍ قديمةٍ، أو النفطِ الذي تكوّنَ من تحلُّلِ نباتاتٍ دقيقةٍ جدًّا وحيواناتٍ بحرية). ونلاحظ بأنّ الإنسانَ بعد أن استعملَ مختلفَ مواردِ الطاقةِ، نراهُ اليومَ يعودُ إلى الطاقةِ الشمسيةِ، حيثُ نجدُ الباحثينَ يُحاولونَ آستعمالَ هذهِ الطاقةِ بشكلٍ مباشرٍ بعدَ الحصولِ عليها بواسطةِ الأفرانِ الشمسيةِ وظواهرِ الانصهارِ النوويِّ.

وفي بدايةِ الأمرِ، كانَ تطوّرُ آستعمالِ الطاقةِ في مُنتهى البُطءِ، وقد

آستخدمَ الانسانُ الحَيَوانَ، والريحَ (طواحينَ الهواءِ والمراكبَ الشراعيَّة)، والمجاريَ المائيَّةَ (طواحينَ الماء)، واستخدمَ النّارَ أيضا (حيث استطاعَ صهرَ خاماتِ المعادِن وتنقيتِها بآستعمال نارِ الحطَبِ منذ ٣٠٠٠ سنةٍ قبلَ المسيح).

وقد ظلَّ الإنسانُ آلافَ السنينَ يعتمدُ على قوّتِهِ العضليةِ وعلى قوّةِ بعضِ الحيـواناتِ لإنجـاز عملِه. وقد استبعـدتْ بعضُ المجتمعاتِ الإنسـانَ، واستعملتهُ كما كانت تستعملُ الحيوانَ، وظلّت لمدةٍ طويلةٍ تعتمدُ على نظامِ الرِّقِّ والعبوديّةِ من أجلِ الحفاظِ على قُوَّتِها وعظمتِها وآزدِهارِها.

وفي نهايةِ آلقرنِ الثامنَ عشرَ، وخاصةً طَوالَ القرنِ التاسعَ عشرَ، بـدأ آستعمالُ الآلةِ البخاريةِ التي تعتمدُ على قُوّةِ ضغطِ بُخارِ الماءِ، وكـذلك المحركُ الانفجاريُّ الذي يعتمدُ على قوّةِ انتشارِ الغازِ المحترقِ، وظهرت عندئذٍ واحتلت مركزاً مرموقا "الطاقةُ الميكانيكية". وهذه الطاقةُ الجديدةُ التي بدأ الإنسانُ يحصُلُ عليها بآستخدامِهِ للآلاتِ، بدأت تُحرِّرُهُ شيئاً فشيئاً من الجَهدِ البَدني والعملِ اليدوي، وتزيدُ في الوقت نفسِهِ من إمكانياتِهِ إلى مالا نهاية. وهكذا دخلَ الإنسان عصرَ "الآلات".

وقال شاكرٌ:

ـ ولكنْ عليكَ أن تُضيفَ يا ياسرُ، أنّهُ نتيجةً لعدمِ تكيفِ المجتمعِ بسرعةٍ كافيةٍ معَ هذا التطوُّرِ التقني، حصلتِ اضطراباتٌ وأزَماتٌ عنيفةٌ في أوساطِ العُمّالِ، حيثُ ارتفعتْ نسبةُ البطالةِ، كما كانَ هناكَ رفضٌ واسعُ النّطاقِ للآلاتِ. وعليك أن تُضيفَ أيضاً أنّ العملَ في المصانعِ كان أحيانا ولا يزالُ حتى الآن شكلاً جديداً من أشكالِ العبودية.

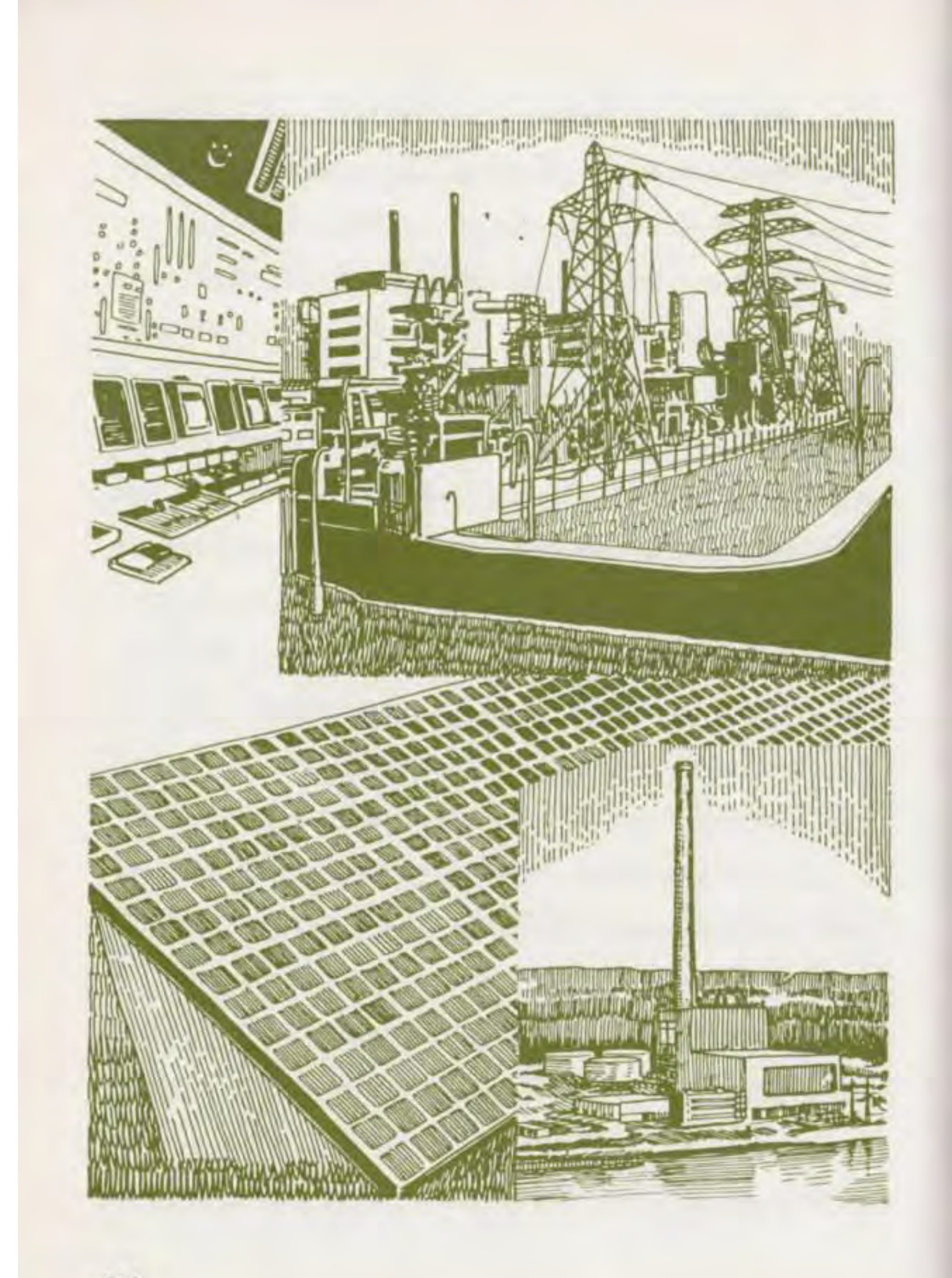
وقال جهادٌ بحماسةٍ :

- ولهذا السببِ الأخيرِ، تجمّعَ آلعمّالُ شيئاً فشيئاً، وشكّلوا "نقاباتٍ" للدّفاعِ عن أنفسِهم ومصالِحِهم، ومن أجلِ تحسينِ ظروفِ عملِهم ورفعِ مرتّباتِهم. وقد بلغت بعضُ هذه النقاباتِ شأناً كبيراً جدّاً في بعضِ البلدانِ وأصبحتْ لها أهميةٌ عظيمة.

واستأنف ياسرٌ حديثَهُ مرةً أخرى وقال :

- ويا لَه من تطوّرٍ هائلٍ ذلك الذي حصلَ في المئةِ سنةِ الماضية! إن الإنسانَ يتمتعُ اليومَ بقوّةٍ جبّارةٍ (ويرجع الفضل في ذلك بصفةٍ خاصةٍ إلى الكهرباء)، وبقدرة هائلةٍ على آستعمالِ مُختَلَفِ أنواع الطّاقةِ بسهولةٍ مُذهلة. وكَمثلٍ على ذلك يكفي أنْ أقولَ إن أيَّ طفلٍ صغيرٍ يستطيعُ إضاءةَ منزلٍ بكاملِهِ بمجردِ الضغطِ على زرٍ في الحائط. والحقيقةُ أنّ الكهرباءَ هي ثورتُنا العظيمةُ في القرنِ العشرين. وهي طاقةٌ يمكنُ نقلُها واستعمالُها بسهولةٍ ويُسر، وقد نمتْ وتطوّرتْ بسرعةٍ مدهشةٍ، حتى أصبحت الآنَ تُؤثّرُ تأثيراً كاملاً في حياتِنا وتكييفِها تماماً. ونحن نرى الآن أنّ الاسلاكَ الكهربائيةَ تمتدُّ إلى مختلفِ مناطقِ بلادِنا، حيثُ تنقُلُ الكهرباءَ حتى أصغرِ القُرى وأبعدِها في أعالي الجبالِ أو في أعمقِ الوُديان. وتتدخّلُ الكهرباءُ حالياً في كلِّ شيءٍ يتّصِلُ بحياتِنا اليوميةِ، كما أنّها تتدخلُ في كلِّ شيءٍ يتّصِلُ بالحياةِ الصِّناعيةِ حيثُ إنّها هي التي تُديرُ أضخمَ الآلاتِ وأعظمِها وأكثرِها تعقيداً، وإليها يرجعُ الفضلُ في تطويرِ الراديو والتلفزيون والتلفون الذي محى المسافاتِ تماماً، وكذلك في تطويرِ الحساباتِ الآلية.

وتنهد شاكرٌ ونفث في غليونِهِ وقالَ متحسّراً :



- يجب أن لا ننسى أيضاً تلك الفوضى العظيمةَ التي ستطغى على حياتِنا عندما تنقطعُ الكهرباءُ ذاتَ يومٍ في أحدِ المراكزِ الكهربائيةِ الضخمة. . .

ولم يرد ياسرٌ على استفزازِ شاكر، واكتفى بهزِّ رأسِهِ ثم قال :

- سوفَ أتحدّثُ الآن عن مواردِ الطاقةِ، وأُحِبُّ أن أقولَ بأنّها جميعاً تستطيعُ انتاجَ الكهرباء :

- **مساقِطُ المياهِ**، وهي تُغذّي مراكزَ "الطاقةِ المائية".

- **الفحمُ**، وهو المادةُ المستخدَمةُ في مراكزِ "الطاقةِ الحراريةِ"، وقد ظلّ لمدةٍ طويلةٍ الأساسيةَ للتدفئةِ بالمنازل. وقد ذكر لي والدُك ذاتَ يومٍ يا جهادُ، إنّه شاهدَ هو وعمّك أحمدُ أثناءَ رحلتِهما الطويلةِ، أفراناً عاليةً لتذويبِ المعادنِ. وقد لعبَ الفحمُ بجانبِ الآلةِ البخاريةِ، دوراً رئيسياً في القرنِ التاسعَ عشرَ، حيثُ يُعتبرُ أساسَ النشاطِ الصّناعيِّ وتطوّرِ ونموِّ المواصلاتِ البحريّةِ والبريّةِ وبصفةٍ خاصةٍ سككِ الحديد.

والفحمُ من الموادِ الأوليّةِ المهمةِ جدّاً في الوقتِ الراهنِ، وقد آستطاعَ الإنسانُ بتقطيرِهِ آستخراجَ موادَّ نافعةٍ للغايةِ، مثلِ غازِ الإنارةِ ووَقودِ الكوكِ، والفَضَلاتِ اللازمةِ لصُنعِ السَّمادِ والمُبيداتِ الحشرية.

- **النفطُ**، وهو يُستخدَمُ أيضاً في مراكزِ "الطاقةِ الحراريةِ"، وقد تمَّ اكتشافُهُ عام ١٨٥٩ م، وأصبحَ بفضلِ سهولةِ استعمالِهِ أحسنَ موردٍ للطاقةِ وأكثرَها آستعمالاً، وقد أخذَ منذُ ذلك الوقتِ يأخذُ مكانَ الفحمِ ويحلُّ محلهُ بالتدريج. وقد أدّي آستعمالُ النفطِ في المحركاتِ الانفجاريةِ إلى تطوّرٍ هائلٍ في مجالِ صناعةِ السّياراتِ، وهي الصناعةُ التي تميّزُ مجتمعنا التكنولوجيَّ الحديثَ. ويعتبرُ النفطُ المادّةَ الأساسيةَ الأولى التي تدخلُ في

إنتاج آلعديدِ من آلموادِ المفيدةِ مثلِ البلاستيك الذي حلّ جزئيًا محل بعضِ المعادنِ والزُّجاجِ، والنّسيجِ الصّناعي (النيلون)، والأدويةِ... الخ...، بدونِ أن ننسى اللبانَ بالطبْعِ!

- الغازُ الطبيعي، ويوجدُ في نوعِ الطبقاتِ التي يُوجَدُ فيها النفط، بل إنهُ يوجدُ معهُ في مُعظَمِ الأحيان. وهو يُعَدُّ حالياً أرخصَ موردٍ للطّاقةِ في العَالَم.

- الطّاقةُ النووية، وقد اكتشفت سنة ١٩٤٠ م، ونحصلُ عليها بانشطارِ نواةِ الذّرّةِ الإشعاعية. ولم يكنِ الرأيُ العامُّ العالميُّ يعرفُ شيئاً عن قُوّةِ الطاقةِ النوويةِ وقُدراتِها وإمكانياتِها التخريبيةِ، حتى كشفتْ ذلكَ فَجْأةً وبشكلٍ مُريعٍ القنابلُ الذّريةُ التي أُلقيتْ على اليابانِ في سنة ١٩٤٥ م.

وقد بدأ الانسانُ منذُ مدة قصيرةٍ يستعملُ هذه الطاقةَ في الأغراضِ السلميةِ كاستخدامِ البطارياتِ النوويةِ في تغذيةِ مراكزِ الطاقةِ الحرارية.

إنّ هذه الطاقةَ تتميزُ بقوةٍ إلى أقصى الحدودِ، وهي لذلكَ خطيرةٌ جدّاً لأنّ الإنسانَ لم يستطعْ حتى الآن السيطرةَ عليها سيطرةً كاملة.

ومن بينِ الأخطارِ العديدةِ الناتجةِ عن آستعمالِ هذه الطاقةِ، خطرُ فَضَلاتِ الاشعاعاتِ الذّرّيةِ التي لا نعرفُ حتى الآن طريقةً مناسبةً للتخلّصِ منها.

والحقيقةُ أنّ آستعمالَ الطاقةِ النوويةِ صعبٌ وتكلفتَهُ غاليةٌ، وهو يحتاجُ إلى موظفينَ أكفاءَ جدّاً وخبراءَ متخصصِينَ، وإلى توظيفِ أموالٍ طائلة.

وتدُلُّ الأطماعُ والصِراعاتُ والمُؤمراتُ الدُّوَلِيّةُ العنيفةُ السائدةُ في عالَمِنا اليومَ حولَ مناجمِ الاورانيوم (الوقود المستعمل في المراكز النووية)، دلالةً

واضحةً على الأهميةِ القُصوى التي ستكونُ لهذهِ الطاقةِ في المستقبل.

وسكت ياسرٌ، ووجد جهادٌ الفُرصةَ مناسبةً للتدخلِ، فقال:

ـ نفهم من كلامِك أنّ مواردَ الطاقةِ المستعملةِ في مجتمعِنا الصِّناعي، هي بصفةٍ عامةٍ مواردُ نستخرِجُها من باطنِ الأرض. وهذا يعني أنَّها مواردُ تكوّنتْ ببطءٍ شديدٍ طَوالَ آلافِ السنينَ، ولهذا السببِ فإنّها ستنضبُ ذاتَ يومٍ نظراً للإسرافِ الزائدِ عن الحدِ في استخراجِها واستعمالِها، وسيجدُ العَالَمُ نفسَهُ حينئذٍ في حالةِ عوَزٍ شديد. والمشكلةُ إذاً هي في إيجادِ حلٍّ مناسبٍ، وذلك باكتشافِ أو تطويرِ أنواعِ جديدةٍ من الطاقةِ يستطيعُ الإنسانُ آستعمالَها بدلاً من المواردِ القديمةِ التي تنضبُ يوماً بعدَ يوم. ومن بينِ الأبحاثِ والدراساتِ الموجودةِ حالياً في هذا المجالِ، أذكرُ بالاضافةِ إلى الموجودةِ منها في إطارِ تحسينِ آستعمالِ قوّةِ آالماءِ والرّيحِ، وآستعمالِ الطاقةِ الحراريةِ الأرضية (منابع المـاء الساخنِ والغـاز المنبثق من الأرض)، وآستعمالِ قـوّةِ المدِ والجزرِ، الأبحاثَ والدراساتِ الخاصةَ بالطاقةِ الشّمسية.

وأشيرُ هنا إلى أن القدماءَ كانوا يستطيعونَ إشعالَ النّارِ بواسطةِ عـدسةٍ زُجاجيّةٍ مكبّرةٍ، ونستطيعُ نحنُ اليومَ الحصولَ على درجاتِ حرارةٍ عاليةٍ جِدّاً في الأفرانِ الشّمسيّة. وهذا يعني أنّنا نستطيعُ حاليًّا تدفئةَ منزلٍ كبيرٍ وانتاجَ ما يحتاجُ إليه من كهرباءَ بفضلِ الطاقـةِ الشّمسيةِ فقط، وذلـك بالـطبعِ في المناطقِ المُشمِسةِ جدّاً.

وهُناك الآنَ أبحاثٌ تهدِفُ إلى تحقيقِ ظاهرةِ الانشطارِ النوويِّ بشكلٍ تجريبي، وهي الظاهرةُ التي تَجعلُ الشمسَ تُدفّئُ وتُضيءُ.

وقال شاكرٌ:

ـ بالنسبةِ لي ، فإنّ المشكلةَ الكُبرى الناتجةَ عن النّشاطِ الصّناعيّ هي مشكلةُ التلوّثِ، تلوّثُ الماءِ والهواءِ، وتراكمُ الفضَلاتِ المختلفةِ الأنواعِ والأشكالِ التي تحدّثنا عنها مِراراً من قبل. فإذا أضفنا اذاً "خطرَ التلوّثِ"، إلى "خطرِ نضوبِ مواردِ الطّاقةِ" التي تحدّث عنها جهادٌ، فإنهُ سيكونُ لدينا حينئذٍ سببانِ رئيسانِ وجيهانِ لتعميقِ أبحاثِنا في المجالاتِ الخاصةِ بمواردِ الطاقة "غيرِ الملوّثة" (أو الأقل تلويثاً) مثلِ الماءِ والريحِ والشّمسِ بالطبع، والحقيقةُ أنّني مدهوشٌ لضعفِ ما نقومُ به من مجهوداتٍ في هذا المجال.

وقال ياسرٌ :

ـ أُحِبُّ أن أختمَ حديثي في هذا الموضوعِ بتسجيلِ الأهميةِ القُصوى للدورِ الذي تلعبُهُ الطّاقةُ في حياةِ الإنسان. ولا شكّ في أنّكما تعرفانِ أنّ المقياس المستعملَ لتمييزِ البلدانِ المتقدّمةِ صناعياً عن البلدانِ الناميةِ يعتمدُ أساساً على درجةِ استهلاكِ الطّاقةِ بالنسبةِ لكلِّ فردٍ من السُّكانِ ! وأُحِبُّ أن أذكرَ هُنا بأنّ مُعْظَمَ بلادِ العَالَمِ الثالثِ غنيّةٌ بالموادِّ الأوليّةِ وبمواردِ الطّاقةِ، إلاّ أنّ البلدانَ الصناعيةَ الغنيةَ لا تدفعُ ـ ويا للأسفِ الشّديدِ ـ ثمناً عادلاً لما تستوردُهُ من العَالَمِ الثالثِ من موادَّ خامٍ، بحيثُ يتناسبُ معَ الأسعارِ الباهظةِ التي تدفعُها هذهِ البلدانُ عندَ شراءِ هذهِ الموادِّ بعدَ تصنيعِها.

والحقيقةُ أنَّ هذهِ واحدةٌ منَ المشاكلِ الضخمةِ التي تُواجِهُ بلدانَ العَالَمِ الثالثِ والتي يجبُ إيجادُ حلٍّ سريعٍ ومناسبٍ لها، لأنّها تُعرقِلُ نموَّ هذهِ البلدانِ وتحولُ دونَ انطلاقِها الصّناعي إلى حدٍّ كبير.

وأذكّرُكما أخيراً بأنَّ الإنسانَ يستفيدُ من الطّاقةِ في المجالاتِ الآتيةِ :

١ ـ التّدفئةُ

٢ ـ الإنارة

٣ ـ النّقل

٤ ـ الاتصالاتُ السلكيةُ واللاسلكية

٥ ـ الأجهزةُ الكهربائية

٦ ـ الصّناعة

٧ ـ الزّراعةُ الحديثة

وسكت ياسرٌ ، وقال شاكرٌ بعدَ مدةٍ من الصّمتِ والتأمُّل :

ـ لقد تحدّثتُما بشكلٍ رائعٍ عن التقدّمِ العلميِّ والتقنيِ الـذي حدثَ في السنتينِ الماضيتينِ، والحقيقةُ أنّني أغبطُكما على مشاركتِكما الفعّـالةِ في تحقيقِ هذا التقدّمِ والدفع بهِ إلى آفاقٍ جديدة. ولكنّ ما أخشاهُ ـ ويا للأسفِ الشديد ـ ، هو ألاّ يكونَ "النموُّ المعنوي" للإنسانِ وللدُّولِ أيضا قد نمى وتطوّر بشكلٍ متوازٍ معَ التقدُّم العلميِّ والتّقني الذي أشرتُما إليه. والواقعُ أنَّ عبارةَ "النمو المعنوي" لا تُعبِّرُ تماماً عمّا أُريدَ قولُهُ، ولكنّها على كلِّ حالٍ تقترِبُ من المعنى الذي أهدفُ اليه.

وقال جهادٌ :

ـ إنّك ولا شكَّ في تفكّـرٍ في الحروبِ التي تؤذي عـالَمنا وتصيبُـهُ بأبلغِ الأضـرارِ، وفي التقدمِ التقني الـذي يضعُهُ الإنسـانُ في خدمـةِ المـوتِ والدّمارِ، وفي سيـاقِ التسلحِ الذي يُـدمِّرُ البلدانَ الفقيـرةَ ويُغني البلدانَ الغنيةَ، وفي الأنظمةِ الاستبداديةِ التي تمنعُ حُريةَ التفكيرِ والتعبيرِ، وتقمعُ الجماهيرَ مادياً ومعنوياً، وتمتلئُ سجونُها بآلافِ الأبرياءِ، وتمارسُ مختلفَ أنواعِ التعذيبِ الجسدي والنفسي، ولا تترددُ في تصفيةِ مُعارِضيها بوحشيةٍ

فظيعة، ولا شك في أنّك تُفكِّر اخيراً في آستغلال الأقوياء للضُّعفاء والأغنياء للفقراء . . .

وردّ شاكرٌ قائلاً :

- ليس هذا فقط . . . ففي الميدانِ الذي أعملُ فيه والذي أفهمُ فيه بعضَ آلشيء، وهو الميدانُ المتّصِلُ مباشرةً بالإنسانِ، أستطيعُ أن أؤكدَ لكما بأنَّ الحالةَ العامةَ ليست طيّبةً على الإطلاق. فحتّى وقتٍ قريب، كانتِ البشريةُ تتقدّمُ بخُطىً بطيئةٍ جدّاً، وآستطاعَ الإنسانُ إقامةَ حضاراتٍ عظيمةٍ تدريجياً وببطءٍ شديدٍ، وأشرقتْ كلُّ واحدةٍ من هذه الحضاراتِ على العَالَم ، وظلّت كذلكَ لمدةٍ من الوقت، ثم انطفأتْ شيئاً فشيئاً بعدَ أن نقلتْ لِما بعدَها من الحضاراتِ ثقافتَها واكتشافاتِها. ولم تكن مُستَوياتُ الحياةِ عندَ شعوبِ البلدانِ المختلفةِ في ذلكَ الوقتِ متفاوتةً إلى حدٍ كبيرٍ، وقد ظلَّ الفرقُ بينَ هذه المستوياتِ ضعيفاً مدةً طويلةً من الزّمانِ. ولكنْ بدأ كلُّ شيءٍ يتغيرُ منذُ بضعِ عَشَراتٍ من السنينَ، وبدأ هذا التغييرُ يسيرُ بسرعةٍ رهيبةٍ إلى أن قضى تماماً على التوازنِ الذي كان يسودُ العَالَمَ، حيثُ نرى الآنَ النّظامَ الاقتصاديَّ العَالَمي يُساهِمُ في إغناءِ الأغنياء والإفراطِ في تغذيتِهم، وإفقارِ الفقراءِ والعملِ على تجويعِهم. والحقيقةُ أنّه إذا لم يحصلْ تغيرٌ جذريٌّ وسريعٌ في هذا الاتجاهِ، وهو تغيرٌ لا نرى له أيّ أثرٍ في الوقتِ الحالي، فإنّ الفجوةَ ستزدادُ آتساعاً بين البلدانِ التي حقّقت فيها الآلةُ تراكماً عظيماً للثرواتِ وسمحتْ للإنسانِ بالتّخلي عن بعضِ المَهام اليدويةِ، وبتخصيصِ وقتٍ أطولَ للثقافةِ والتّعليمِ ، وبينَ بقيةِ بلدانِ العَالَمِ الأخرى التي تُحاوِلُ أن تعيشَ على الكَفَاف.

واستفسر جهادٌ قائلاً :

ـ ولكنْ، أليستِ المهمةُ الأساسيةُ والوطنيةُ الرئيسيةُ لليونسكو هي تطويرَ التعليم وتنميتَه في جميع أنحاءِ العَالَم ؟

وردّ شاكرٌ قائلاً :

ـ بالتأكيدِ، ولكنّ المُهمةَ ضخمةٌ، والأموالَ المخصصةَ لليونسكو غيرُ كافيةٍ، كما أنّهُ يجبُ أولاً وقبلَ كلِّ شيءٍ الاهتمامُ بالمجاعاتِ والقضاءِ عليها قبلَ التفكيرِ في أيِّ موضوعٍ آخر . . .

وقبلَ أن ينطلِقَ شاكرٌ في الحديث، قاطعَه جهادٌ قائلاً :

ـ إسمعْ يا شاكر، إنّنا لا نُريدُ قضاءَ هذهِ الليلةِ الأخيرةِ في التفلسُفِ، وقد حانَ وقتُ عَرضِكَ لموضوعِ الصِّحةِ الذي تكلّفتَ بِهِ، فهلْ تستطيعُ ذلكَ؟





الصِّحـــــة

هزهز شاكرُ غليونهُ عِدَّةَ مرّاتٍ وأفرغَ ما فيه من دُخانٍ في صحنِ السجائرِ ثم ملأهُ بعنايةٍ وأشعلهُ بهدوءٍ وقال :

ـ ربما نستطيعُ عموماً إجمالَ التقدمِ الذي حصلَ في الطِّبِ في المئةِ سنةِ الأخيرة في ثلاثِ النقاطِ الآتيةِ :

١ ـ اكتشافُ الميكروباتِ ، وما ترتّبَ على ذلكَ من آهتمامٍ عظيمٍ بعلمِ الصِّحة .

٢ ـ التّطعيمُ .

٣ ـ ظهورُ الأدويةِ المقاوِمَةِ للميكروباتِ والمركباتِ المضادّةِ للجراثيم .

وبفضلِ التلقيحاتِ والأمصالِ ، آختفى العديدُ من الأمراضِ من

البُلدانِ الصِّناعيةِ المتقدمةِ، كالدفتيريا التي كانت تقضي على عددٍ كبيرٍ من الأطفالِ منذُ عهدٍ قريبٍ فقط، وكذلك الكزازُ (التيتانوس) الذي كان يجعلُ آتفهَ جُرحٍ يُشكِّلُ خطراً عظيماً على حياةِ المريض. وقد كانتِ الوقايةُ من بعضِ الأمراضِ مثلِ السِّل والتيفوئيد غيرَ ناجحةٍ ولا تتمُّ إلاّ بشكلٍ جزئيٍّ، ولكن لدينا الآنَ أدويةٌ كافيةٌ للوقايةِ منها أو علاجِها والقضاءِ عليها. فالسِّل الذي قضى على الكثيرِ من شبابِ جيلنا يمكنُ الآن علاجُهُ بسهولةٍ بأستعمال المركباتِ المضادةِ للجراثيمِ مثل الريفامبيسين، كما أن للبنسلينِ تأثيراً مدهشاً للغايةِ وبصفةٍ خاصةٍ بالنسبةِ لمرضى الزُّهرى والحمّى القرمزيةِ اللذينِ يُمكِنُ أن تنقلَهما أيةُ أمٍّ مصابةٍ بهما إلى أطفالِها.

وقد أدّى التقدمُ الرائعُ في مجالِ الأدويةِ، والتطويرِ المستمرِّ في علمِ الصحةِ وتحسينِ طرقِ العنايةِ بالأطفالِ وخاصةً فيما يتعلَّقُ بتغذيتِهم، إلى انخفاضٍ كبيرٍ جدّاً في عددِ الأطفالِ الذينَ يموتونَ في الأسابيعِ الأولى من ولادتِهم. ويكفي أن أذكرَ أنَّ نسبةَ الوفياتِ في الأطفالِ كانت في بدايةِ القرنِ ١٤٠ بالألف، وأصبحت الآنَ ١٠ بالألفِ فقط. ولا يجبُ أن ننسى بالطبعِ حُمّى الملاريا، وهي تُوجدُ أصلاً في المستنقعاتِ وينقلها البعوضُ إلى المناطقِ الآهلةِ بالسُّكانِ. وقد اختفتْ هذه الحُمّى اللعينةُ من أوروبا بفضلِ مبيدِ الحشراتِ د. د. ت، ولكنّها لا تزالُ تعيثُ فساداً في بلدانِ حوضِ البحرِ المتوسط.

وقال ياسرٌ :

ـ ولكنْ تجبُ الإشارةُ الى أن الـ د. د. ت الذي قدّمَ للانسانيةِ خدماتٍ جليلةً يُعترفُ بأهميتِها الجميعُ، استعمل ـ و يا للأسفِ الشديدِ ـ بكثافةِ

وعلى نطاقٍ واسعٍ وبدونِ أيِّ حذرٍ أو احتياطٍ، ممّا أدّى في النهايةِ إلى القضاءِ على العديدِ من الحشراتِ النافعةِ للطبيعةِ والزراعةِ والإنسانِ. هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ الملاريا التي اختفت من بعضِ المناطقِ في العَالَم، بدأت تظهرُ مرّةً أخرى بشكلٍ غيرِ منتظرٍ في هذهِ المناطق، نتيجةً لنموِ السِّياحةِ وتعددِ الأسفارِ والرحلاتِ وكَثرةِ التنقلِ من مكانٍ إلى آخر.

وقال جهادُ :

- وحتى نبتعدَ قليلاً ونخرجَ من مَجَالِ "الأمراض"، أُحِبُّ أن أوجّهَ انتباهَكما إلى مسألةِ "تنظيمِ الأُسرةِ"، وهي مسألةٌ أعتبرُها في مُنتهى الأهميّةِ، إذ أنّها قد تؤدي في نهايةِ الأمرِ إلى إعادةِ تشكيلِ مجتمعاتِنا وإدخالِ تغييراتٍ جذريةٍ عليها. وقد أدّى ظهورُ هذا النوعِ من التنظيمِ إلى تحديدِ النَّسلِ، وإلى إعطاءِ الزوجين إمكانيةَ اختيارِ الوقتِ المناسبِ للحصولِ على الأطفالِ وكذلك تحديدِ العددِ المطلوبِ منهم، ممّا ساعدَ على رفعِ مستوى الأُسرةِ وضمانِ سعادتِها ورفاهيتِها.

وقال شاكرٌ :

- أعتقد أنا أيضاً أنَّ "تنظيمَ الأسرةِ" عمليةٌ في مُنتهى الأهميّةِ، بشرطِ ألا يسعى المتزوجونَ بدافعِ الأنانيةِ أو الخوفِ من المستقبلِ إلى الاكتفاء بعددٍ محدودٍ جدّاً من الأطفال. وحتى نعودَ إلى موضوعِنا، أُشيرُ إلى أن سكانَ العالَم لم يتوقفوا منذُ بدايةِ هذا القرنِ عن النموِّ والازديادِ، كما تضاعفَ متوسطُ عمرِ الإنسانِ فأصبحَ يبلغُ حالياً في البلدانِ الصّناعية المتقدمةِ ٧٠ سنة.

وتساءَل ياسِرٌ قائلاً :

ـ وماذا عن العَالَمِ الثّالث ؟

وردَ شاكرٌ قائلاً :

ـ متوسطُ عمرِ الانسانِ في العَالَمِ الثالثِ لم يتغيرْ عمّا كان عليه في الماضي، وهو يبلُغُ ٥٦ سنةً في آسيا، و ٤٥ سنةً في افريقيا، بل ويصل حتى ٣٥ سنةً في بعضِ البلدانِ الإفريقية. وهناك بالطبعِ اختلافاتٌ في متوسطِ عمرِ الانسانِ من بلدٍ إلى آخرَ من بلدانِ العالمِ الثالثِ. أمّا عن نسبةِ الوفَياتِ عندَ الأطفالِ، فإنّها لم تنخفضْ ـ و يا للأسفِ الشديد ـ إلا بشكلٍ ضعيفٍ للغايةِ، وهي تبلُغُ حالياً ١٢١ بالألفِ في آسيا، و ١٥٢ بالألفِ في إفريقيا، ومن الأسبابِ التي زادت من سوءِ الحالةِ، آستعمالُ الحليبِ الصِّناعي محلَّ حليبِ آلأمِّ الطّبيعي.

وبالنسبةِ للأمراضِ المُعدِيَةِ المعروفةِ، فإنّنا نلاحظُ بأنّ هذه الأمراضَ تَعيثُ فساداً في العَالَمِ الثّالثِ، وليس هُناك سوى مرضِ الجُدَرِيِّ الذي بدأ يختفي شيئاً فشيئاً، ويرجعُ الفضلُ في ذلكَ إلى مُنَظَّمةِ الصِّحةِ العالميةِ وهي مُنظَّمةٌ مُتخصِّصةٌ من مُنَظَّماتِ الأُممِ المتَّحدةِ. أمّا الأمراضُ الأُخرى مثلُ (الكوليرا) والملاريا ومرضِ النّوم والحُمّى الصّفراءِ، فإنّها لمّا تُقهرْ بعد.

وكنماذجَ فقط أُشِيرُ إلى أن في إفريقيا :

ـ ٢٠٠ مليونٍ مصابٍ بالبلهارزيا.

ـ ٦٠ مليونٍ مصابٍ بالتراخوما (وهو مرض يؤدي إلى الإصابة بالعمى).

ـ ١٢ مليونٍ مصابٍ بالجُذامِ.

والأمرُ المُحزنُ للغايةِ هو أنّ هذهِ الأمراضَ لا تزالُ موجودةً ومنتشرةً في

بلدانِ العَالَمِ الثّالثِ، برغمِ أنّنا نعرِفُ الآن تماماً طُرُقَ علاجِها والقضاء عليها. وقد تمّ ذلكَ بالفعلِ في البلدانِ الصّناعيةِ المتقدمة.

وقال جهادٌ :

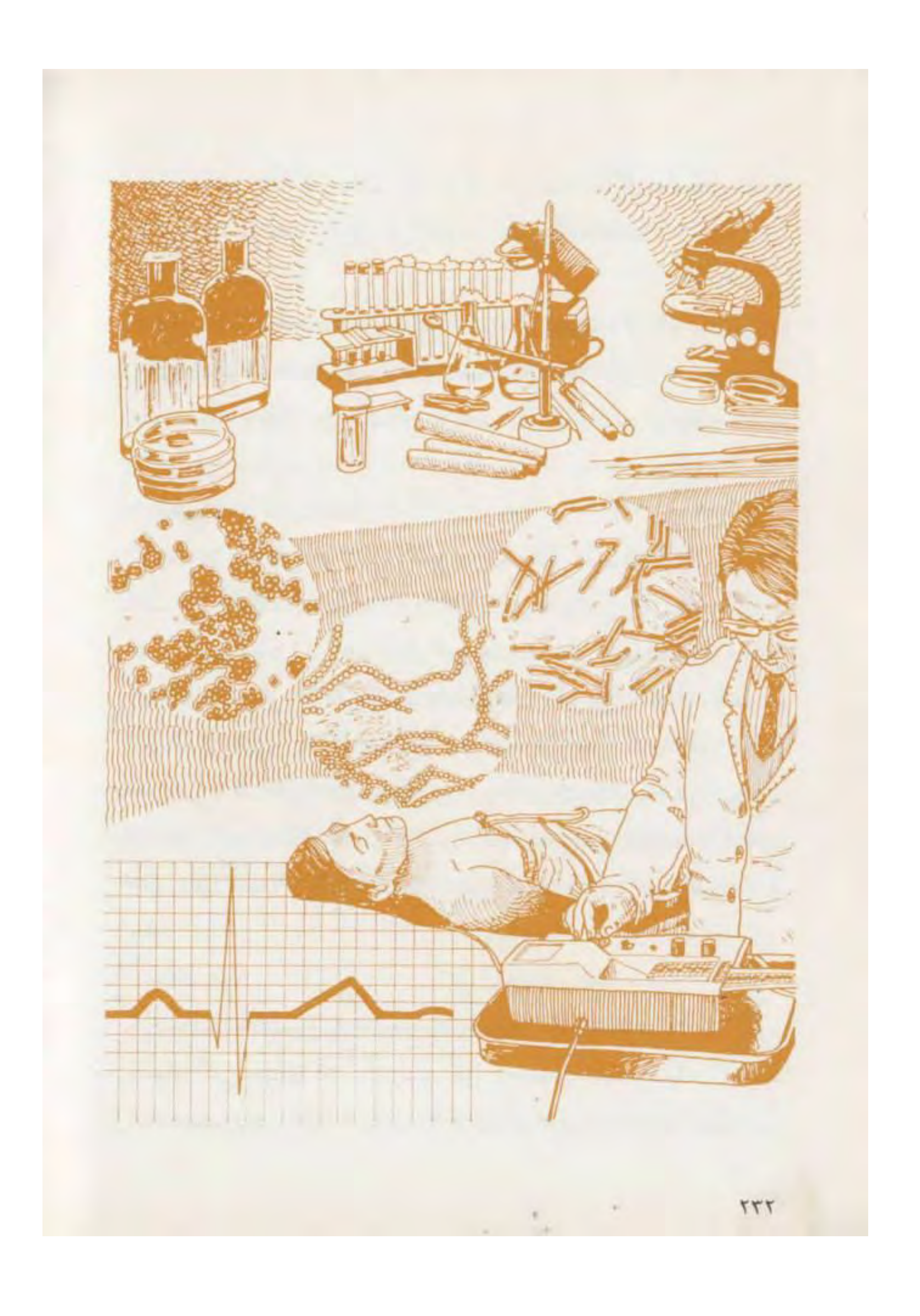
- يُمكِنُ بالطّبعِ القضاءُ على جميعِ الأمراضِ المنتشرةِ في العَالَمِ الثّالث، ولكنْ بشرطِ أن تتحولَ إلى ميدانِ الصحةِ كلُّ تلكَ الأموالِ الضخمةِ التي تُنفَقُ بِسَخَاءٍ وجنونٍ على التسلُّحِ بل على الموتِ والهدمِ والتخريبِ ونشرِ الرُّعبِ في العَالَمِ.

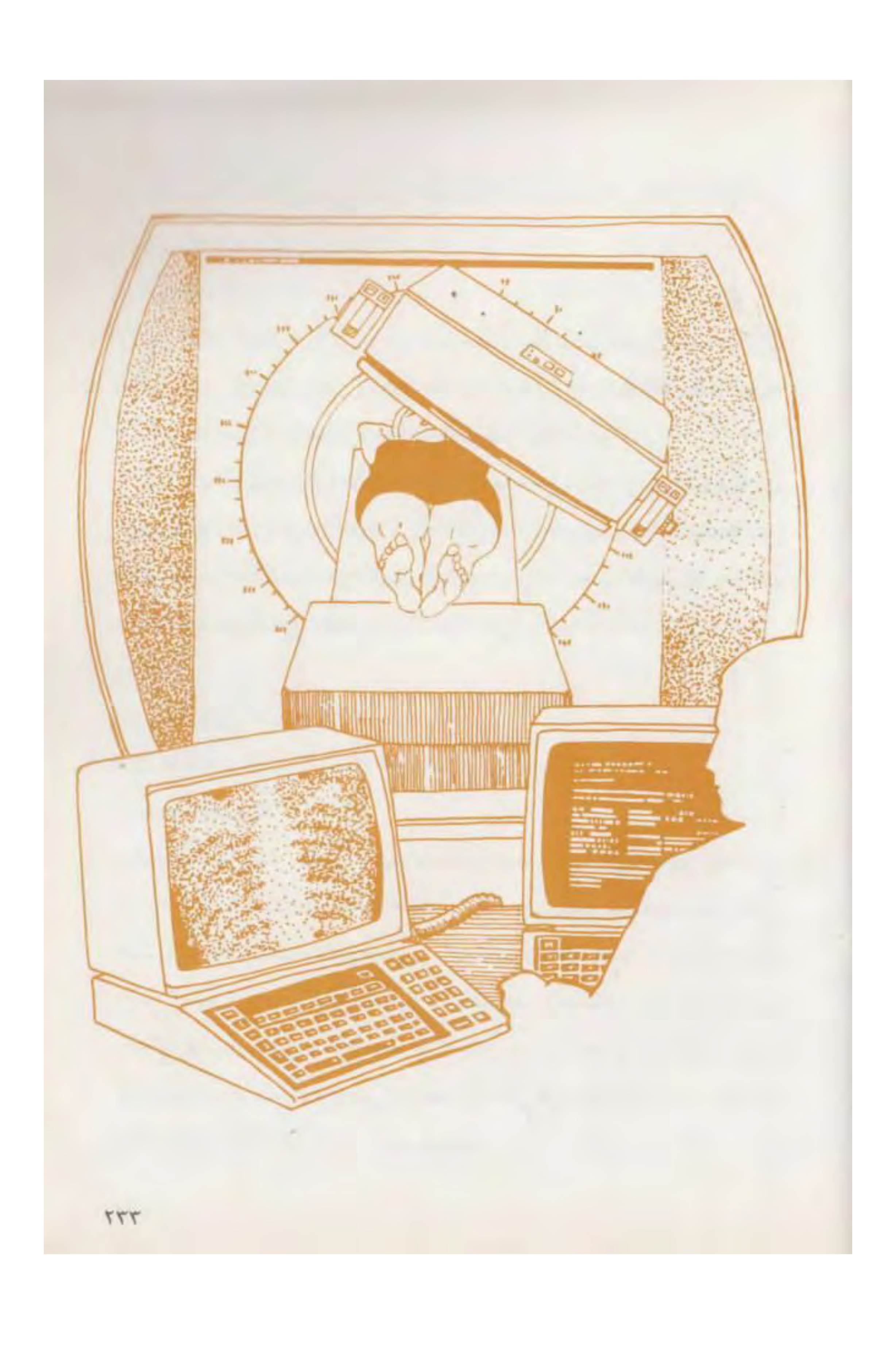
وتابع شاكرٌ حديثه قائلاً :

- يجِبُ أن أُشيرَ إلى أنّهُ ليس كلُّ شيءٍ ورديّاً وعلى أحسنِ ما يُرامُ في البُلدانِ الصّناعيةِ المتقدّمةِ، فقد عاد إلينا العديدُ من الأمراضِ التي كُنّا نعتقِدُ أنّنا قضينا عليها تماماً، كما ظهرتْ أمراضٌ جديدةٌ أُطلقَ عليها الأطباءُ "أمراضَ الحضارةِ"، وهي أمراضٌ ترتبِطُ بالتغـذيةِ الـزائدةِ عن الحـدِّ، وبانعـدامِ النّشاطِ الرياضي وبالتوتّرِ النفسيّ. ومن هذهِ الأمراضِ مثلاً مرضُ الضّغطِ الشّرياني، أمـراضُ القلبِ والشرايينِ، والأمـراضُ النفسيّةُ مثـلُ العِصابِ المنتشرِ كثيراً، والذي يُصيبُ الإنسانَ عندما يعجِزُ عَنِ التكيّفِ معَ المحيطِ الذي يعيشُ فيه. والحقيقةُ أنَّ الأمراضَ النفسيةَ منتشرةٌ على نِطاقٍ واسعٍ جدّاً.

وقال ياسرٌ :

- ولهـذا السببِ، بـدأ الحـديثُ يكثُـر في هـذهِ الأيـامِ عن "نـوعِ الحياةِ" التي يعيشُها النّاسُ، وليس فقط "مستوى" هذه الحياة. وقـد بدأ المتخصصونَ في علمِ البيئةِ الذينَ يهتمّونَ ويدرسونَ المحيطَ الذي يعيشُ





فيهِ الإنسانُ، يُشكِكُون في بعضِ أشكالِ التقدمِ الصِّناعي التي تطغى على مجتمعاتِنا الصناعيةِ المُتقدِّمة.

وقال شاكرٌ:

ـ وأختتمُ حديثي بالإشارةِ إلى السرطانِ، وهو مرضٌ خبيثٌ جدّاً ما يزالُ الطِّبُ حتى الآن لا يجِدُ دواءاً ناجحاً له، وما يـزالُ الأطباءُ يقِفـونَ أمامـه مكتوفي الأيادي لا يجدون لمشاكِلِهِ العويصةِ أيَّة حلولٍ شافية.

وسكت شاكرٌ، وظلَّ الأصدقاءُ الثلاثةُ مدةً من الزمنِ يتأمّلونَ ويفكِّرون في صمتٍ وهدوءٍ في ما أثاروه من مشاكلَ أثناءَ أحادِيثِهم، وفي القضايا التي لم يستطيعوا مناقشَتَها نظراً لضيقِ الوقتِ، وفي ما يجبُ عليهم أن يعرِضوهُ ويشـرحوهُ بـوضـوحٍ ويُسـرٍ في الكتبِ التي يجبُ أن تكـونَ في مُستـوى الأطفال

وبعدَ قليلٍ قال جهادٌ:

ـ إنَّ ما قلتَهُ يا شاكرُ لا يبعثُ على الفرحِ والسُّرور.

وردَّ شاكرٌ قائلاً:

ـ الحقيقةُ أنّنا نعيشُ تطوّراً عظيماً وتقدماً واسعاً وسريعاً في جميعِ مجالاتِ الحياة، وقد تحقّقتْ نجاحَاتٌ هائلةٌ لم يكنْ حتّى آباؤنا يحلُمونَ بها. ولكن هناك أيضاً إحباطاتٌ وفشلٌ عميقٌ وآمالٌ خائبةٌ وأخطاءٌ عديدة. ولذلك، فإنَّ الأمرَ المُهمَّ والأساسَ هو أن يعيَ الشَّبابُ هذهِ الحقيقةَ، وأن يكونوا على اطلاع كافٍ وتكوينٍ صالحٍ ومعرفةٍ لا بأسَ بها بما يجري في العَالَمِ حتّى لاتتجاوزَهم الأحداثُ، وحتى يُمكنَهم التَّدخُلُ في الوقتِ المناسبِ وعندما تدعو الضرورةُ لذلك.

وقد أشَرتَ في عَرضِكَ يا جهادُ، أنّنا نستطيعُ بفضلِ المذياعِ معرفةَ كلِّ ما يجري تقريباً في الجانبِ الآخرِ من العَالَمِ ، بل وأحسنُ من ذلكَ، نستطيعُ مشاهدةَ الأحداثِ التي حصلت في أماكنَ بعيدةٍ جدّاً بمُجردِ النّظرِ للتلفزيون، بل والذَّهابِ إلى هُناك بالطائرةِ في ساعاتٍ قليلةٍ، ولهذا، فإنّنا لانستطيعُ، بل لا يصِحُّ أن نتجاهلَ آلامَ الإنسانِ ومآسِيهِ في أيِّ مكانٍ على وجهِ الأرضِ ، لأنَّ مشاكلَ العَالَمِ هي مشاكِلُنا وقضاياهُ قضايانا. لقد لعِبنا نحنُ دورَنا في الحياةِ وقُمنا بواجِبِنا، وأملُنا هو أنْ يتّحدَ شبابُ العَالَمِ ويتضامنَ بعضُهم مع بعضٍ ، وأن يقوموا جميعاً بشَجَاعةٍ وإخلاصٍ بما عليهم من واجباتٍ تُجاهَ أنفُسِهم وتُجاهَ بلدانِهم، ولكن أيضاً تُجاهَ العَالَمَ أجمع ، وهو الأمرُ الذي لم نهتمَّ نحنُ به ولم يُعطِهِ جيلُنا كلَّ ما يستحِقُّهُ من عنايةٍ وأهميّةٍ واهتمامٍ .

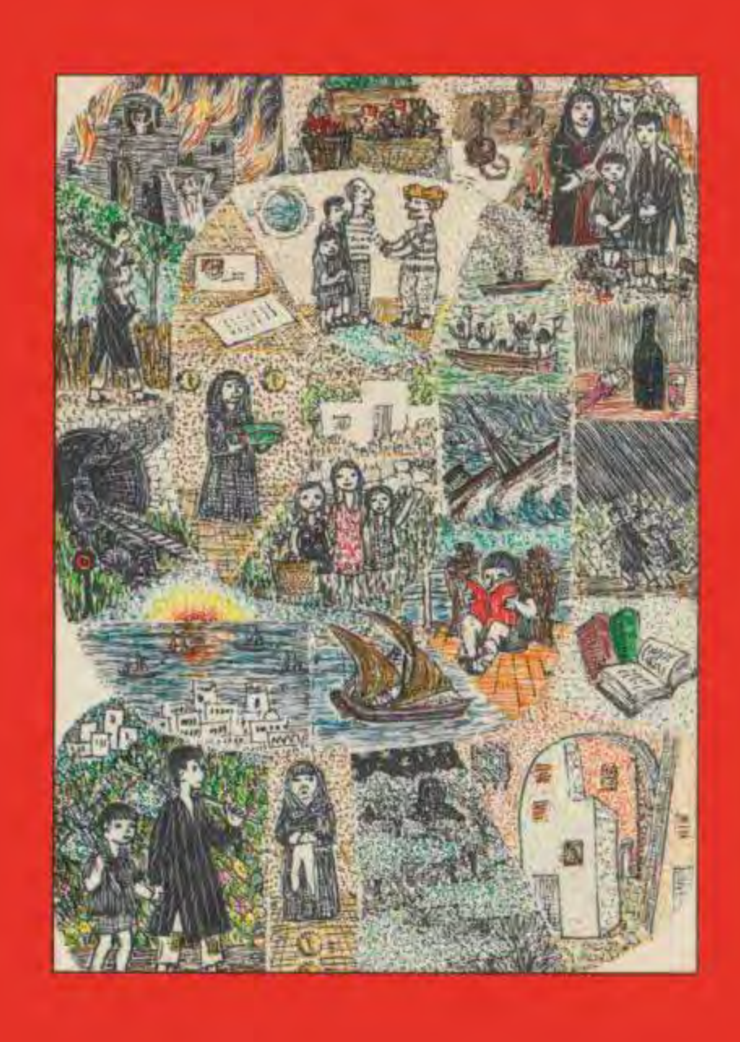
******

الفهـرسـت

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الأطفال
قسم مكتبة الطفل

تم انتاج هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة سارتك ـ لوزان.





الناشر: دار ثقافة الأطفال ـ ص.ب ـ 14176 بغداد
تلكس 2606 ـ هاتف 7760621